محمد أبو معتوق

القمقم والجني

رواية



الكوكب
رياض الريّس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

القمقم والجني

محمد أبو معتوق

القمقم والجني

رواية

الكوكب
رياض الريّس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

The Bottle and the Genie

by Mohammad Abu Maatouq

(Novel)

First Published in March 2008

An Imprint of Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.
BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953 - 21- 364 - X

الطبعة الأولى: آذار (مارس) ٢٠٠٨

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

تصميم ورسم الغلاف: دينا خليفة
(محترف بيروت غرافيكس)

المحتويات

الكهوف

حميدة الهلالي، ورغم عينيها الزرقاوين العنيدتين اللتين تثقبان الجدار، لم تستطع أن تلجم زوجها حميد السيوفي الذي يعمل بالتهريب ويمارس من موقع مهنته تحدياً صارخاً للحكومة والقوانين. لذلك لجمت ساقيها وأنوثتها دونه وأعلنت العصيان، وصار الزوج الذي تمرّس في التهريب، يهرب بنفسه إلى نسوة أخريات يستدعيهن في الليل ويأخذهن إلى كهوف حي المغاير الحوّارية المعتمة، هذه الكهوف التي تشكلت في القديم وسكنها البشر البدائيون الأوائل الذين استقروا في المنطقة، وكانت لهم أماكن نموذجية للعيش، أنجزتها الطبيعة بفعل الحتِّ والتعرية وأخذت شكل كهوف بيضاء متطاولة.

غير أن بشر هذه الأيام تركوا هذه الكهوف وسكنوا ما جاورها من أرض، وأبقوها لممارسة الأعمال، فصار يشغلها شغيلة الحبال من أبناء الحارة نهاراً، حيث يقومون فيها بصناعة الحبال والخيوط

على دواليب وسندات ضخمة تجدل الخيوط وحبال السفن الغليظة، وفي الليل عندما يغادرونها تصبح أماكن معتمة مخيفة تذكّر بحكايات الجدّات وأوكار الغيلان وممالك الجن والشياطين في غابر الأيام.

لذلك أصبحت أماكن خطرة يُخشى دخولها في الليل.

* عدد من أبرز شبان الحارة وقبضاياتها أصيبوا بالجنون لأنهم غامروا ودخلوا مع غيرهم في رهان أو تحدٍّ، وذلك عندما اعتقدوا أنهم يستطيعون في الليل أن يتسللوا إلى (الوتّارة) ويصلوا إلى صدر الكهوف الحوارية المعتمة ليغرسوا هناك سفوداً ويعودوا إلى خصومهم منتصرين رافعي الرأس كما دخلوا.

كانت الوتّارة مكاناً نموذجياً لصناعة الأصداء وتوليدها، لذلك كان الليل وصوت خطوات الفتى المغامر يدخلانه في مشاعر هائلة يحس من خلالها بأنّ جيشاً من الجن والشياطين والغيلان يتبعه، دون أن يدرك أن هذه أصوات ليست سوى أصداء خطواته الثقيلة الفزعة، وكان بمقدور الكثير من المراهنين تجاوز هذه الأصداء واحتمالها. كان المتباري يحضر معه سفوداً معدنياً كبيراً يستخدمه عُمال (البلغة) لتعليق الحبال الكبيرة، ويأخذ معه حجراً صخرياً صلباً ليضرب به السفود، وعندما يصل المتباري إلى بقعة الرهان، ويبدأ بالضرب على السفود، تنفجر الأصداء مثل ولاويل فزعة، فترجُّ رأس المتباري رجّاً وتدخله في الارتعاش والخوف فيتراجع فزعاً، وفي الغالب وبسبب تعذر الرؤية والارتباك، كان المتباري عندما يقع على الأرض ليغرس سفوده فيها لا ينتبه إلى قمبازه الطويل الذي انتشر تحته وأمامه، فيغرس السفود على طرف قمبازه، وعندما يحاول النهوض يشعر بأن قوى غامضة تجره من

الأسفل لتمنعه من النهوض، فإذا تمكّن من جرَّ نفسه بقوة بعد تمزيق الرداء، فإن حالته والعتمة المحيطة به لن تنجده على إتمام مشروعه والخروج ظافراً، لذلك كان يسلم نفسه للركض الأعمى والارتطام حتى يفقد عقله، وفي أحيان كثيرة يموت، دون أن يبارح السفود.

السيوفي الأب، دفعته مهنة التهريب والتعاطي مع المخابئ والكهوف لأن يتحدى الوتارة ويقتحمها ليلاً، لكن برفقة فانوس، فلقد اضطرته الأمور في بعض الأحيان، وبعد أن تأتي بيته كبسة من قبل عناصر الجمارك ومكافحة التهريب بسبب وشاية، أن يصعد إلى سطح بيته ويلقي بالمهربات إلى داخل (الوتارة) من خلال الفتحات التي تتيح تسلل الضوء نهاراً، وكان بعد ذهاب الدورية، يضطر للذهاب إلى الوتارة من طرفها الأخر لتفقد المواد المهربة أين وقعت وهل ظلت في وضعية سليمة أم تهشمت بسبب طول المسافة ووعورة المنزلق.

لذلك أصبح دخوله إلى الوتارة ليلاً وخروجه منها أمراً مألوفاً، وقد حاول بسبب المقاطعة الجنسية التي أعلنتها زوجته عليه أن يستثمر الوتارة ليلاً لبعض شؤون القلب المُفرد والمُعذّب، لذلك حاول أن يصطحب إلى الوتارة ليلاً خليلته التي تعمل في (المحل العمومي) ليسهر معها في عزلة الكهوف وجاذبيتها حتى الصباح.

لكن المشكلة كانت كيف يمكنه أن يقنعها بالقدوم معه إلى هذا المكان، لذا حاول أن يضع المدام (اشتعال) في الصورة، وقد وجد لديها روحاً مغامرة متجاوبة.

قالت له: أذهب معك إلى جهنم، المهم أن أخرج من هذا المكان.

* سندخل الوتارة مثل غولين. في المرّة الأولى سيقف شعر رأسك الأجعد مثل أعواد البردي، وستدخل عينك الحولاء في أم رأسك، قالت له موافقة، وإذا تعثرت في الطريق فقد يخطفك الجان وأبحث عنك فلا أراك، قالت له: موافقة، ويمكن طائر الليل الذي يشبه الحوت الصغير الأبيض أن يقف على كتفيك، فتشعرين وكأنك وحدك في الجُبّ ولا من معين، قالت له: موافقة، قال لها:

ـ ما رأيك أن تعملي معي في التهريب، قالت له: ولماذا؟

ـ لأنك أشجع من زعيم المهربين في باب النيرب(١).

* أعدَّ حميد السيوفي العدَّة لهذه الليلة، وقبل أن يذهب لإحضار (مدام اشتعال) من المحل العمومي، أحضر عند الغروب إلى الوتارة بساطاً وتكايتين(٢)، وإبريق ماء، ونرجيله، وقليلاً من الفحم، وضع ذلك كله قرب الجدار الأبيض الأملس الرطب الذي تتقطر على حوافه الرطوبة في شكل حبات من الماء. تختلط بالطبقة الحوارية الهشة فتسيل قرب بعض الشقوق مثل خيوط من الحليب.

هذه الرطوبة التي تجعل الوتارة في ليالي الصيف القائظ أشبه بممرات طويلة مكيفة، وفي الشتاء تصير أماكن دافئة حتى ولو كان

(١) حي من أحياء حلب القديمة يعمل عدد من أهاليه بالتهريب.
(٢) تكاية: وسادة صلبة يستند الجالس إليها عندما يقعد على الأرض ويميل بجسده ليتكئ.

الصقيع خارجها ، تحت إحدى الفتحات المطلة على السماء الصافية وضع عُدّة ليلته، ومضى إلى باب الفَرَجْ، فاشترى زجاجة عَرق، وأوقية من المكسرات، ومضى إلى (مدام اشتعال)، ليصطحبها معه.

المحل العمومي، حي حجري قديم مغلق، له باب واحد يستخدم للدخول والخروج، ويقع في منطقة بحسيتا المتصلة بباب الفَرَجْ من طرف المكتبة الوطنية. وقد كتب على باب المحل العمومي عبارة: (ممنوع دخول المتزوجين) وحميد السيوفي متزوج، ولكنه رغم ذلك يدخل ويخرج لأن الرقابة على الباب آخر الليل تضعف فيتمكن المتزوجون من أخذ راحتهم، لأن قطع الأعناق أهون من قطع الطريق على المتيم والمشتاق.

بعد الساعة العاشرة يسمح للعاملات في المحل بالمغادرة، بعضهن لهن بيت ورجل خارج أسوار هذا الحي الغريب، ويمتلكهن إحساس خجول بأنهن مثل بقية خلق الله بشر ولهنّ الحق في أن ينمن على سرير لهن، وفي ظل رجل يحميهن، رغم أنهن يدركن جميعاً أن هذا الرجل يأخذ ولا يعطي، وله شكل الرجل وليست له صفاته وأفعاله. أما أكثرية العاملات فهن بلا زوج ولا بيت ولا بطيخ، والمحل العمومي مكان للحياة والرزق والذبول.

* مدام اشتعال حضّرت نفسها من أجل هذه الليلة جيداً، فلم تحاول أن تجهد نفسها بالاستجابة لانفعالات الزبائن، بل حاولت أن تنظر الأمر من خلال عينها الحولاء، فنجحت في تحويل مشاعرها واستجابتها إلى جهات مغايرة حتى لا تستنفد طاقتها، وقد بذلت مجهوداً من أجل أن تحقق ذلك، فجسدها من النوع الخائن، وهو سريع الاستجابة لمبادرات الزبائن ويميل إلى المشاركة

والتعاطف، لذلك حاولت أن تمسك جسدها محتفظة بطاقته لليلتها الموعودة، ليلة الغيلان والكهوف العجيبة. لكنها (وهذا أمر تجاوز طاقتها، وطاقة جسدها على الانصياع) استجابت لشاب مرتبك يحمل كتاباً، وعينين زائغتين، فنظرت إلى الشاب بمودّة، إلى تهدُّله وفزعه وطلبت منه أن يقرأ لها في الكتاب.

قعد الشاب عارياً على الكرسي وفتح الكتاب وحاول بصوت جاف أن يقرأ، وجلست بدورها لتستمع وكأنها صَدَّقت ما قالته.

بدأ الشاب بالقراءة، لكنها لم تفهم شيئاً، ما هذا سألت:

ـ هذه رواية.

ـ ما أسمها.

ـ الأرض الطيبة.

ـ لماذا جئت.

ـ لأبحث عن إنسانة طيبة.

ـ أنا إنسانة طيبة، قالت مدام اشتعال للشاب، وقد ضجت عيناها بالدموع، حتى العين الحولاء استجابت للكلام، وأحست به يخصُّها وحدها.

أعادت مدام اشتعال الكلام، كأنها تود أن تصدقه: أنا إنسانة طيبة.

ـ نعم.

ـ هذه أول كلمة أسمعها منذ سنوات، هذه أول كلمة أسمعها منذ ولدت، ثم ركضت إلى الشاب وعانقته وتشممت عنقه

وصدره، وتحسست بقية جسده بروح طيبة لتزيل عنه أسباب خوفه ووحدته، وعندما تم لها ذلك تداخلت فيه وتداخل فيها حتى أحسا معاً بالشهقات ترج الزمان وتحوله إلى زمان طيب.

* عندما دخل حميد السيوفي وفي عبه المكسّرات وزجاجة العرق، وجد باب غرفة مدام اشتعال مغلقاً، فأخذ على خاطره، كيف تغلق الباب وهي على موعد معه، وإغلاق الباب يعني وجود زبون، لذلك جلس في فسحة الانتظار على الكرسي دون أن ينبس بحرف، وقد أحس بأن ليلته قد سرقت منه وأن المدام اشتعال أغلقت الباب وفتحت ساقيها لسواه.

ورغم ذلك تابع الانتظار والتحديق في الهواء والباب دون أن يعرف أن المدام اشتعال تنتظره وهي في غرفتها بلباس السهرة الفاضح، وعندما وصلت الأمور إلى حد لا يطاق نهض وغايته اقتحام الغرفة، كذلك فعلت مدام اشتعال التي أعياها الانتظار، فنهضت إلى الباب بانفعال وفتحته فوجدا نفسيهما وجهاً لوجه. وعندما نظر إليها، عاجلها بالعتاب وهو يتفحص المكان.

ـ كنت وحدكِ؟
ـ كنت أنتظرك.
ـ تغلقين على نفسك في حرّ آب.
ـ لا أريد أحداً أن يراني في هذا الثوب سواك.

ـ أنت إنسانة طيبة، وقبذلها، وأحس بأنه أخطأ في تقدير العلاقة بين ساقي المدام اشتعال والباب، وأحست هي بأنها تسمع كلمة إنسانة طيبة للمرة الثانية في يوم واحد، وانتابتها مشاعر طيبة، مشاعر لم تكن مؤهلة لاحتمالها فتراجعت مندهشة إلى السرير

وألقت بجسدها عليه، وأحست بشيء يقطع بطنها من الفرح والانفعال، انتبه حميد السيوفي إلى الغرفة فوجدها مرتبة، كأنها لم تُمسّ يوماً بتمامه، لذلك عاجلها بالكلام: أنت جاهزة؟

ـ خمس دقائق وأكون جاهزة، وذهبت إلى المرآة لتعيد ترتيب نفسها.

ـ الوتارة معتمة، حتى أنا لا أستطيع أن أرى وجهك.

ـ أنا أريد أن أراه، ألم تقل لي إن (الوتارة) مملوءة بالغيلان والجان والشياطين.

ـ مملوءة على أخرها.

ـ وأنا أريد من الجان والشياطين أن يروني إذا لم تستطع أنت.

ـ ستذهبين معي بهذه الألبسة؟

ـ هل تريدني أن أذهب عارية؟

ـ أبداً، لكن ضعي عليك شيئاً من الثياب المحتشمة، لأن أهل الحارة إذا شاهدوك تسيرين بهذا الثوب، وأنت معي فستعم الأفراح والليالي الملاح وستستقبلنا زوجتي حميدة السيوفي بموشح من الشتائم والولاويل، ولن يظل في دروب الحارة حجر، إلا ويقع على رأسك ورأسي.

ـ تخاف على نفسك أم تخاف عليّ؟

ـ أخاف على الحارة منكِ.

لذلك نظرت المدام اشتعال للسيوفي بحزن، بعد أن أحست بأن

ليلتها قد سرقت منها، ثم ذهبت إلى الخزانة وأضافت إلى جسدها كومة من الألبسة، حتى ظهرت في هيئة فزاعة، كل ما وجدته أمامها وضعته على رأسها وعلى روحها.

ـ لماذا كل هذا؟

ـ حتى ترضى عني حارتك، وشياطينك، قالت مدام اشتعال كلمتها وقد التمعت عيناها بالماء.

ـ أنا لم أقصد إحراجك، وإذا أردتِ نكمل الليلة هنا.

ـ جهنم أحسن من هنا.

حين خرجا معاً من المكان، السيوفي بعينيه الصقريتين، كان مطرقاً برأسه إلى الأرض، ومدام اشتعال بقامتها المشدودة رأسها مشرع إلى السماء، وكأنها تتحدى الجميع وتقول لهم: أنا مرغوبة ومحبوبة ولي رجل يسير معي.

* وبسبب التباين بين حالتها وحالته، وجد السيوفي نفسه وبصورة مفاجئة ينفلت من نفسه ومنها.. ليهرب بعيداً وكأنه يقول للعابرين:

* افهموا يا ناس، ليست لي علاقة بهذه المرأة، وقد أحست مدام اشتعال بذلك وفهمته حتى كادت أن تتداخل بين شقوق الأرض المرصوفة بالحجارة، مثل جنية من دخان.

عند مفترق الطرق، أوقف السيوفي سيارة عابرة واندس فيها وطلب من السائق أن ينطلق، عندما تحركت السيارة، انتبه السيوفي، كان وحده داخل السيارة، لذلك اضطر لتنبيه السائق إلى ضرورة العودة من أجل اصطحاب المرأة الوحيدة الواقفة.

يا للشجاعة النادرة، السيوفي متكوم في مقدمة السيارة قرب السائق، ومدام اشتعال متكومة في الخلف وحدها.

* في مفترق الطُرق بين التلة السوداء وحي المغاير تظهر مقدمة الكهوف والمغاور الحوارية القديمة مباشرة، دون اضطرار لاجتياز الحارة وحجارتها وأقواس بيوتها العالية، ودروبها المملوءة بالنظرات الفاضحة. عند مفترق الطرق ذاك، نزل السيوفي من السيارة وترك الباب مفتوحاً لتنزل منه مدام اشتعال، وكان الهواء ندياً ويغري بالتطاول، لذلك امتدت مدام اشتعال بيدها إلى ذراع السيوفي واحتضنتها وسارت قربه وكأنه لها. لم تكن تعرف ما الذي أغراها بالرجل، شفته الواسعة وشارباه الغليظان اللذان يَخِزانِ وجهها؟ أم عيناه الطريتان الغائمتان بشيء لا تعرفه؟ أم انتظاره الطويل لها وحدها، ورفضه التعاطي مع (مدام) أخرى سواها، وهذا شيء تقدِّره الغانية لذلك تحتمله، وتستجيب له، رغم الصمت والجفاوة، رغم الألبسة اللاهثة، والنقود المشعثة، ورغم الساقين المندهشتين مثل باب مخلع في مواجهة رياح جانحة، ورغم اعتيادها على الرجال وكأنهم لا يشبهون شيئاً محدداً ولا يغرون بشيء، رغم ذلك تعيش معهم وكأنها وحدها، تجترح معهم حركات زائفة لتستعجلهم وتخرجهم من جسدها وتلقي بهم إلى الباب، إلى الباب، أجمل ما فيهم ظهورهم وهي تبتعد عن جسدها، لذلك تحس بنفسها مكتملة أكثر عندما تكون بكامل ثيابها، تحس بأذرعهم عندما تتأبطها وكأنها فيهم وكأنهم فيها، لذلك تفتح عينيها عندما تكون واقفة قربهم، وتغلق كامل عينيها وروحها عندما تكون مستلقية تحت أجسادهم المعتمة.

أما مع هذا الرجل، بمشاعره المشعثة وشعره الواخز، أما معه وأعلى

ذراعه يضغط حلمتها وهي في حالة التأبط العظيم، فهي قادرة ليس على ليلة واحدة في الكهوف، بل على عمر بكامله.

فتحة الكهف عالية واسعة، متآكلة الحواف، مثل فم وحش هائل، انتبهت إليه (مدام اشتعال) وأحسته أكثر اتساعاً من بوابات الأبنية الحكومية الضخمة. عندما عبرا معاً بوابة الكهوف، دهمتهما الظلمة والرطوبة، السيوفي أخذ نفساً عميقاً بعد أن شعر بالأمان، لأنه ما من أحد في العتمة يستطيع أن يراه، ومدام اشتعال ضاق صدرها وما عادت تستطيع التنفس لأنها أحست بأنها ما عادت تستطيع أن ترى شيئاً، لذلك ازدادت تعلقاً بذراعه. وحميد السيوفي الذي أفنى في الكهف عمره وطفولته، ترك ساقيه على راحتهما، لأنهما تبصران المكان وتعرفانه أكثر منه، خلال ذلك هبت عليهما أنسام رطبة منعشة، تكاد تكون بيضاء من شدة عذوبتها، رغم الظلمة الهائلة التي تدهم المكان، وعندما أوغلا فيه كانت النسمات البيضاء العذبة تزداد تدفقاً، لكأنَّ في أعماق الوتارة، مولدات ضخمة متخصصة بإنتاج هذا الهواء النديّ، بكثافة مشبعة.

تابع السيوفي ومدام اشتعال التقدم إلى أعماق الكهوف والمغاور المتطاولة، التي يحاول السيوفي ومدام اشتعال إعادتها إلى طبيعتها، وتحويلها من مكان للعمل الفزع، إلى مكان للحب البدائي والاحتدام.

* القطط والجرذان الضخمة والخفافيش، وطائر الليل الأبيض الغريب، جميع هذه الحيوانات تنهض في ليل الكهوف لتبدد وحشتها، وقد فاجأها جميعها اجتياح السيوفي ومدام اشتعال، لهذا الليل الذي يخصها.

كانت أصوات أقدام الزائرين الغريبين تتبعهما بمصاحبة خربشات

وهمهمات الحيوانات الصغيرة الفزعة، غير أن صوت القط الذي تعثرت به قدما أحدهما والذي أطلق مواء وحشياً، أدخل المدام اشتعال في الاختلاج والولاويل، وعندما أغمي عليها من شدة الفزع، شعر السيوفي بالارتياح، فحملها على كتفه ومضى بها إلى صدر الوتارة، حيث أعد العدة لقضاء ليلته الهائلة.

إغماء المدام اشتعال وفي هذا المكان حوّل جسدها الفزع إلى شجرة متيبسة، فحمله السيوفي الأب إلى صدر الكهف، وفي المكان المحدد أنزل السيوفي شجرته المتيبسة وأسندها إلى الجدار الرطب، عسى أن تفلح الرطوبة التي تنزّ من الجدار في إعادة الخضرة إلى المدام اشتعال، وبعد أن أسندها وأعاد ترتيب أنفاسه حتى لا يقع من الإعياء، انحنى على أدواته، وبدأ يفردها، مد البساط، وأشعل الفانوس، وركز الوسادة الضخمة، وانصرف إلى المدام اشتعال، فحملها ومددها على البساط وملأ فمه بقليل من الماء الذي وضعه في زجاجة النرجيله ونفثه في وجهها، فلم تستجب شجرة جسدها، فأزال عنه بعض الألبسة وبدأ يدلّكه بأصابعه مجتاحاً الصدر المنتصب من الفزع ومواطن الفتنة في روحها وخباياها، وظل على ذلك حتى بدأت الخضرة تعود للجسد المسجّى وبدأت بوادر الحياة تتلامع فيه، وعادت الأنفاس لإيقاعاتها، ثم تحرك الذراعان مثل غصنين مباركين، والتفّا على عنق السيوفي واحتضناه، وقد انتبهت مدام اشتعال وهي تدفن رأس السيوفي في صدرها إلى ظلال جسديهما المتراقصين وقد ارتسما على سقف الكهف بعد أن امتصا الضوء المنبعث من الفانوس القريب.

عندما نهض السيوفي برأسه وجسده، وحكى لرفيقته ما جرى وصار، ضحكت مدام اشتعال بقوة، حتى تمكنت من طرد بقايا صفرة الخوف التي استوطنت جسدها، وانتبهت بإصبعها إلى

شعرها فوجدته يعيش فزعه الخاص، فنهضت وقربت رأسها من الفانوس لترى ظلال شعرها وقد ارتسمت على سقف الكهف مثل غابة من الأغصان في سماوات قريبة متطاولة.

خلال ذلك، كان السيوفي منصرفاً لتجهيز النرجيله، ومدام اشتعال قاعدة بعريها البليغ تتأمل المكان، وعلى وجهها الذي تراه ترتسم دهشة، فالمكان رغم الوحشة والفراغ غريب وجميل ويغري بالانتباه.

عندما أخرج السيوفي زجاجة (العرق) وكيس الموالح والمكسرات انتبه إلى أنه لم يحضر الكؤوس.

ـ هل أحضرت طعاماً؟

ـ لم أحضر سوى المكسرات.

ـ خسارة، بدأت أشعر بالجوع.

ـ أستطيع أن أذهب وأحضر الطعام.

ـ وتتركني وحدي؟ إياك.

ـ أعجبكِ المكان رغم العتمة والغيلان؟

ـ لم أكن أتوقعه هكذا.. أعجبني كثيراً، رغم الجوع.

ـ خذي المكسرات وكليها كلها.

ـ الأفضل أن نأكل بعضنا كما تفعل الغيلان.

* أهالي الحارة، عاشوا ليلتهم وهم يتقلبون على الفراش، وقد غادرهم النوم وأضنت جنوبهم الأحلام.

كانت تأوهات مدام اشتعال وصرخاتها ترتطم في طول الوتارة

وعرضها، ثم تخرج من الفتحة في نهاية الكهف على شكل دويّ لا يلبث أن ينتشر في ليل الحارة وبيوتها ليدخل الناس في حالة من الغرابة والانتباه، وقد وقر في ظنهم أن شياطين الوتارة تعيش ليلة حمراء، وأن صرخاتها تشعل ليل الناس بالأخيلة والتحولات.

نساء الحارة ورجالها داخلهم الشك في مصدر هذه الصرخات، فأخذوا وضعية الانتباه والمراقبة، وقد قامت جماعة منهم بالسهر على فتحة الكهف حتى الصباح حتى تمكنوا من معرفة الأسباب.

زوجة السيوفي التي كان جدار بيتها يجاور إحدى الفتحات كانت تستمع إلى الصرخات وهي تجتاح ليل وحدتها، فتتلوى على نفسها ودموعها وتفاصيلها مثل شيء جريح، غير أنها وفي لحظة الإنصات العميق للشهقات المشبعة بالنداوة، أحست بأن شيئاً أليفاً يخالط هذه الصرخات، شيئاً تعرفه، يشبه أنفاس زوجها اللئيم ولهاثه، عند ذلك دخلت في الارتجاف والغضب بعد أن قطبت جبهتها فانطلقت الزرقة من عينيها مثل سهام جارحة، وقررت أن تقوم بدورها كاملاً كما تفعل الزوجات الملتاعات.

- في ليل الحارة، وقد غمرت الجميع حالة الانتباه لصوت الشهقات الندية التي كانت تطلقها مدام اشتعال في صدر الوتارة، تقدم أربعة من الدرك جاؤوا خصيصاً من مخفر النقطة عند جسر الحج، (ترافقهم جماعة من أهل الحارة) تقدموا جميعاً إلى فتحة الوتارة بصمت، وبعد فترة من الانتباه إلى الأصوات الأوبرالية الشاهقة، انقسم الحشد، قسم بقي عند الفتحة، وقسم آخر قام بعملية التفاف من الطرف الآخر ليصلوا إلى قلب الوتارة للمداهمة ومعهم الفوانيس والبطاريات، وعند باب الكهف توقف الجميع، وتقدم الدَرَكيان إلى الأمام وأيديهما على بواريدهما، وبطارياتهما

تكشفان لهم الطريق، تقدموا في وضعية الانقضاض وأطلقوا الصراخ.. قف.. لا تتحرك. والسيوفي مضطر للحركة حتى ينجز المهمة، لكن للحكومة مقتضياتها.

عندما دهمت الحزم الضوئية الوضعية الفاضحة، ارتد كل إلى جسده، وبعد أن استكمل كل منهما وكيفما اتفق ارتداء الألبسة الممكنة، تقدم الدركيان إلى المتهمين.

ـ لا تؤاخذونا، قطعنا عليكم السهرة، (قال أحد رجال الدرك ساخراً).

ـ خيراً يا حضرة الدركي، هل حصل شيء.

ـ أبداً، الحارة قائمة قاعدة وأنتم ما شاء الله في آخر انسجام.

ـ وهل حصل مكروه، لا سمح الله؟

ـ في المخفر ستعرفون كل شيء، تفضلوا معنا.

ـ المخفر ضروري يا حضرة الدركي، سأل السيوفي.

ـ ضروري مثل الماء والهواء وإذا لم تقتنع نستطيع أن نثبت لك.

ـ طيب، قال السيوفي، سأقول كلمتين لزوجتي قبل أن أذهب.

ـ بعدين، بعدين، لا يوجد عندنا وقت.

ـ لا يحتاج الأمر إلى وقت، كلمتان أقولهما لها من تحت الفتحة وستسمعني سريعاً.

ـ طيب، قل لها ما تريد.

ـ تقدم السيوفي إلى الفتحة وصاح بصوت جهوري، رجَّ الحارة رجّاً، يا حميدة، يا حميدة، أنت تسمعينني؟

ـ ردت حميدة ورأسها فوق الجدار، من زمان وأنا أسمعك يا نور عيوني.

ـ يا حميدة، أنت طالق، طالق، طالق بالثلاثة.

وعندما عاد السيوفي اقترب من مدام اشتعال وهمس لها: لا تؤاخذيني أنا السبب في هذه الورطة.

ـ لا تخف، أنا أدبر نفسي، انتبه لحالك.

بعد ذهاب حميد السيوفي ومدام اشتغال إلى الحجز، عادت الحارة إلى لياليها السالفة، وغطى صوت الشخير والتعب أرواح الناس، وما عاد أحد منهم يحتمل جلده وتردد أنفاسه.

وبعد أيام من الحجز اقتيد السيوفي إلى المحكمة، وخلال الجلسة، حكم القاضي بإخلاء السبيل بسبب نقص الأدلة، ويجب أن يتقدم بالشهادة أربعة شهود، وعلى ذلك فإن شهادة الدركيين غير كافية.

* في ليل الحارة، ذهب السيوفي إلى بيته متسللاً، فتح الباب ودخل إلى زوجته التي طلقها ثلاثاً على رؤوس الناس والأشهاد وعلى سمع الحارة وبصرها، اجتاز أرض الدار، ووصل إلى البيت، كانت زوجته مستلقية وحدها، عندما تخطى بجسده عتبة الباب ومنع ضوء القمر من التسلل إلى الغرفة، انتبهت الزرقة في عيني زوجته إليه فانتفضت بجسدها ونهضت.

ـ لماذا جئت؟

ـ بعد قليل سأقول لك.

ـ أنت لم تعد زوجي بعد أن طلقتني أمام رجال الدرك والناس.

ـ أعرف ذلك.

ـ أخرج وإلا ملأت الحارة بالولاويل.

ـ أخرسي وإلا جعلت هذه الليلة آخر ليلة في حياتك.

ـ أنا لا أخاف منك.

قبل أن تكمل حميدة الهلالي كلامها الغاضب مع زوجها، قبضت كفه على عنقها وترست رأسها وجسدها بالجدار.

ـ ماذا تفعل؟

عندما امتد بيده الأخرى إلى ثوبها أدركت حميدة الهلالي مقاصده، فشعرت بالاطمئنان، فلقد أحست أول الأمر بأنه جاء ليقتلها بعد أن أحس بأنها هي من أوغر صدور بعض رجال الحارة ودفعهم لتقديم شكاية إلى المخفر باسم الحارة وشرفها وسمعتها المهدورة، رغم ذلك قررت أن لا تستسلم بسهولة، فلقد انتابتها مشاعر كثيفة غامضة، فزوجها السابق يقترف معها فعلاً حراماً، وقد جاء إليها مهدداً، ولكنها بوحدتها وضجرها مشتاقة إليه، فأصوات الشهقات التي كانت تسمعها ما زالت تستوطن رأسها ومخيلتها، والجوع فعل حرام وهو يحتاج إليها وينهك روحها، لذلك صرخت:

ـ أتركني لا أريد.

جذبها السيوفي من صدر ثوبها الممزق ودفع بجسدها ثانية فتسمرت مندهشة.

ـ أنت لم تعد زوجي ولا يحق لك.

عندما أحست بأنها غير قادرة على تركه حتى ولو أراد، قالت له: اتركني، وتعال لنكمل على الفراش، وحين استلقت إليه واستلقى إليها تابع فعل رج جسدها بقوة إلى درجة أن رأسها كان يرتطم بأسفل الجدار ارتطامات مؤلمة، وما عادت تحس رغم صلابتها إلا وأصوات الشهقات والصرخات قد اجتاحتها، دون أن تعرف هل هي أصداء وذكريات لأصوات الشهقات والصرخات التي كانت تسمعها من فتحة المغاور القريبة، أم هي أصوات شهقاتها وصرخاتها هي، هي وحدها وليس أي شيء عداها.

تكررت محاولات السيوفي في اقتحامه لجسد زوجته التي طلقها على رؤوس الأشهاد، وتكرر إحساسها بالذنب والرغبة الشديدة في المعاودة، وكانت تحس بأنها تستجيب للعنف والاغتصاب أكثر، وتحس بأنوثتها وفحولة زوجها أكثر، أحست ذلك رغم مخاوفها من اقتحامه الليلي لها ورجه الدائم لجسدها، هذا الرج العنيف الذي أحسته سيطيح بفروة رأسها والجدار.

بعد أن شعرت حميدة الهلالي ببوادر التقلبات التي أصابت نفسها وبنظرات الجيران وقد تغيرت نحوها، وبخاصة بعد أن نظرت إليها جارتها أم جنيد نظرات ذات معنى وهي تقول لها: الواحدة منا في هذه الحارة لا تستطيع أن تأخذ راحتها وألسنة الناس طويلة، وأنا أخاف أن يقع الجدار على رأس أحد.

حميدة الهلالي فهمت إشارة جارتها أم جنيد، فرفعت يدها دون وعي، وبدأت تتحسس رأسها.

ـ بعد الذي حصل وطنت حميدة الهلالي نفسها على أن تطلب

من السيوفي أن يعود عن قراره ويعقد عليها ثانية، وخصوصاً عندما شعرت بأن العادة قد فاتتها.

عندما دخل عليها السيوفي ليلاً، وفي نيته أن يفعل ما اعتاده كل ليلة، تصدت له حميدة الهلالي بضراوة، ومنعته من تحقيق رغبته، وعندما تساءل عن السبب، حكت له كل شيء وتابعت منفعلة:

ـ إذا لم تحضر الشيخ غداً، فلن تلمس ظفري، إلا إذا كنت تريد أن يكون الولد الذي في بطني ابن حرام، ثم قعدت في زاوية البيت وتكومت على نفسها وجنينها وهي تشهق من شدة الانفعال.

شعر السيوفي بوضع حميدة الهلالي الحرج، وشعر بأن الحق من طرفها، لذلك اقترب منها ومسح وجهها، ورفع خصلات شعرها الرطب وقال لها:

ـ دعينا هذه الليلة وغداً سأحضر الشيخ ليعقد.

انتفضت حميدة الهلالي مثل فتاة مُغَررٍ بها.....، وقالت:

لا والله، لن أدعك تلمس جسدي إلا بالحلال، فازداد السيوفي تقديراً لموقفها، لذلك لم يحاول الإلحاح.

في اليوم الثاني أحضر السيوفي الشيخ ليعقد، وقد قال له السيوفي:

ـ حلفت عليها في حالة غضب يا أستاذ.

ـ وكم يميناً حلفت.

ـ حلفت ثلاثة أيمان بالتمام والكمال، وعلى رؤوس الأشهاد

وبحضور الدرك ومدام اشتعال.

ـ وعندما حلفت هل كانت زوجتك حاملاً؟

ـ وما يدريني؟ اسألها.

ـ لا حياء في الدين يا أختي، هل كنت حاملاً عندما طلقك زوجك؟

ـ نعم يا شيخي، ولو لم أكن حاملاً لما طلبت منه أن يعقد عليّ.

فكر الشيخ وقال بعد أن غرس إصبعه في جذور لحيته: بسبب الغضب والحمل يمكن تدبر المسألة، فالشرع وضع في حسبانه بعض الظروف المخففة والدين يُسر.

بعد أن عقد السيوفي على زوجته، ذهبت حميدة الهلالي وطول ابتسامتها شبر إلى جارتها أم جنيد، وأخبرتها الخبر، وطلبت منها نشره ومشاركتها الفرحة فيه، ثم أوضحت لها الالتباس الذي أساء الناس فهمه.

ـ بعد أن خرج زوجي من السجن، جاء إليّ عدة مرات في الليل وطلب مني ما يطلبه الزوج من زوجته، ولكنني رفضت، ومنعته، وقلت له: والله أقتل نفسي ولا أعطيك ما تريد، وبدأت أضرب رأسي بالحائط.

ـ كنت أسمع الضرب أسفل الحائط.

ـ نعم، انظري إلى رأسي. أصبحت أرضه زرقاء من شدة الضرب.

أدخلت أم جنيد (الجارة) إصبعها في رأس حميدة الهلالي وبدأت

تزيح الخصلات خصلة خصلة وهي تضرب رأسها من شدة التأثر وتقول، ولي على قلبي، أرض راسك زرقاء مثل الدهان الذي دهنا به الشبابيك أيام الحرب، بيني وبينك لو لم يعقد عليك بسرعة كان الحائط بين دارنا وداركم سيقع على رأسي ورأس أولادي.

ـ المهم أن لا يلمسني إلا بالحلال، وحياة راسك يا أم جنيد لم أتركه يلمس ظفر قدمي، وكشفت عن قدمها مؤكدة، انظري أظافري ما زالت على حالها.

عندما دخلت حميدة الهلالي بيتها، أغلقت الباب وتعرت، بعد أن ملأت طنجرة من مياه الجب الباردة، وبدأت تسكب الماء على جسدها، وتلامس بطنها وهي تغني: (نام يا ابني نام) وكانت الدموع تندمج مع خطوط الماء التي تتجدول من شعرها لتصل إلى بطنها وتشاركها الحفاوة بالوليد القادم، بعد عقده على زوجته حميدة الهلالي، انتقل السيوفي بعلاقته مع امرأته من السر إلى العلن، وصار يدخل ويخرج في النهارات مثل بقية الأزواج، غير أن محنته الكبرى كانت في الليالي، فبعد العقد عليها تحولت حميدة الهلالي إلى لبؤة، وصارت تجاهد لتمنع زوجها من لمس ظفرها كما صرّحت لأم جنيد جارتها، وقد أدهش تصرّف الزوجة زوجها السيوفي، فبعد ليال طويلة من ادعاء التعب، والألم، والتظاهر بالمرض، اكتشف السيوفي أن زوجته تتقصد أن تمنعه عن جسدها، لذلك صرخ في وجهها غاضباً: تعطيني نفسك بالحرام، وتتمنعين بالحلال، من أي طينة أنت؟ ثم لوّح بظاهر كفه الغليظة في الهواء ولطمها على وجهها، فتسربت الزرقة من فروة رأسها إلى عينيها وخديها، وكادت أن تصل إلى سُرّتها.

لم يكن السيوفي يفهم أن زوجته لا تريده بسبب ابنها الذي في

بطنها، فهي تخاف على جنينها من الضغط العنيف المتناوب الذي يمتحن السيوفي به جسد زوجته، كما أن خشية من نوع آخر انتابتها، وهي أن يزداد ضغط الزوج فتتحقق مخاوف جارتها أم جنيد ويقع الجدار، على رأسها، كانت تخاف على الجنين ولم تكن تحس وتعرف أن مطارحة الزوج الدائمة لزوجته بعد الحمل تدخل الجنين في الألفة وتدفعه للأحساس بأن صياغته تتم بفعل مشترك من قبل الأب والأم معاً وليس بفعل من طرف واحد كما تريد حميدة الهلالي لجنينها الذي أحست بأنه ولدها وحدها، من زرقة رأسها وحتى تشتت ركبتيها، وأن صياغته وصياغة أُلفته شأن من شؤون أمومتها وحدها.

ـ مثل جزيرتين معزولتين في مياه واحدة، كان السيوفي يستدير بظهره إلى زوجته، وكانت تستدير بظهرها إليه، وشعور عارم بالمرارة، والعنف يطيح رأسيهما.

* وفي ظلال القطيعة تلك عاشت حميدة الهلالي، خوف جارف يطيحها من أن يرتكب زوجها السيوفي فعلاً عنيفاً يجهض وليدها ويدخلها حتى أظافرها في التورم والزرقة، لذلك ذهبت بمخاوفها إلى جارتها أم جنيد وصارحتها بالحالة، وبأنها لم تعد تطيق زوجها وأنها لا تستطيع التفكير إلا في حَمْلها، وطلبت منها النصيحة، والبحث لها عن طريقة للخلاص.

ـ عندما يخرج قالت أم جنيد، اتركي الباب مفتوحاً وراءه واذهبي إلى المكنسة وكنّسي خلفه، كنّسي كثيراً حتى تقوم الأرض وتتبعه، واجعلي طريق الغبار في جهته بعد خطوتين من الباب المفتوح.

بعد مدة ستتبعه المكنسة حتى آخر الأرض ولن يعود له أثر.

ـ ويعيش ابني دون أب.

ـ كوني له الأب والأم.

ـ وهل تحتمل المرأة حياة الحارة دون رجال؟

ـ أنتِ اخترتِ فاحتملي أيامك الباقية.

* خلال انهماك حميدة الهلالي بالتكنيس خلف زوجها، مطوّحة بذراعيها ومكنستها إلى جذور الغبار مستثيرة إياه ليركض نحو زوجها إلى الباب والشارع حتى تظل وحدها وجنينها، لتنفرد بأمومته وأبوته حتى آخر الأرض.

خلال ذلك تحققت نبوءة أم جنيد وقبضت الحكومة على حميد السيوفي ووضعته في السجن.

* حميد السيوفي (الأب) الذي يتعاطى التهريب، وخصوصاً تهريب (التتن) الذي تحتكره الدولة، انتابته الرغبة في أن يطوّر وينوّع في استثماراته، فحاول بالحشيش، عن طريق تسريب كميات ضئيلة إلى شغيلة الحبال في البلغة، وقد تصدى لهذا العمل المربح والخطير في ظروف غير مواتية، فتمت مداهمة بيته بطريقة محسوبة ومخطط لها وبإشراف خبير مصري متخصص بمكافحة المخدرات والكشف عنها، وقد اعتبرت مساهمات الخبير مقدمة مشجعة للبدء بمباحثات الوحدة بين القطرين السوري والمصري، لذلك تمت مداهمة بيت السيوفي وتفتيشه، وقد وجدت الدورية كمية قليلة من المادة الممنوعة، ولكنها كافية لإيداعه السجن عشر سنوات بالتمام والكمال.

غير أن السيوفي استطاع بنجاح أن يقفز إلى سطح بيته، ومن

السطح ألقى بنفسه إلى فتحة الوتارة، مثل كيس من المواد المهربة، فتدحرج إلى القاع، ووصل بجسده إلى المكان الأثير الذي كان يلتقي فيه بالمدام اشتعال، غير أنه هذه المرة وصل وصولاً دامياً، وبقي على حاله متكوماً حتى وصلت دورية الدرك... وحُمِلَ إلى الحجز.

* حميدة الهلالي، وبعد اعتقال زوجها وسجنه بشهور، أحست بفداحة غيابه، وفداحة وحدتها، وعندما تستبد بها الذكريات كانت تجلس إلى بطنها لتلامسه وتتحدث إليه. صحيح أنها لم تكن تحتمل حضور زوجها بعد أن تشاغلت ببطنها ومولودها، ولكنها غير قادرة أبداً على احتمال غيابه، لذلك ذهبت إلى جارتها أم جنيد لتبحث لها عن حل يعيد لها زوجها، وقد بحثت أم جنيد عن حل يرضي جارتها، وطلبت منها أن تكنس الغبار في الاتجاه المعاكس، أن تبدأ من رأس الحارة، من الطريق الذي عبره آخر مرة لتكنس باتجاه بيتها بعد أن تفتح الباب على مصراعيه، مكومة حشود الغبار الذي يحتفظ بذكريات قدمي زوجها السيوفي أمام مكنستها دافعة بظلاله ورائحته إلى بابها المفتوح حتى تصل بالغبار إلى فراشها ومواطن الزرقة الأخيلة من فروة رأسها وذكرياتها.

* كثيراً ما شاهد أهل الحارة حميدة الهلالي وهي تكنس في الاتجاه المعاكس وتدمدم بالكلام الذي لا يفهمه أحد غيرها، بالكلام الذي تدعو فيه زوجها للعودة، ليكون أباً لولده، فالولد يحتاج إلى الأب أكثر مما تحتاج المرأة إلى السيادة واللعنات.

وقد تابعت حميدة الهلالي المهمة، كشكل من أشكال العزاء، أو الاعتذار لرجل أحست بعد وحدتها بضرورته، وكثيراً ما كانت (بعد أن تتم الكنس ويغطي الغبار الفراش) تضرب رأسها بالجدار،

حتى تستعيد ذكريات رَجِّه لجسدها في ليالي السفاح الغالية، وقد اجتاحتها صرخات غامضة قادمة من كهفِ أنوثتها المهجور إلا من رفسات قدمي السيوفي الابن الذي أعياه أن يظل في رحم أمه وحيداً دون أب.

* إبّان المخاض والولادة، شعرت حميدة الهلالي بشيء يرجها أيضاً، بأفدح ما يكون الرج، لذلك عضّت شفتها السفلى، مرغمة جسدها وروحها على كتم الصرخات، حتى تستأثر بالتفاصيل، وتعيش ذكريات زوجها وجسده ولهاثه، وتعيش دخوله وخروجه منها كحالة من التذكر اللذيذ المفزع، فالولد هو الشيء الوحيد الذي سيخرج منها بعد أن خرج أبوه الغالي، والولد هو الشيء الوحيد الذي سيلامس أنوثتها وأمومتها الظامئتين، لذلك ضنت أن يشاركها أحد لحظتها وفرصتها، حتى ولو كانت القابلة. أرادت أن تنفرد بلذة خروج ولدها وهي وحدها، وحين دهمها الطلق بدأت تصرخ، ليس بأصوات المخاض الفزعة، بل بدأت تشهق في حالة من التلذذ الذي لا ترقى إليه رعشات الوصول.

كانت تضغط نفسها وأطرافها كأنما جدار يدهم رأسها ليكوّمها قريباً من ساقيها لتتعرف عن قرب إلى مواطن رعشاتها وذكرياتها.

عندما خرج السيوفي الابن، وتدفقت خلفه المشيمة والدم، انتبهت حميدة الهلالي بعد صرختها الأخيرة إلى أنها لا تزال وحدها بساقين منفرجتين، وطفل يغالب زرقته واختناقاته ليدخل في البكاء، لذلك نهضت من حالتها فزعة يتبعها خيط من الدم، إلى الباب، إلى الحارة وبيت جارتها أم جنيد، وحين وصلت إلى الباب قرعته بقوة وخوف، وتذكرت ولدها، ودون أن تنتظر الرد من الباب. عادت ثانية لترسم خطاً آخر من الدم، يوازي الأول ويقاطعه،

يلامسه ويتعامد فيه، كانت مسرعة مسرعة، لذلك اختلط خيط الدم باللهاث، متحوّلاً إلى خطوط قصيرة، ثم إلى قطرات متقاربة، ثم تباعدت المسافة بين القطرات حتى وصلت حميدة الهلالي إلى ولدها، فحملته من قدميه إلى أعلى، وضربته على ظهره، ثم بدأت تنفخ في فمه من روحها، حتى دهمها بالبكاء طفلاً سوياً.

عندما خرجت أم جنيد على صوت الضربات ولم تلمح سوى خيط الدم، تبعت الأثر حتى وصلت إلى الطفل فوجدته يبكي وقربه الدم والمشيمة، ووجدت أمه مستلقية قربه في غيبوبة زرقاء، وأنفاسها تتقاطع وتتحشرج مثل خيط متقطع من الدم لذا تركت أم جنيد الطفل، وانصرفت للأم، تنفخ فيها وتصفعها وتغلق ساقيها حتى توقف تدفق الأمومة والدم والحنين.

* عندما صحت حميدة الهلالي ونهضت بلونها المخطوف إلى ولدها وسمعت بكاءه، بدأت تضحك وتضحك بملء ساقيها وفمها وذراعيها، وبدأت تتدفق بالضحك، تتدفقُ مضاهية تدفق الدم الدافئ الغزير الذي أزال بكارة روحها وأخرج لها ولداً تحبه دون أن تتعرف ملامحه.

بعد أيام من الولادة وعندما انتبهت أم جنيد إلى الولد قالت: ولد حلو، وكله صحة، لكن شفته عريضة، يبدو أنك قد عصصت على رأسه عند الولادة.

ـ تَذَكرتُ أباه، لم أكن أريده أن يخرج، كنت أريد أن يبقى داخلي، وربتت بكفها على اللفافة التي قمّطته بها وهزته، الولد حلو داخل البطن وخارجه.

بعد أيام من ولادة ابنها عبد العزيز السيوفي، نظرت حميدة الهلالي إلى بيتها وأحوالها فانتابها الخوف، النقود التي تركها زوجها نفدت جميعاً، وهي وحدها، وولدها وليس من معيل، لذلك قررت أن تعمل بالمكانس.

ذهبت إلى بيت (القشاش) في رأس الحارة، وعرضت عليهم أن تخيط لهم المكانس، وبعد الاتفاق على أجرة خياطة المكنسة، استلمت قالباً وخيوطاً، وذهبت إلى بيت جارتها أم جنيد فاقترضت منها علبة مملوءة بالحصى لتضع في جانبي كل مكنسة حصاتين وتغلفهما بالبردي، ثم تفرد قش المكنسة وتضعه بالقالب وتبسطها وتخيط صدرها.

بعد يوم من العمل والشد انغرست الخيوط في لحم كفيها حتى نفرت الدماء منهما. سنوات من العمل وهي تضع القالب على قفص صدرها عند فسحة نهديها المنهكين بذكريات الرجل والحليب، وبعد ذلك تبدأ لجم صدر المكنسة بخيطين من الخيوط الملونة، يشبهان خطي الدم آونة الولادة ثم تشدهما حتى يستقرا على النهدين الظامئين مثل حزام لعين.

في فترات الكساد وعند اقتراب موسم الحج تنتقل حميدة الهلالي مثلها مثل باقي نساء الحارة من العمل في المكانس للعمل في الشالات والطراحات المطرزة التي يحملها التجار الحلبيون إلى الأراضي المقدسة حتى يضعها الحجاج على رؤوسهم لتقيهم حرارة الشمس اللاهبة.

بعد موسم الحج القصير تعود حميدة الهلالي ثانية إلى المكانس، مكنسة وراء مكنسة، ويوماً وراء يوم، أنفقت فتوّتها وعيناها

مسمرتان على وحدتها وولدها ومكانسها، هذه المكانس التي كثيراً ما كنست بها الطريق من بيتها إلى ظهر زوجها ليبتعد، وكثيراً ما فعلت عكس ذلك ليعود، كثيراً فعلت ذلك حتى شعرت بالمكانس تدهمها، تحاول إزالتها ذرة ذرة وخلية خلية كما تفعل مع تراب عنيد، في ليل الليل وبعد أيام وشهور طويلة من غياب زوجها حميد السيوفي في غياهب السجن، شعرت بالأحلام تدهم وحدتها، وليلتها.

كثير من الناس في طول البلاد وعرضها، كثير من الدروب في طول البلاد وعرضها اكتظت بالتظاهرات الغاضبة، في الشوارع والأزقة والحواري، تطالب بالوحدة.

وحميدة الهلالي غارقة في الوحدة، من مفرق شعرها حتى مفرق أنوثتها، لذلك تنهض من ليل ليلها فزعة إلى المكانس والقوالب والخيوط والمسلاّت مطوّحة بها إلى فضاء الأرض، راكضة إلى ولدها لتعانقه ولتكنس عن روحها مشاعر الموت التي ترجُّ الباب.

مستعيدة على وجهه وصدره، ذكريات الشهقات كأصداء بعيدة من صوتها وصوت مدام اشتعال المدوي، راكضة إلى أعلى رأسها لتتذكر موقع الزرقة فيه، هذا الرأس الذي كاد زوجها من أيام بعيدة أن يغرسه أسفل الجدار.

* بعد تفكير وانتظار طويلين، قررت حميدة الهلالي أن تترك المكانس والطراحات وتفتح في بيتها كُتّاباً لتعليم الصغار، فهي وحدها من دون نساء الحارة، تعرف القراءة والكتابة، وقد ختمت المصحف وحفظته وجوّدته على يد والدها الشيخ أحمد القصاب الهلالي، الذي كان يعمل مؤذناً في جامع الهلالية. قررت ذلك،

ونهضت من صباح يومها إلى جارتها أم جنيد وأخبرتها بفحوى القرار، فشجعتها جارتها أم جنيد، وقالت لها: من يدري؟ قد تكونين عند الله مثل رابعة العدوية، ونهضت معها وذهبتا إلى بيوت الحارة، لتخبرا الأهالي بعمل حميدة الهلالي الجديد وبأنها مستعدة لقبول الأولاد من البنين والبنات بأجر أسبوعي ضئيل. وأكدت للأهالي الكرام أن هذا الأجر يتضمن تعليم الأولاد القراءة والكتابة والخط، وكتابة الأرقام، دون عمليات الحساب المختلفة كالجمع والطرح والتقسيم، ولم تذكر الضرب حتى لا يسيء الأهالي فهمها وتنتبه الحكومة إلى أفعالها، فالضرب شأن حكومي ولا يحق لأحد سوى الحكومة ممارسته.

* بعد يوم أو يومين من الانتظار، تجمعت كومة من الأولاد البنين والبنات في باحة دارها تحت شجرة التوت الأبيض التي تضرب بجذورها حتى أعماق الوتارة الندية، وقد عبّر أهل الحارة بذلك عن حفاوة بدعوة حميدة الهلالي لأولادهم لتعليمهم، فالحارة لم يكن يوجد فيها غير (كُتّاب) واحد يشرف عليه الشيخ عبد المولى الذي يتقاضى أسبوعية مضاعفة تقدر بـــ(عشر فرنكات) بالتمام والكمال، دون أن يتخرج من كُتّابه. ولد واحد يكحل عين والديه بكتابة كلمة واحدة، أو قراءة سطر في ورقة، كلهم يخرجون من كتابه وقد حفظوا بصماً ودرجاً وكرجاً، دون أن يفهموا شيئاً، وحميدة الهلالي وعدت بتعليم الأولاد بنصف المبلغ، لذلك دخلت مع الشيخ في منافسة حامية، كاد معها الشيخ أن يتهمها في إحدى صلوات الجمعة برقة الدين، والخروج على نهج الصالحين.

* بعد سنوات، نجحت حميدة الهلالي ومكانسها المرتدة من رأس الحارة إلى غرفة النوم في استعادة حميد السيوفي، بعد ست سنوات

من اعتقاله مات حميد السيوفي الزوج السابق لحميدة الهلالي في السجن دون أن يمكن الحكومة من إتمام أحكامها وسجنه عشر سنوات. كل ظروف العفو المخففة التي كانت تستصدرها السلطات وقادة الانقلابات والثورات لم يستفد منها السيوفي بسبب سجله الحافل بالمخالفات.

– في صباح من صباحات العام السادس على اعتقال زوجها حميد السيوفي كان المطر يتساقط رذاذاً، وحميدة الهلالي تحب المطر، ولا تطيق ألبستها، لذلك أدخلت تلاميذها إلى البيت وأغلقت عليهم، وتعرت تحت الرذاذ، وبدأت تفرك جسدها بالغيوم، ثم رفعت كفيها إلى السماء وصاحت: يا الله أرسل رجلاً، شيئاً له ذراعان، أرسل عجوزاً، شيئاً سميناً، شيئاً نحيلاً لأقتات، أنت تعرف الجوع والجائعين، أرسل أي شيء يا إله العالمين، ثم مسحت عن ذكرياتها سيول الدم والحنين.

– في صباحها ذاك. تقبل الله دعواتها، وأرسل لها الرجل الذي تنتظره، وكان الرجل محمولاً على الأكتاف.

عام كامل بطوله انتظرت أن يطرق بابها أحد، كل طرقة كل صرير، كانت تهرع إليه لتلاقي شيئها الذي تتمناه دون شروط حتى صدئت روحها ومفاصل الباب، تلاميذها تحملوا وحدهم ثورات غضبها ويأسها، برؤوسهم وظهورهم، وبطون أيديهم وأقدامهم، العصا في يدها مثل الألف، تنهال بها على قطيعها المذعور ضرباً لا يهون وتظل تضرب حتى تسيل على خديها ألفٌ من دموع.

القراءة والحَمَامْ

(في طفولته تعلّم أن يخاف أمه، وفي مراهقته تعود أن يخاف الله، وفي شبابه صار يخاف الحكومة، وعندما صار كائناً حكومياً، بدأ يحس بالخوف من نفسه، ثم تتالت عليه المخاوف فصار يخاف الناس).

* ومثل زعيم صغير نشأ السيوفي الابن بين قطيع التلاميذ الذي تعلّمه الأم أصول القراءة والرعب، في غيابها يقبض السيوفي الابن على سلطاتها ليفزع المنصاعين والمتمردين، في حضورها يتكوم مثل شيء حائر وضئيل، ويبدأ بإطلاق نظراته الجائرة على عيون الأولاد الفزعين.

* كانت حميدة الهلالي، بعد أن ينصرف الأولاد، تضع صغيرها في طشت ماء وتعري جسده، من الألبسة، قطعة قطعة، وبمشاعر وذكريات متباينة تمسح جسده الصغير بكفيها، ثم تهيل عليه الماء

الحار حتى يرتعش من السخونة، ويتلامع جسده الصغير بالبل والماء، ثم تعيد مسح جسده الزلق بكفيها، وعندما تصل إلى سرته تقول ممازحة:

ـ ضع يدك على حمامتك حتى لا تطير.

السيوفي الصغير يعرف الحَمَام، يعرفه عندما حط على سطوحهم، وقد حاول مرات كثيرة أن يقبض على حمامة زاحفاً متسللاً مثل قط كبير، وكثيراً ما كانت الحمامات الفزعة تخيب آماله وتطير، وها هي أمه تقول له: «حمامتك حلوة»، وهو يخاف على حمامته أن تطير مثلما طارت الحمامات التي تهدل على السطح ثم تغيب.

لذلك كان يخاف الليل، وعند يقظته كان أول شيء يفعله تفقد أعضائه ليطمئن، وكثيراً ما كان يركض إلى أمه متهللاً وهو يقول:

ـ حمامتي، حمامتي.

ـ هل طارت؟ تسأله أمه.

ـ إنها موجودة.

ـ لا أصدق، دعني أتأكد.

* مرة دهمته أمه وهو في غرفة المؤونة بين الأكياس، وبرفقته فتاة بعمره، وكانا يتحدثان رغم طفولتهما عن الحمام، فتحيرت الأم. هل تضحك، أم تغضب؟ ثم ما لبثت أن تظاهرت بالغضب وشدت الفتاة الفزعة من أذنها وصرخت فيها.. وعندما اجتازت الصغيرة الباب، صاحت في ولدها، إياك أن تلعب ثانية مع البنات.

* في المدرسة أظهر السيوفي الابن نباهة وتفوقاً، ففي كُتّاب أمه

حفظ قراءة القرآن، وساهم معها في تعليم الأطفال وضربهم، تفوق على أقرانه وأثار انتباه معلميه المصابين بالنعاس الدائم، فصاروا يعتمدون عليه في الإشراف على الطلاب وتسجيل أسماء الطلاب المعجّزين، وفي الصف انقسم الطلاب إلى جماعتين، جماعة تنصاع له ولرغباته وتقاسمه الطعام والمصاريف، وجماعة تتمرد عليه وتتحرش به أحياناً، وكان نصيب هذه الجماعة المشاغبة تكرار تسجيل أسماء أصحابها في قائمة المعجزين.

في الصفوف المتتابعة تكرر تفوق السيوفي الابن، وتكرر اعتماد المعلمين عليه كعرّيف دائم للصف، حتى حصل الزلزال.

في الصف السادس، جاء معلم من نوع خاص، معلم لا ينعس ولا يتثاءب كثيراً، رغم حمرة عينيه وجحوظهما وكأنه رفع رأسه تواً من غفوة طويلة.

السيوفي يعرف المعلمين، يبدأون العام الدراسي بروح متفهمة، ويتحدثون لتلاميذهم عن ضرورة الانضباط ومحبة بعضهم بعضاً، وأنهم، أي الاساتذة، لا يحبون الضرب ولن يستعملوا العصا مع المقصرين، بل سيكتفون بتركهم لضميرهم حتى يعيدوا النظر في تقصيرهم وينتبهوا إلى مستقبلهم. غير أن جميع المعلمين، وبعد الأسبوع الأول، يسألون التلاميذ إن كان أحد أقربائهم يعمل نجاراً، ويطلبون منهم إحضار العصا معهم في اليوم التالي.

والسيوفي جاهز لمثل هذه المناسبة، وفي حالة انتظار دائم لها، لذلك كان يخرج من محفظته العصا المستوطنة فيها ويقدمها للمعلم بروح متعاونة، بعدها ينتظر الخطوة التالية عندما يسأل المعلم من الذي كان عريفاً على الصف في العام الماضي، عند ذلك تصرخ

جماعة السيوفي بصوت واحد: عبد العزيز السيوفي أستاذ، بعد ذلك يتم تنصيب السيوفي عريفاً في صفه لمدة عام كامل، والسيوفي خبير بشؤون الاساتذة والمعلمين النائمين منهم واليقظين.

غير أن هذا المعلم بعينيه النابقتين وهدوئه المقلق ونظراته العميقة المتأنية خيب آمال السيوفي وأربك برامجه، وأدخله وعصاه النائمة في محفظته في الانتظار المرير.

أنا أعرفكم جميعاً، وأعرف بأي شيء تفكرون، قال المعلم الجديد مخاطباً طلاب الصف السادس في مدرسة اليرموك الابتدائية في حي الكلاسة، وأعرف أفعالكم في البيت، الذي يعمل والذي لا يعمل، والذي يعذب أمه وأهله، والذي لا يعذبهم.

ـ حتى ولو كنا داخل البيوت؟ أكمل علي الدرويش

ـ حتى ولو كنتم داخل البيوت.

ـ هل تعرف بيوتنا؟ سأل السيوفي.

ـ أخذت عناوينكم من الإدارة، وأعرف بيوتكم جميعاً.

وقد أثبت لهم بعد أيام أنه يعرف من خلال مشاهدات الوظائف والخطوط ومستويات الحفظ والفهم، وقد أدهش ذلك التلاميذ. في المرحلة الثانية بدأ المعلم خطته التالية، عندما قال من هو عريف الصف في العام الماضي.

ـ رد أنصار السيوفي بصوت موحّد اسم العريف السابق.

أحس السيوفي بالزهو، ثم امتدت يده تلقائياً إلى العصا، أخرجها من المحفظة وتقدم إلى المعلم بحركة طقوسية وقدمها له.

تناولها المعلم مستغرباً وتأملها، هذه معك منذ مدة.

ـ نعم.

ـ ولكنني لم أطلب من أحد إحضار عصا.

ـ كل الأساتذة يطلبون.

ـ خذ، أعاد المعلم العصا للسيوفي، لا تحضرها معك مرة ثانية.

بعد أيام تأخر المعلم عن الدخول إلى الصف، وعندما حضر وقام له التلاميذ، وجد السيوفي واقفاً قرب السبورة، وقد كتب عموداً من الأسماء.

ـ هؤلاء، وأشار السيوفي إلى الأسماء، كانوا يعجزون في الصف.

ـ امسح الأسماء وادخل إلى الصف، ثم توجه بالكلام إلى بقية التلاميذ، عريف الصف هذه المرة سننتخبه انتخاباً، وقد اضطر المعلم أن يتحدث مطولاً للتلاميذ عن أهمية الانتخابات وممارسة الحرية، وتحدث عن الديموقراطية وأصلها وفصلها وضروراتها، وأن الشعوب والأمم يقاس تقدمها بمدى حرية أبنائها.

التلاميذ كلهم، والسيوفي أيضاً كانوا مندهشين من كلام الأستاذ، كلام جديد لم يسمعوه من أستاذ قبلاً، ولكنهم غير قادرين على التنبؤ بنتائج هذه الانتخابات الغامضة، غير أن المعلم أخرج طلابه من حيرتهم سريعاً عندما قال: يحق لأي طالب أن يرشح نفسه ليكون عريفاً أو نائباً للعريف، وأنتم سوف تنتخبون الطالب الذي يعجبكم ويدافع عنكم.

يدافع عنا؟.... أغرقت هذه الجملة الطلاب في تساؤلات محيرة،

فهم يعرفون أن عريف الصف يهاجم ولا يدافع، يعاقب ولا يحمي، فمن هو هذا العريف الذي سيدافع عنا، كان الوضع مربكاً للجميع وإذا دافع.. متى سيتفرغ لكتابه أسماء المعجزين.

ـ الانتخابات سنجريها في الأسبوع القادم، وعلى كل من يرغب في ترشيح نفسه أن يرفع يده، لأسجل اسمه، والمرشح عليه أن يتصل برفاقه وزملائه، خلال المدة حتى يقنعهم بانتخابه.

هذه الديموقراطية اللعينة من أين جاءت؟ والطلاب الذين أفقدتهم أساليب التعليم السائدة خصائصهم ودمرت ثقتهم بأنفسهم، كيف يمكن الواحد منهم أن يرفع يده ويصرخ: أريد أن أرشح نفسي لأكون عريفاً؟ كثير منهم يرغبون أن يكونوا، وواحد منهم لم يجرؤ.

السيوفي أكلته الرغبة في أن يرفع يده ويرشح نفسه، لكنه قرر التريث والانتظار، حتى يعرف مَنْ مِنَ الطلاب سيرشح نفسه سواه.

تَرَدُّدُ التلاميذ في ترشيح أنفسهم وإعلان برامجهم الانتخابية أربك المعلم الديموقراطي، فازدادت عيناه جحوظاً، وراحتا تمسحان الصف مسحاً بحركة سريعة مستغربة.

ـ لا أحد منكم يريد أن يرشح نفسه ليكون عريفاً.

ـ أنا أريد.

ـ ما اسمك.

ـ علي درويش.

سجل المعلم اسمه على السبورة، من يريد غيره؟

وتتالت الأيدي المرفوعة، والمعلم يسجل على السبورة: محمد البطش، عدنان حمدان، زكريا قطاع، علي حمامة... عندما أكمل المعلم التفاتته، وجد غابة من الأيدي المرفوعة، فأدرك أن لا أحد من التلاميذ سيكون خارج الترشيح، ورغم ذلك فقد شعر بالغبطة للاستجابة الواسعة، فتابع التسجيل حتى درز السبورة درزاً بالأسماء، وعندما تأكد أن الجميع قد سجلوا أسماءهم، استدار وحرك مفصل كفه وأصابعه ليعيد لها الدم الذي فقدته وهي مرفوعة للكتابة.

ـ جيد أنكم جميعاً رشحتم أنفسكم، ولكن على الذي رشح نفسه أن يتأكد أن رفاقه يحبونه وسينتخبونه، ليصير عريفاً.

ـ أستاذ، قال البطش متحمساً، السيوفي لا أحد يحبه وصار عريفاً عدة سنوات.

ـ في الماضي لم تكن توجد انتخابات، أما الآن فالوضع تغير، والذي لا ينتخبه رفاقه لن يكون عريفاً مهما كان. لذلك، الذي لا يجد في نفسه القدرة على الفوز، الأفضل أن ينسحب، ليشارك في انتخاب سواه، ثم دخل في توضيح أهمية أن يكون الإنسان ناخباً، وتحدّث عن الرأي العام الذي يشكله الناخبون. بعد ذلك بدأت عمليات الانسحاب من الترشيح، وتأكيداً من التلاميذ على الإيمان بوجهة نظر معلمهم حول مسألة الرأي العام وأهمية الانتخاب فقد انسحبوا جميعاً ولم يعد لدى أحدهم الرغبة في الترشيح، مما أدخل المعلم خالد الهروي في ضحك انفجاري مزلزل أرعب الطلاب وأدهشهم. المشكلة أن المعلم عندما ينفجر في ضحكاته وقهقهاته المدوية يفقد السيطرة على نفسه كلياً، والمشكلة الأهم، أن الانفجار الضاحك يولد لديه

انفجاراً أعلى وأصخب، فذاكرته تعيد له الحدث بصورة مركبة متضادة فيجد نفسه غارقاً بعد ذلك في دوامات الضحك الهائل، إلى الحد الذي يدفعه ليضغط مقدمة بطنه وخاصرتيه بذراعيه حتى لا تصيبها ضحكاته القاتلة بالانفجار.

التلاميذ برمتهم لم يسمعوا أحداً يضحك بمثل هذه الضراوة، وهم رغم أنهم ذعروا في أول الضحك، واستغربوه بعد ذلك، غير أنهم فقدوا السيطرة على أنفسهم وانخرطوا في المشاركة بضحك جماعي مزلزل، وأصبحوا يتبادلون الأدوار في ما بينهم بمشاركة المعلم. فعندما يخفت صوت جماعة أو طرف، تنفجر أصوات الطرف الثاني لتشتعل الضحكات من جديد. يوم بتمامه والجميع يضحك، وقد قصرت قامتهم من وطأة الألم والتلوّي وضغط البطون والخواصر حتى طفرت الدموع من عيونهم جميعاً، وكادوا من شدة انحنائهم على أجسادهم وهم يستعيدون ذكريات الضحكات أن يصلوا إلى بيوتهم متدحرجين.

في اليوم التالي قرر المعلم أن يطلب من بعض الطلاب أن يتقدموا للترشيح ثانيةً، وقد أوضح لهم ضرورة ذلك، تقدم للترشيح، الدرويش، البطش، والحمامة.

كان السيوفي في وضعية الانتباه، وخشية منه من فوات الفرصة فقد نهض ورشح نفسه أيضاً.

المعلم تأمل السيوفي، نهوضه، وتأنيه، وترشيحه لنفسه بثقة افتقر إليها المرشحون الآخرون. فداخله شعور بالخوف على ديمقراطيته من اجتياح هذا الفتى لها وكسبه الأغلبية بما يمتلكه من ماض عريق في السيادة والمناورة والترويع. لذلك بعد أن سجل الاسم، أمسك

بالممحاة وأزال الاسم بضربة سريعة، ولكي يعطي مبررات لتصرّفه الأخير قال:

ـ العرفاء السابقون لا يحق لهم الترشيح، من أجل إعطاء فرصة لطلاب جدد لكي يكونوا عرفاء.

ضربة الممحاة السريعة وإزالة الاسم بعد تثبيته بهذه الطريقة المفاجئة أذهلت السيوفي الصغير، غير أنه لم يستسلم طويلاً لذهوله، فنهض إلى المعلم الذي أقفل باب الترشيح وقال:

ـ أنت قلت إن الترشيح حق للجميع، وتحدثت لنا عن الحرية والمساواة، ثم شطبت اسمي، لم يستطع السيوفي إكمال الكلام، فوضع رأسه على ذراعيه وأخفى وجهه على سطح المقعد.

شعر المعلم بحجم الضرر الذي ألحقه بالسيوفي العريف الدائم، حتى التلاميذ الشامتون بالسيوفي شعروا بالأسى وبمشاعر متضاربة لم يستطيعوا لها تفسيراً.

المعلم شعر بمشاعر الطلاب وتأثر على طريقتهم، لذلك أمسك قطعة الطباشير وأعاد تسجيل الاسم ليصبح عبد العزيز السيوفي من المرشحين الأربعة.

بذل المرشحون الأشاوس جهوداً متفاوتة لإقناع ناخبيهم، البطش حول موضوع ترشيحه إلى موضوع للتندر والسخرية: الذي سينتخبني (قال على رؤوس الأشهاد) سأسجل اسمه بشكل دائم مع المعجزين، أما الذي لن ينتخبني فسأسجل اسمه مع الميتين.

* الحديث عن الحرية والانتخابات فتح شهية الطلاب على التعليقات.

ـ أنا لن أنتخب إلا الذي يشتري لي خمسة سندويشات فلافل قال مصطفى الغريز للمرشحين، وهو ينظر نظرة ذات مغزى إلى السيوفي المندهش مما يرى ويسمع، لقد أفلحت الديموقراطية بتدمير هيبته وتطاوله أمام الطلاب الذين أصبحوا فجأة أصحاب الكلمة في تنصيبه وعزله، في تثبيت هيبته أو إطاحتها، لذلك وضع الخطة للاتصال بأفراد عصابته من المتعاونين معه، وقد أعطوه وعوداً هائلة بأنهم سينتخبونه، ثم تركوه وذهبوا إلى علي درويش وأخبروه أنهم لن ينتخبوا أحداً سواه.

عندما شرح السيوفي لأمه خطة الأستاذ وطريقته الديموقراطية في انتخاب عريف الصف وطلب منها مبلغاً كبيراً من المال لشراء سندويشات فلافل وتوزيعها على الطلاب من أجل الديموقراطية، لطمته بظاهر كفها وقالت له: يلعن أبوك على أبو الانتخابات على أبو الديموقراطية، انقلع من وجهي. شفة السيوفي الواسعة تضررت من لطمة أمه القوية فسالت عليها قطرات من الدم نزلت من أنفه، وقد دفعته هذه اللطمة للإحساس بالثمن الباهظ الذي يدفعه دعاة الحرية والديموقراطية، وبأن أمه متضامنة مع الأستاذ في اطاحته هو وهيبته وبرامجه القيادية، غير أنه لم ييأس، فتابع اتصاله بالتلاميذ شارحاً لهم برنامجه الانتخابي، وفي مقدمته تقديم وعود قاطعة لناخبيه بأنه لن يكتب أسماءهم في قائمة المعجزين. غير أَنَّ معظمهم كانوا يخيبون آماله ويطلبون منه الاستمرار في كتابة أسمائهم، فالمعلم الجديد لا ينام، ولا يستعمل العصا. زكريا العكام ابن حارته الذي تعلم عند حميدة الهلالي وذاق منها أهوال العصا والنظرات، قال له: سأنتخبك إذا صارت أمك معلماً في المدرسة.

ـ أمي تصير معلماً في المدرسة؟.. لماذا؟

ـ لأنها تشبه الرجال.

وقد دفع ذلك السيوفي ليثأر لأمه وكرامته، ويلكم العكام على وجهه وأنفه، قام العكام إثرها برد الصاع صاعين منتقماً لنفسه، ليس من الضربة، بل من الضربات القديمة التي تلقاها منه ومن أمه في الكُتاب.

في اليوم المشهود يوم الانتخابات، شرح المعلم طريقة الانتخاب، بعد أن قص أوراقاً متماثلة بعدد الطلاب، ووزعها عليهم، وطلب منهم ترشيح اسمين من أربعة أسماء، لمنصب العريف ونائبه.

بعد جمع الأسماء، جاء علي درويش أولاً، وتلاه البطش برتبة نائب العريف، وحصل السيوفي على صوت واحد، غير أن السيوفي بعد يومين من اللهاث، قرر أن يتوقف عن الندم، فأمه تحيط به، وبنات الكتّاب ينتظرن إشارة منه، وبخاصة الفتيات الناهدات اللواتي نسين صدورهن واندهشن من نظرات الأم ومن أصابع الولد الزعيم.

بعد أيام من الديموقراطية، بادرت الحكومة لأخذ زمام الأمور، وأرسلت رجلين صامتين، همسا في أذن المدير، فهرول إلى الصف المذكور، وهمس كلاماً مقتضباً في أذن المعلم، فازدادت عينا المعلم الديموقراطي جحوظاً، وكاد أن يدخل في الضحك المدمر الذي لايقوى عليه أحد... ثم التفت إلى الطلاب الذين صمتوا لأول مرة وهم يراقبون الهمسات.

ـ أنتم طلاب ممتازون، قال المعلم، وعيناه تبرقان بكلام كثير، ثم مضى مع المدير.

يومٌ اثنان ظل تلاميذ الصف السادس في مدرسة اليرموك الابتدائية

في حي الكلاسة دون معلم، في اليوم الثالث، دخل المدير بصحبة معلم جديد.

ـ أستاذ، سأل البطش المدير: أستاذنا خليل الهروي، لن يعود؟

ـ لن يعود.

معظم التلاميذ شعروا بالحزن، وتشكلت على أطراف عيونهم مياه لا يقدرون عليها، وحده البطش، الطالب الساخر صار يجعر بالبكاء مثل طفل صغير.

بعد أيام من الكلام وقراءة الدروس والكتابة، سأل المعلم الجديد الذي يغلق فمه عند الكلام ويتكلم من أنفه: من هو عريف الصف؟

ـ رد بعض التلاميذ: الدرويش أستاذ، ورد آخرون: السيوفي أستاذ.

ـ من هو الدرويش؟

ـ نعم أستاذ، نهض الدرويش.

ـ هل أنت العريف؟

ـ كلا، السيوفي هو العريف.

ـ من هو السيوفي؟

ـ نعم أستاذ، نهض السيوفي.

ـ هل أنت العريف؟

ـ أنا لا أريد أن أكون عريفاً، رد السيوفي على كلام المعلم، وقعد بعد ذلك مباشرة.

ـ أنت، (أشار المعلم الجديد إلى الحداد، أطول الطلاب وأكبرهم سناً) كُنْ عريفاً للصف.

ـ أنا لا أعرف الكتابة، قال الحداد مستغرباً:

ـ لا يهم، أشر بإصبعك إلى الطالب المعجّز، ولا تنس أن تحضر معك في الغد عصا، ثم ذهب الأستاذ الجديد إلى كرسيه واستدار إلى جهة النافذة الواسعة، وبدأ بعينين لا يعرف أحد نياتهما يتابع حركة الأشجار بين النافذة والسور.

والحداد عريف الصف الجديد ينظر بعينين غاضبتين إلى التلاميذ، الذين أعياهم أحساس غامض بأنهم بسبب عجز الحداد عن الكتابة، أصبحوا جميعاً في قفص الاتهام، فلم يكن أي منهم يستطيع أن يكشف غطاء رأس الحداد لمعرفة من هو المذنب ومن هو في الطريق لأن يكون.

عاش السيوفي عامه الدراسي ذاك، ومعه بقية طلاب الصف، في وضعيات متماثلة، كلهم ينظرون إلى أنف المعلم حيث يتدفق الكلام ويغلقون عقولهم دونه، ويتذكرون الأستاذ الديموقراطي وتتغضن ذاكرتهم بالتجاعيد المبكرة التي لا تتناسب وأعمارهم. أجمل الفترات إلى قلوبهم لحظة صمت الأستاذ وانصرافه إلى النافذة والأشجار، ليتفرغ الحداد بنظراته المحيِّرة إلى وجوه الطلاب.

الأستاذ الجديد كان يدرك فداحة صوته على أسماع غيره، لذلك كان يقتصد بالكلام، يعطي الدرس في الدقائق الأولى، وينصرف للتأمل، والتلاميذ ينصرفون إلى رؤوسهم وعقولهم لاقتلاع أصداء صوت الأستاذ منها حتى لا يصابوا بالصرع.

بعض التلاميذ، والسيوفي من بينهم، كانوا يجتمعون ويستذكرون بحفاوة أيام الانتخابات وكلمات المعلم الديموقراطي الذي دفع بهم دفعاً لأن يكونوا كباراً أكثر بكثير مما تحتمله أعمارهم، وها هم، وقد كبروا فجأة في غيابه، وصاروا يدركون ذلك كله ويستغربون من طول الحداد وأميته ونظراته... هذه النظرات التي باتت وحدها من يرسم لهم المصير.

عفراء

* لماذا... ودون غيرها من البنات اللواتي نسيتهن أمهاتهن في الكتّاب ليكبرن أمام عيني السيوفي الابن، لماذا تحاول وحدها عفراء الحبال أن لا تستجيب لأوامره ورغباته وتلحق به إلى غرفة المؤونة بين الأكياس؟ ألانها أجمل من غيرها من البنات، أم لأن جزرة شعرها خلف عنقها سميكة وطويلة؟ لماذا تتوقف عن الغناء عندما يدخل، وتتجاهل نظراته عندما يحاول؟ لماذا تقعد قرب محمد المغربي وتنظر إلى يديه وإلى وجهه ولا تتعب؟

وها هم الأولاد يكبرون في الكُتّاب... دون أن ينتبه الأهل إلى صدور بناتهن التي بزغت، ولا إلى أصوات أولادهم وقد جرحتها الخشونة والمراهقة والبراكين.

حميدة الهلالي بنظراتها الحديدية تسوط وجوه الأولاد، فتتسمّر نظراتهم في اتجاهات لا يجرؤون على تجاوزها، وفي غيابها. تبدأ

العيون الحائرة بث رسائلها في الهواء الضنين.

* السيوفي الابن، وعندما يحل محل أمه في الكُتّاب، لا ينظر إلى الجميع نظرة شاملة، يركِّز نظراته على جهات محددة، تكون عفراء الحبال قاعدة في إحداها وفي حضنها دفترها وقلمها، وقد أسدلت ثوبها تحت ركبتيها، هذه العفراء أصبحت تتحاشى في الآونة الأخيرة الجلوس قرب محمد المغربي، لكنها تحرص على أن تجلس في مواجهته حتى تتمكن من متابعة وجهه الذي يحمر كلما بادلها النظرات، وهي تحس بوطأة نظرات السيوفي الابن، وتتقصد تجاهله، وهو يمعن في التعلّق بها والتفكير بعينيها وصوتها، ولكنه غير مستعد رغم ذلك لتقديم التنازلات.

علياء الخالصي، ابنة الأسرة الغنية، التي يعمل والدها ببيع الخيزران والليف الأبيض، ويشرف على صناعة مكانس الغبار الصغيرة لا تفعل مثلها ولا تتمنَّع، فمن تظن نفسها هذه البنت التي يقطر صوتها حلاوة، ويتدفق من عينيها ضوء يثقب القلب ويرهق المخيلة والروح؟

عندما يحل محل أمه التي تذهب إلى بعض شؤونها أو تقوم بزيارة لجارتها أم جنيد، يقوم السيوفي الابن بتمثيل دور الأستاذ بشكل كامل. يستمع للأولاد، ويعاقب بعضهم بالضرب، ويطلب من آخرين كتابة وظائف مضاعفة عقوبة لهم على التقصير، وخلال ذلك يحاول أن يستمع إلى عفراء الحبال، في محاولة لاكتشاف أخطائها ووضعها موضع التقصير ليغفر لها ولتشعر نحوه بالامتنان. غير أنها لم تكن تترك له الفرصة لممارسة هذا الدور. كانت قراءتها صحيحة دون أخطاء، وكان صوتها يرعش القلب، غير أن السيوفي الابن يجهد نفسه ليوقع بها، رغم أن النص القرآني

مضبوط بالشكل، والبينة واضحة، لذلك عندما يتعمد السيوفي أن يوقعها في خطأ لم ترتكبه كانت ترد عليه بكلام لا خوف فيه، مبينة له أنها لم تخطئ، وأن قراءتها صحيحة، وعندما تعييه الوسائل يطلب منها أن تقرأ لينتبه إلى صوتها مستجيباً لإيقاعه وحلاوته دون أن يكلف نفسه عناء التفكير بالقصاص الذي لا يقدر عليه.

لذلك قرر السيوفي التحدي، ووضع خطة لتنفيذ ذلك، محاولاً أن يرصد تحركات البنت لينفرد بها، وعندما وجدها وحيدة في المطبخ تشرب الماء، تقدم منها والجميع مشغولون في الغرفة المجاورة باستذكار بعض الآيات، وطلب منها أن ترافقه إلى غرفة المؤونة بعد أن أمسك يدها.

ـ اتركني، همست غاضبة، ولكزته بكوعها في خاصرته.

ـ اذهبي معي ولا تخافي.

انفلتت بجسدها غاضبة، لكنه عاجلها بقبضته، ممسكاً بضفيرة شعرها، فتراجعت برأسها وتراجع جسدها بعد أن أفلحت قبضته بلجم اندفاعاتها بغتة.

كزّت البنت على أسنانها وهي تكتم صرخة، والأطفال في الغرفة المجاورة يتابعون التلاوة بأصوات جماعية منغمة، تُرسخ في وجداناتهم إيقاعات اللغة فيتمثلونها كما يتمثلون الماء والضوء والهواء، والبنت تشهق من شدة الفزع وقد وضعت يدها على فمها حتى لا تفضحها الصرخات.

السيوفي الابن مضى في مشروعه، جرّ الفتاة من ضفيرة شعرها ومضى إلى الباحة، وعفراء الحبال تتبع قبضته برأسها أولاً

وبجسدها ثانياً، وعفراء الحبال تخشى أن تصرخ فتدهمها (الخوجة) بنظراتها الهائلة، لذلك صمتت وتبعت الابن وهي تجر جسدها جراً.

السيوفي أعد عدته لهذا اللقاء فوضع زيتاً على مفاصل الباب الخشبي حتى لا يزقزق فتنتبه الوالدة المبجلة وتخرب الدنيا على رأس الولد ورأس البنت المفعوصة التي لا شك فعلت المستحيل لإغواء ولدها البالغ التهذيب والحياء.

عندما وصلا إلى الباب الموارب، تمترست البنت بكفيها على أطراف الباب رافضة الانصياع والدخول، لكنه نترها بقوة من شعرها فتطايرت إلى الداخل دفعة واحدة، وفي العتمة الظليلة بين الأكياس وقفا معاً يلهثان من المحاولة. الفتاة وضعت كفيها على صدرها لتحميه، غير أن السيوفي، امتد بيده إلى وجهها ومسحه بكفه، وعلى شعرها وانساب على جدوله الكبير.

ـ اتركني أعود، قالت باكية.

ـ لا تخافي لن أؤذيك.

ـ ماذا تريد.

ـ غنِّ لي أغنية.

ـ أغنية، فرّت الدهشة من عيون البنت كعصافير فزعة.

ـ لا أعرف، قالت مستثارة، لا أريد، ووضعت كفها ثانية على فمها لتحمي أغنياتها وتمنعها من الخروج.

ـ أغنية صغيرة.

ـ أخاف أن يسمعنا أحد.

ـ لا ترفعي صوتك.

ـ لا أريد.

ـ أريد أن أرى صدرك.

ـ وتتركني أعود.

ـ أتركك.

ـ أخاف أن تمد يدك.

ـ لن أمدها.

مدت عفراء الحبال يدها المرتعشة إلى ظهرها وحررت الزر الأول والزر الثاني من عروتيهما ثم أعادت يدها وشدت عنق الثوب إلى الأسفل حتى بان نهدها ثم أعادته بسرعة.

ـ لم أره قال السيوفي محتجاً.

ـ كررت المحاولة، وأبقت نهدها ظاهراً.

امتدت يد السيوفي إلى النهد، فاشتعل وجه الفتاة، وعندما تأمل وجهها أدرك فظاعة موقفه، فارتد بيده، وأصوات التلاوة الجماعية تغمر المكان.

ردت عفراء الحبال ثوبها إلى الأعلى، وطلبت منه أن يزرر الأزرار على ظهرها فامتد بكفين مشتعلتين إلى مثلث ظهرها المكشوف وبدأ بإغلاق الأزرار، كانت الأزرار أكثر سخونة من حلمة صدرها الفزع، الحلمة المنتصبة مثل زر هائل وعجيب، لكأنَّ سخونة الجسد

برمته قد تكدست في هذه الأزرار. عندما استكمل بصعوبة إغلاق فجوة الظهر وأعاد قبضة الشعر الطويل لتغطي الأزرار، استدارت عفراء الحبال مستثارة وقالت: اتركني.

ــ أريد أغنية.

ــ ولكنك...

ــ أريد أغنية.

ــ وتتركني هذه المرة؟

ــ أتركك، (وأصوات التلاوة ترج المكان).

ــ أدركت عفراء الحبّال أن هذا الشيطان لن يتركها إلا إذا غنت، ولكنها غير مؤهلة للغناء، فالخوف والاحتجاز يمنعان كل شيء فيها عن الاستجابة، ولكنها مضطرة للغناء من أجل أن تتحرر من هذه الغرفة ومن سطوة هذا الولد، ومن أصابعه التي لسعت صدرها وبعضاً من ظهرها وأزرار ثوبها.

ــ أية أغنية تريد؟

ــ مَرْمَرْ زماني.

ــ لا أعرفها.

ــ سمعتها منك في إحدى المرات وأنا في باحة الدار.

رددت بصوت مجزإٍ خائف، خفيض، تكاد لا تسمعه:

مرمر زماني يا زماني مرمر

مرمرتني... لا بد ما تتمرمر (وأصوات التلاوة تَرجُّ المكان).

وشهقت بدموعها، فأفزعته، وصمتت منتبهة إليه، وصمت منتبهاً إليها، غير أن شيئاً فادحاً قاطع صمتها وتأملها العميق، شيء من سلالة الأشياء التي أفزعت مدام اشتعال عندما دخلت بجسدها إلى الوتارة برفقة السيوفي الأب.

فأر فزع ارتطم بقدمي الفتاة وانسل غائباً بين الأكياس، لذلك صاحت البنت صوتاً من قحف رأسها فتوقف الحشد عن التلاوة، وبدأ الجميع بالانتباه، فهرعت الأم إلى غرفة المؤونة وتبعها بقية الأولاد، وعندما اقتحمت عليهما الغرفة وجدت الصغيرة في الغيبوبة الصفراء، والولد منكب إليها يحاول إيقاظها وقد أنهك الفزع روحه ودمه فعالجته بلطمة على وجهه، وعالجت البنت بلطمة ثانية أيقظتها، فتناهضت وكأنها خارجة من قبر، فأمسكتها الوالدة الغيور من ضفيرتها وجرتها وجرت ابنها من أذنه وأخرجتهما معاً إلى ساحة الدار المملوءة بالأولاد والبنات وقد اضطربت احداقهم وتشتتت أعمارهم. محمد المغربي الولد الذي تبادله عفراء الحبَّال النظرات ويبادلها الخجل والاحمرار، كان واقفاً بين الحشود، وعندما أطل عليه المشهد ووجد عفراءه في حالة التماوت الجليل والصفرة الغامضة، انكب بجسده إلى الوراء، وذهب إلى غرفة الدرس وحيداً، ووضع رأسه على ركبتيه وبدأ ينتفض بكامل جسده.

والأم الغيور وفي يمينها ويسارها أدوات الجريمة وخلفها غرفة المؤونة، واقفة بصمت واندهاش أمام الشهود الصغار، لذلك وجدت نفسها مضطرة لأن تصرخ فيهم صوتاً يذهلهم ويعيدهم إلى الصف حاسرين، فتدافع الحشد وتعثروا ببعضهم وخوفهم ودخلوا إلى الغرفة.

أفلتت حميدة الهلالي، البنت التي تكاد تسقط من قبضتها، وصرخت فيها: أذهبي معهم، فتحاملت على نفسها وذهبت، وبقيت الأم مع ابنها العجيب.

مئات من الصفعات والركلات انهالت بها على جسده الذي كوّمه الألم، وهي تصرخ يا ابن الحرام، ثم ربطته من قدميه وشبحته إلى شجرة التوت الأبيض، رأسه إلى الأسفل وقدماه إلى الأعلى، وذهبت إلى غرفة الأولاد وطلبت منهم الخروج جميعاً إلى الباحة لمتابعة المنظر، ثم أمسكت العصا وبدأت تنهال على جسد وحيدها دون وعي. بعد ذلك طلبت من الأولاد كلٌّ بدوره أن يمسك العصا ويضرب ولدها، فالتزموا بتنفيذ الأمر صاغرين، والولد صامت يحتمل الضرب والعقوبة مثل جذع شجرة قديم.

عندما جاء دور عفراء الحبال لتضرب، أمسكت العصا بيدها واقتربت، اقتربت، ثم افلتت العصا وهرعت إلى الغرفة في هيئة شيء غاضب وحزين.

في اليوم التالي لم يحضر إلى الكتّاب أحد، ولا في اليوم الذي يليه، ولا بعده بأسبوع، عند ذلك أدركت الأم أن السيوفي الأب قضى على عمرها وشبابها، وأن الابن قضى على لقمتها، وأن عصراً جديداً من المكانس والأصابع المدماة ينتظرها، غير أنها لم تفقد الأمل، فلبست عتادها وتوجهت إلى بيت أم جنيد لتفتيها، وعندما وصلت إلى الباب تذكرت أبنها جلاب المصائب، فعادت إليه مسرعة، وشبحته ثانية على الشجرة وانهالت عليه بيأسها ووحدتها وأمومتها الخائبة حتى أدمته، والولد صامت، رؤوس أصابعه التي لامس بها صدر عفراء أكثر احمراراً وسخونة من

جسده المتورم بالضربات، ثم تركته وعادت إلى بيت أم جنيد فوجدتها تغمس خبزها بالزيت والزعتر وتتابع العمل في فتح صدر المكانس.

ــ جئت أفتح صدري لك يا أم جنيد، وقعدت حميدة الهلالي على الأرض مثل مكنسة متعبة.

ــ افتحي نفسك بلقمتين قبل حديث الهم.

ــ لم يترك لي هذا الملعون نفساً لأفتحها.

ــ ولد واحد ولا تتحملين، ماذا أقول في عشرة أولاد.

ــ الله يحميهم، عندي ولد أتعبني أكثر من الستين ولداً وبنتاً الذين أعلمهم قراءة القرآن.

ــ صحيحة الأخبار التي يقولها أهل الحارة؟

ــ أية أخبار؟

يقولون إن أبنك المحروس، يدخل بنت الحبال إلى غرفة المؤونة، ويطلب منها أن ترقص وتغني له، وأن صوت الغناء يصل أحياناً إلى الغرفة الثانية وأنت لا تردين، وأن البنت من كثرة الرقص تقصفت رُكَبُها وما عادت تستطيع الوقوف على قدميها.

ــ وماذا يقولون أيضاً؟

ــ يقولون إنَّ أبنك وضع زيتاً للمفصلات على باب غرفة المؤونة حتى لا يخرج الباب صوتاً، وأن شعر ابنة الحبال كان مسبلاً وطويلاً، ولكنه من شدة الخوف تجعّد وصار قصيراً، ويقولون إن الشامة في أعلى ظهرها ما عادت موجودة.

ـ ألم يقولوا إن نهر قويق[١] قد جف بسبب ولدي، وإن الانفصال بين مصر وسوريا قد وقع لأن ابني يحب جمال عبد الناصر أكثر مما يحب رجال الانفصال.

* البنت الملعونة دخلت بمفردها إلى غرفة المؤونة فمرّت بين رجليها فأرة، فصرخت صوتاً ووقعت بطولها على الأكياس، فركض ابني إليها ليساعدها وكان ما كان.

* مؤذن الحارة عبد المولى وجدها مناسبة ليؤلب أهل الحارة على حميدة الهلالي وولدها، باعتبارها المنافسة الأولى له ولكتّابه ولخيبة تلاميذه، لذلك حاول العمل على جبهتين، أرسل زوجته أم عمر إلى الجبهة النسائية، لتسهم بالإجهاز على حميدة الهلالي وسمعتها بين نساء الحارة، وتفرغ هو لجبهة الرجال مذكراً بالسلف الصالح وتدهور الأخلاق، وبأن بعض الناس لا يحفظون حرمات بنات الحارة. وتساءل: هل افتتحت حميدة الهلالي كُتّاباً أم مرسحاً؟ وذكّر الناس بخطورة الرقص والغناء في غرف المؤونة في كتاتيب النساء.

لذلك كان رجالات الحارة يزأرون من الغضب والمهانة، ويذهبون إلى بيوتهم ويحلفون على زوجاتهم بالطلاق إن هن أرسلن أحداً إلى بيت حميدة الهلالي لِتَعلُّمِ الموبقات.

والسيوفي الابن مشبوح إلى الشجرة ورؤوس أصابع كفه اليمنى

---

(١) قويق: نهر ينبع من تركيا ويمر بمدينة حلب.. وقد ذكره الشاعر الصنوبري في الكثير من قصائده.. وذكره أهل المدينة في الكثير من حياتهم... في أربعينيات القرن الماضي قطعت تركيا النهر عن سوريا، فتوقف عن التدفق والجريان.. وبقي المجرى، والقصائد والذكريات.

يأكلها الحريق، وعفراء الحبّال متكومة على ذكرياتها وقد التهب نهدها الأيسر بأصابع الولد اللعين، وقد أرهق ذاكرتها الصغيرة أن تستعيد صورته مربوطاً إلى جذع شجرة التوت والعُصيُّ تنهال عليه دون صراخ ودون دموع. هل يمكنها أن تنتقل بقلبها الصغير إلى ساحته، وإلى نعومة أصابعه وجرأة روحه، تاركة وراءها محمد المغربي الولد الضعيف الذي لا يجرؤ على الكلام والاقتحام؟

* بعد أن تكومت عفراء الحبال أمام الأهل لاستجوابها، وانهالت عليها الأسئلة والصفعات تذكرت الأغنية.

مرمر زماني يا زماني مرمر

مرمرتني لا بد ما تتمرمر

فالتفتت بغتة كأنما تلمح السيوفي الابن في الجوار.

* طيب أيتها الفئران، لولاك لما كان الذي كان، قال ذلك السيوفي الابن المشبوح إلى شجرة التوت الأبيض وهو يستعيد ذكريات النار التي لفحت رؤوس أصابعه عندما لامس نهد ابنة الحبال... الأولاد في الكتّاب تحولوا إلى أجهزة للبث والتشويش، حاول كل منهم أن يختلق رواية ويقصها على أهله، في محاولة للانتقام من ابن الخوجة[1]، من تعنته وجبروته، والفتيات الناهدات منهن اللواتي فوجئن بالسيوفي الابن يخونهن مع غريمتهن النادرة، عفراء الحبال، تحدثن عن ثياب ممزقة وشعر مقطع، وعن ولد لئيم، كثيراً ما حاولهن

(١) الخوجة: لقب يطلق على المرأة التي تعلم القراءة والكتابة والقرآن في حاراتنا القديمة، ولقب الشيخ يطلق على الرجل الذي يقوم بذات المهمة وأصل الكلمة تركي.

ولكنهن رددنه، ووحدها عفراء الحبال قبلت، وكان ما كان.

* لماذا غدرت بي أيتها الفئران، وأنت في القصص والحكايات تقطعين الحبال وتنقذين الطيور والأرانب والسعادين من الشباك حتى لا يقعوا بين براثن الصياد؟

* إن كنت كذلك فتعالي وفكي حبالي وخلصيني من هذه الشجرة ومن أمي، تعالي وخلّصيني قبل أن أتذكر ابنة الحبّال.

* الجولة التي قامت بها حميدة الهلالي إلى بيوت أهل الحارة لإقناعهن بضرورة إعادة أولادهن وبناتهن إلى كتابها، وأن ابنها لم يفعل شيئاً، وأنها رغم ذلك ترفعه كل يوم فلقاً لتكفّر عن خطيئة لم يرتكبها. هذه الجولة لم تنفع، وقد عزّز خيبة حميدة الهلالي قيام مؤذن الحارة بافتتاح كتّاب خاص للبنات في بيته وبإشراف زوجته التي لا تجيد القراءة والإملاء، وقد أرسل في محاولة لتعزيز موقفه من يقول لحميدة الهلالي بأنه يرغب منها أن تساعد زوجته في تعليم الأولاد، وعرض عليها مبلغاً من المال مقابل ذلك، لكنها رفضت، ثم أعاد العرض عليها بصورة أخرى، طلب فيها أن تتزوجه وتعمل معه، فرفضت عرضه الثاني وظلت تتابع النظر إلى ولدها المربوط إلى الشجرة وهي تفكر بالأيام القادمات.

مكانس وأيام، وولد وحيد.

بعد كل عقوبة، تحتضن حميدة الهلالي ولدها وتبكي على رأسه دون أن تترك له الفرصة ليلمح دموعها، ودون أن يراها، كان الابن يحس بزفراتها تلهب رأسه وبالماء ينزلق بين تفاصيل شعره ورؤياه.

* .. فئران.. فئران.. طيب أيتها الفئران. إلى أين ستهربين؟

الفئـران

في ليلته تلك، وقد أقضّت مضجعه فئران كثيرة لا طاقة له بها، في ليلته تلك، وبعد أن كتب قائمة باسم أعدائه، ووضع الفئران التي أفزعت عالمه، وأطاحت سمعته بين بنات الحارة وأولادها، في أول القائمة ثم مضى لتنفيذ انتقامه بتصميم عنيد.

في ليل الليل ذهب السيوفي متسللاً تملؤه الرغبة في القصاص، تسلل أولاً إلى المطبخ، وأشعل الفانوس وحمله بيسراه ومضى إلى غرفة المؤونة وفي يمينه عصا المكنسة، معلناً حربه الضروس، علىأعدائه الفئران.

عندما دخل الغرفة عاين المكان ثم أغلق الباب وبدأ يركز انتباهه ليحدد جبهة الهجوم، غير أن الفئران وقد أحست به عاجلته بأصواتها الغاضبة، فالليل ليلها هي، مملكتها والفئران تدرك علاقة الخوف المتبادل التي تربطها بخصومها، لذلك قررت من طرفها

المواجهة، فأرسلت مندوباً سريعاً لتقصي الحقائق، وليقوم بمحاولة إرباك الخصم وكشف نياته، تقدم الفأر الضخم المغامر، إلى قدمي السيوفي المتأهب بحركة مفاجئة مرتطماً بقدميه، مخرجاً صوصأة الفزع ليغرر بالخصم، ثم اندس بين الأكياس، فعالجه السيوفي بضربة متأخرة أصابت كيس البرغل فتطامن طرفه وتشكلت حفرة عند رأس الضربة، وعندما استطاع السيوفي تحديد مكان تسلل الفأر المقدام واختفائه، أدخل العصا خلفه وبدأ زجها بقوة لترتطم بجسده وتلصقه بالجدار.

غير أن الفأر قام بالتفافة ناجحة وأعاد الكرة لمداهمة السيوفي من الخلف، لذلك استدار إليه وشاطه بقدمه وانحصر جسد الفأر بين حافتي كيسين فانضغط بينهما وعلق ظهره وبدأ يرف بأقدامه وذيله وقد انكشطت شفته العليا عن قاطعتيه، فصدرت عنه أصوات الاستغاثة التي ما لبثت أن تلاشت بعد أن عالجه السيوفي الابن بضربة من قدمه على رأسه فغاب معظم جسده بين الكيسين.

بعد أن أحست غالبية الفئران بالثمن الفادح الذي دفعه صديقهم الشجاع صاحب المبادرة الأولى في الهجوم، تطلب الأمر من الفئران الدخول في الخطوة الثانية، وهي أن يقفز جميع الفئران من جميع الثغور دفعة واحدة، ذكوراً وإناثاً، شيباً وأطفالاً وشباباً، ليدخلوا خصمهم وعصاه الطويلة في الارتباك وليحاولوا اقتناص الفرصة والهرب من أطراف الباب أو من فتحة الطاقة، وقد فعلوا ذلك بإرادة واحدة وتصميم على النجاح.

كانت الفئران تتقافز حوله باتجاهات عدة، وهو يهوي بعصاه مطوّحاً بجسده وذراعيه، والتفاتات رأسه، حتى تمكن من إصابة الفانوس بضربة محكمة فوقع على الأرض وانكسرت زجاجته

وانطفأ فتيله، وقد طوّحت المحاولة بجسده إلى الحائط، فارتطم برأسه عليه ووقع مغشياً.

أمه هرعت إلى أصوات الضربات، وانتشلت ولدها وسحبته إلى الفراش وهي تلطم وجهها وصدرها بالبكاء، ثم رشته بالماء وبدأت تمسح وجهه بالتلاوة والقبلات، حتى تحرّك رأسه وتفتحت عيناه.

في ليلة الفئران تلك، وعندما نام السيوفي في حضن أمه، رأى في ما يرى النائم أحلاماً غريبة. رأى أمه وقد تحولت إلى كائن ضخم بحجم قلعة حلب، ورأى الفئران تفر من صدرها وزنديها وخصلات شعرها، بأعداد كبيرة، وبأسنان مزدوجة معقوفة، وكانت الفئران تتشكل في طوابير طويلة تحيط بأمه مثل سور ضخم. ثم شاهد عرشاً كبيراً يتقدم، وقد تشكل من أجساد الفئران، وعليه قعدت فأر ضخمة بحجم أرنب تقاسيم وجهها مألوفة وناعمة، ولها عينان زرقاوان فرحتان، وقد أدهشه أن ليس لها سنان معقوفتان مثل بقية شعبها، وكان الجميع يصرخون بأصوات جائرة وموحدة، وعندما رفعت الملكة ذيلها صمت الجميع، وعندما أشارت إليه بصولجانها، لمح التاج على رأسها فداخله الاطمئنان.

ـ أيها الغريب، قالت الفأرة الملكة، إننا نحبك.

ـ صاحت الفئران بأصوات موحدة: نحن نحبك، نحن نحبك.

ـ ما هو اسمك؟

ـ حاول أن يتذكر اسمه، فلم يخطر بباله سوى اسم (عفراء الحبال)، حاول مرة ثانية، فغام رأسه بالنعاس.

ـ لا تتعب نفسك، كل الغرباء لا يتذكرون أسماءهم في مملكتنا، لذلك نعطيهم أسماء من عندنا.

ـ هل تريد اسماً؟

ـ أريد.

ـ اسمك (العشاء الكبير).

زأر الجميع بالهتافات وأصوات الفرح، وفتح كل واحد من الفئران نافذة في صدره، وأخرج منها قطرة كبيرة من الدم البنفسجي اللامع ووضعها على كفه وقدمها للملكة فلحستها، والسيوفي غارق في الدهشة والانتباه، حتى أصبحت الفأرة الملكة أضخم من الكرسي، وأصبح لون عينيها بنفسجياً، ثم نظرت إليه نظرة ملكية ذات مغزى، وقالت له: الآن جاء دورك أيها العشاء الكبير.

ـ دوري؟

ـ قبل أن نبدأ بك، نريد أن نحقق لك أمنية واحدة.

ـ أنتم؟

ـ نعم نحن، فما هي أمنيتك؟

ـ أريد أن أذهب إلى عفراء الحبال.

ـ عفراء الحبال؟ هل هي فأرة ضخمة مثلي؟ سألت الملكة:

ـ ليست فأرة، إنها فتاة أحب أن أرها قبل أن أموت.

ـ هل تعرف هذه العصا؟ تقدمت كتيبة من الفئران تحمل عصاً ضخمة تعرّفها السيوفي، كان رأسها ملطخاً بسائل بني قاتم جاف.

ـ هذه عصا المكنسة.

ـ وهل للفتاة التي تحبها عصاً مثلها؟

ـ لها ضفيرة شعر ضخمة، وثوب له زرّان من الخلف، وفي صدرها لا أدري ما فيه، وتعرف الغناء، وتخاف من أمي ومن الفئران.

ـ سنحقق لك هذه الأمنية، تقدم منه طابور الفئران الضخمة، بعد أن أحضروا له عفراء، وعندما لامسوا رؤوس أصابع يده اليمنى، فروا فزعين، فانتبهت إليهم ملكة الفئران وتساءلت: ماذا جرى؟

ـ أصابعه مثل النار، صاح كبير الفئران المداهمين، كاد أن يحرقنا بها، لذلك لا نستطيع أن نحقق أمنيته ونجر يده إلى الفتاة.

ـ الأفضل أن نقطع له أصابعه ونأخذها إلى صدر الفتاة لنحقق له أمنيته، صاح فأر عجوز آخر، بعد أن رفع السلاح.

ـ لا أريد، صرخت عفراء الحبال.

ـ لا تريدين أن يلمس صدرك (زأر الفئران المسلحون بصوت واحد).

ـ لا أريد أن تقطعوا أصابعه.

ـ لماذا....؟ سألت الملكة.

ـ لا أدري، ولكنني أحب أن تظل أصابعه كما هي حتى يلمسني بها مرة ثانية.

ـ أصابعه مثل النار، هل تتحملين؟ صاح كبير الفئران، وقد بدا وجهه شبيهاً بوجه شيخ الكتّاب، حتى أن لحيته كانت على ذقنه

أوضح منها على ذقون بقية الفئران.

ـ سنقتُلُكِ ونشبحُكِ، قال كبير الفئران، مخاطباً (عفراء الحبال)

ـ هذا لا يجوز صاحت الملكة، نحن نعاقب صاحب الحلم ولا نعاقب الأحلام، اعطوها العصا لتضربه، وعندما أعطوها العصا تقدمت عفراء الحبال بكفها إلى أصابعه وبصدرها إلى رأسه، فأحس بحلمتها وانتبه إلى عينها وفمها، كانت تغني له:

مر مر زماني يا زماني مرمر

مر مر تني لا بد ما تتمرمر

وعندما انتهت الأغنية عانقها بقوّة، بقوّة.

عند ذلك غرغرت الدموع في وجه الأم، وقررت أن تعمل بالمكانس مرّةً أخرى فهي قادرة على احتمال فقدان مهنتها، لكنها غير قادرة على فقدان ولدها.

كان السيوفي يبتسم عندما جرته الفئران جميعاً، إلى أماكن متعارضة وبعيدة، بحثاً عن شجرة لتشبحه عليها، وعندما اقتربوا كثيراً إلى أصابعه وهم في طور الانتفاخ الهائل، رشت أمه على وجهه الماء، لتحول بينهم وبينه، عندما استيقظ السيوفي من الحلم ووجد نفسه بين ذراعي أمه، نهض وذهب إلى الماء وغسل وجهه من بقايا الحلم الذي حالت أمه دون استكماله.

كانت للسيوفي الابن محاولات وتمارين إعادة استكمال الأحلام ذاتها التي انقطعت معه في ليال سابقة، انقطعت معه وتركته وحيداً في وضعيات مؤلمة.

كانت أحلامه بعد (افتعال الفئران لمعاركها معه) تقوده إلى أوضاع مثالية مع الفتيات اللواتي يثرن انتباهه، فالفتاة التي تستعصي عليه في الحارة، أو في كُتّاب أمه، يستحضرها في الحلم في حالة مغايرة، يستحضرها دون أفعالها السابقة، ومخاوفها وممانعاتها وتشنجها، يستحضرها في هيئة شيء مستجيب وادع حنون، ولكنه في معظم أحلامه تنقطع به الصور والأخيلة قبل أن يصل إلى أهدافه لتتدخل أمه في منتصف المشهد، منتزعة إياه من حالته ورؤياه.

من أجل ذلك قرر أن يستعيد حلم الفئران ذاك، ليغير في النتائج ويحولها لصالحه، وقد دفعه إلى المحاولة، أن عفراء الحبال التي وجدها في الحلم، كانت أقرب إليه وأكثر تجاوباً معه من كل الفئران، ورغبة منه في التحضير لاستكمال حلمه بدأ يردد:

مرمر زماني يا زماني مرمر

مرمرتني لا بد ما تتمرمر

بعد أيام من الإعداد والانتظار والترقب، جاءه الحلم، ووجد نفسه يتسلل إلى غرفة المؤونة. لم يكن منتبهاً إلى طريقة تسلله، هل كانت على أربع مثل أعدائه الفئران؟ أم على اثنتين مثل شيء يشبهه؟ لكنه تذكر صوت الباب وهو يفتح له بنفسه، وفي غرفة المؤونة، وجد الأكياس تلتمع وتنبعث منها الأضواء، وهذا لم يدهشه، لكن أحد الأكياس كان يبكي، وعندما سأله عن السبب، أجاب: لقد ثقّبتني الفئران، لذلك مسح بيده على وجه الكيس ووعده بالانتقام، ثم صفق بيده معلناً بداية المعركة، وقد أحست الفئران بذلك، فبدأت طوابيرها تخرج من الثقوب في هيئة حزينة

ورؤوس منكسة، ولكن الذي أدهشه أن الفئران كانت ملونة بألوان جميلة زاهية، وعندما تجمعت على أرض الغرفة، أعطى قائدها الأوامر بالانطلاق إلى النافذة. صعدت الفئران الأكياس والجدار محافظة على انضباط طوابيرها، وعندما وصلت إلى النافذة العالية الصغيرة المنزوعة الباب وانعطفت، فهم السيوفي من حركاتها أنها مضطرة لمواجهته في معركة خارج الغرفة حتى لا تتدخل الوالدة المبجلة لتفسد النتائج وتدمر الأحلام، لذلك تبع الفئران قافزاً على الأكياس ماشياً على الجدار، وعندما وصل إلى النافذة الضيقة التي لا تتسع لأرنب، انزلق بجسده الضخم متتبعاً مسيرة الفئران المهيبة التي وصلت طلائعها إلى فتحة الوتارة حيث يتسلل الضوء منها إلى بقعة في الداخل. كان منساقاً بجسده خلف مسيرة الفئران دون أن تتوافر لديه الرغبة في أن يخدش هيبة الحشد بالأسئلة رغم أن اختيار ساحة المعركة يعتبر عاملاً حاسماً في صنع نتائجها، غير أنه كان واثقاً من نفسه ومن أحلامه ومن إعداده للمعركة.

ـ في الفسحة الترابية، تكومت الفئران على قائدها، وبدأت بالتشاور، ثم تقدمت الملكة، فأفسح لها الجميع مكاناً.

ـ نحن نعرف أننا وأنت في حالة حرب، قالت الملكة، وقد أعددنا العدة، وحدّدنا أعداد الضحايا وأسماءهم، وكتبنا من أجلهم الأغنيات الحزينة اللازمة.

ـ أغنيات!

ـ نعم، هل تحب أن تسمع؟

ـ أحب.

* عندما أعطت الملكة الإشارة بالبدء، ظهرت في الأمام فرقة

موسيقية، وتقدمت فأرة جميلة ملونة وبدأت بالغناء، وبدأ الجميع يرددون خلفها، السيوفي في الواقع لم يكن يفهم معنى الكلمات، ولكنه أحس باللحن وكأنه يعرفه، يعرفه تماماً، وانتبه أكثر، كان اللحن يشبه تماماً لحن أغنية:

مرمر زماني يا زماني مرمر

مرمرتني لا بد ما تتمرمر

الذي غنته له عفراء الحبال، فارتسمت على وجهه رغماً عنه ورغماً عن الحلم وحالة الحرب، ابتسامة حزينة تذكّر معها وجه عفراء الحبال، وأحسها قربه تستمع إلى اللحن بانتباه، وعندما انتهت الفرقة من الغناء، قالت الملكة: يجب أن لا تتأثر كثيراً بالأغنيات، فالمعركة ما زالت قائمة.

ـ هل عندكم لحن آخر أسمعه؟

ـ عندنا أغنيات كثيرة، ولا يوجد عندنا سوى لحن واحد.

ـ أغنيات كثيرة ولحن واحد لماذا؟

ـ نغير في الكلام فقط ونحافظ على اللحن.

ـ أسمعوني أغنية أخرى.

أعطت الملكة الإشارة، فبدأت الفرقة بالغناء وسمع السيوفي اللحن ثانية، وتذكر عفراء الحبال ثانية، واشتعلت رؤوس أصابعه بالتذكّر، وعندما انتهت الأغنية، قال السيوفي: مارأيكم بتأجيل المعركة حتى لا نفسد الأغنيات؟

ـ نحن نرفض التأجيل، قالت الملكة:

* خلال ذلك سمع كلاماً يفهمه وصوتاً يعرفه، أغنية:

مرمر زماني يا زماني مرمر
مرمرتني لا بد ما تتمرمر

فالتفت إلى الجهة الصوت فرأى عفراء الحبال قاعدة عند دائرة الضوء تحت الفتحة التي تصل الوتارة بالسماء، وهي تسرح شعرها وتغني.

ـ أنتِ هنا؟

ـ أنا أسرح شعري وأغنّي.

ـ أنهم يرفضون تأجيل المعركة.

ـ لا تقتل أحداً منهم.

ـ ولكنها معركة.

ـ لا تقتل أحد منهم.

ـ لن أقتل أحداً، لن أقتل أحداً إذا تابعت الغناء.

ـ سأتابع سأتابع قالت عفراء الحبال.

عندما بدأت المفاوضات بين السيوفي والملكة، أقرّت وفئرانها بأنّ السيوفي قد انتصر، وقد تم خلال المفاوضات الاتفاق على النقاط التالية بين الفريقين:

١ـ يلتزم الفريق الأول، الفئران وملكتهم بعدم القفز بين قدمي أية فتاة في غرفة المؤونة عندما تكون في وضعية الغناء وأزرار ثوبها من جهة الظهر محلولة ونهدها الصغير يلتمع بالضوء والخوف العظيم.

٢ـ يبذل الفئران وملكتهم جهداً كبيراً لقطع الحبال إذا وجدوا ولداً في عمر السيوفي مشبوحاً على شجرة ورأسه إلى الأسفل وقدماه غارقتان بالبكاء.

ـ يلتزم الفريق الثاني (السيوفي) بشرط واحد فقط، وهو:

١ـ عدم الانتباه إلى بكاء الأكياس وثقوبها، لأن ذلك سيفتح الباب لتوتير الأجواء والتحضير للحرب ثانية، وغرفة المؤونة لا تحتمل المزيد من الدماء. بعدها قام الطرفان بالتوقيع على الوثيقة، واعطى كل طرف نسخة عنها، بينما كانت عفراء الحبال تغني وتتابع تسريح شعرها في أقصى الحلم كأنها ليست عنصراً مؤثراً فيه.

* في تذكره الثاني للحلم، قفزت إلى ذهنه تفاصيل جديدة، رأى الأستاذ الديموقراطي وعينيه الجاحظتين، لمحه لمحاً، دون أن يتذكر الانتخابات، والصوت الوحيد الذي حصل عليه في هذه الانتخابات، هذا الصوت الذي رافقه طوال عمره، في المدرسة، وكلية الآداب، وحتى نهاية خطابه الطويل.

التعاويذ والحَلمات

* في مراهقتهِ ومكانس أمه ومسلتها المعدنية الطويلة، وبطن كفها المتلبد من شدِّ الخيوط، تابع السيوفي الدراسة، وتابعت أمه خياطة المكانس وفرد صدورها لتستجيب المكنسة لأصابعها وتنصاع، وبعد مدّة بدأت تحن لأصابعها صدور النساء، وبدأت تتقرب منها لتتلو عليها بعض القراءات وتمسح بكفها الخشنة وعينيها المتوقدتين، السطوح المزرقة للأثداء والحلمات المتورمة، فتتماثل صاحبة الثدي المتورم للشفاء.

* هكذا فعلت مع صدر امرأة خلال قيامها بمعالجة صدور المكانس فشفيت المرأة فجاءتها أخرى، فشفيت، ودخل بعد ذلك في روع نساء الحارة وبناتها أنها تشفي الثدي المكبوس والثدي الذي لا يأتيه الحليب، والذي سكنته الشياطين، وكثيراً ما كانت بعض الأثداء ينفر منها الحليب وهي تدهنها بزيت الزيتون وتمسح عليها بكفها وأصابعها، إلى الدرجة التي صارت فيها جميع فتيات الحارة

ونساؤها يأتين إليها لتفعل ذلك معهن.

بعد مدة من التمسيد والتلاوة والنفخ، نظرت حميدة الهلالي إلى أوضاع ولدها وأحزانه، وقررت أمراً صارت بعده تقول للمراجعات من نسوة الحارة وفتياتها إن الشفاء لا يحصل يفضل أصابعي، بل ببركة ولدي. وكانت تدخل في روع الفتيات الشابات منهن أن شفاءهن مستعصٍ على كفها، وأن على الراغبة منهن في الشفاء السريع أن تمنح صدرها لأصابع ولدها. وكانت الفتيات والزوجات الشابات، وبسبب من رغبة شديدة لديهن في الإسراع بالشفاء يوافقن على الشرط، ويستجبن لها بعد أن يأخذن منها تأكيداً بأنها لن تقول لأحد.

ـ نصف أثداء فتيات الحارة وزوجاتها لامسهن السيوفي الابن وخلصهن من وضعية التهدل والزرقة، وأوصلهن إلى الثوثب واللمعان، وشاهد النظرات الغامضة لصاحبات الأثداء، وقد تكدست في أعماقها مشاعر متناقضة من الجوع العنيد والخوف الذي ينهك ويبيد.

* بعد أن ازدادت حميدة الهلالي إحساساً بالمحنة، التي توهن ولدها، وبالأثداء الحزينة التي تنهك روحه وأصابعه، أحضرته إليها وأطلقت نحوه وصاياها.

* «يا ولدي، لتكن أصابعك ليِّنة، وروحك ليِّنة، ولتمسك الثدي وأنت تتذكر طفولتك، ولون الحليب، ولتنفخ من روحك على أصابعك وعلى الثدي الخائف حتى تردَّه، إلى طبيعته وحاجاته، إلى جوعه وفرحه، فلقد قتلت الألبسة الشوق والحنين.

ويا ولدي، وأنت تمسح بزيت الزيتون ظاهر الثدي وقمته، وأصوله، تذكّر فمك، وطور المناغاة، وقسوة الرجال الهاربين.

ويا ولدي، وأنت تفعل، سينهض الثدي إلى كفك، وسيصعد إلى عناقك، وسيحكي لك حكاياه.

ويا ولدي...» وتفصَّد العرق غزيراً من وجه الأم، ودخلت في الحشرجة والكلام العميق، فشعر السيوفي بالدهشة وشعر بالصوت، وأحسه، وحفظه، وبدأت تتلامع الذكريات الغابرة على رؤوس أصابعه، ذكريات من بقايا عفراء الحبال، وكومة صدرها الصلبة الغامضة، التي تستعصي على التهدل والأباطيل.

ويا ولدي، ودخلت الأم في الغيبوبة واللهاث وبدأت تتسرب منها مخاوفها الزرقاء التي استلتها من الحارة وحلمات النساء.

عند الثدي الأول والثاني والثالث والعاشر والعشرين توقف السيوفي الابن عن متابعة المهمة، بعد أن شعر بالوهن الشديد. كان في روعه أول الروع، أنه يستطيع جذب الثدي وصاحبته إلى خياراته بعد أن يبلل حلمة الثدي وأصابعه بالزيت، وكذلك كان الثدي يفعل، الصغير والكبير، المتهدل، والمشرئب، يمتد الثدي إلى أصابع السيوفي وتتسرب عبر الأصابع، المواجد والمجاعات وعواءات الوحدة، وزرقة المرض، وقلق الأوردة والشرايين، كل ذلك يتسرب إلى أصابع الولد وروحه، فينسيه حاجاته، ويدخله في الحشرجة، وتتلامع أطياف الزرقة الممرضة على تخوم عينيه، فيلهث ويتعرق حتى تتسرب السخونة إلى أذيال ثوب الفتاة القاعدة قبالته.

أما الفتاة أو المرأة التي يبادرها بأصابعه، فكانت تستجيب، تستجيب أكثر من اللازم، وتتفصد من عينيها نظرات جارحة، ترعش أصابعها، فتكاد أن تمتد إلى السيوفي لتلامسه، وعندما يعلن السيوفي نهاية المهمة والتعاويذ، تنهض المرأة أو الفتاة وهي أكثر فتوّة، تنهض وكأن الحياة ردّت إليها، ولا تلبث بعد أيام أن تنتابها رغبة عارمة بالمعاودة والحنين.

إحدى المراجعات دخلت مع أصابع السيوفي في حالة من التجاوب الواضح، كادت خلالها أن تمزق له قميصه، لذلك، إخلاصاً من السيوفي لعمله الجديد، نهض غاضباً وأعاد الثدي إلى صاحبته ثم أغلق عينه ورؤياه، فما كان من المرأة سوى أن دخلت في البكاء والاعتذار ووعدته تكفيراً عن خطاياها أن تحضر له قميصاً جديداً، مكتمل الأزرار.

ـ أما في الليل، في يقظة الجسد وسطوة الأحلام، من الذي يعين الفتى في محنته، أرتال من الأثداء يحاصره، ويلاحق أحلامه ورئتيه فترعشه المخاوف، ودونما زيت يعالج وجهه وجسده حتى يعيي نفسه أكثر مما أعيته الأحلام.

وفي يومه الثاني ينهض مستعيداً حلمه، مقرراً أن يرد عليه بحلم آخر، ينتهر فيه الأثداء جميعها، بنهد آخر، أمضّه الشوق إلى رؤياه، نهد ابنة الحبال، لذلك قرّر أن يترك هذا العمل، ليحرر نفسه وأصابعه.

ـ ويا ولدي، تقدمت إليه أمه ضارعة.

ويا ولدي.

من مثلك؟

من يستطيع؟

تقدم إلى الخطوة التالية.

ـ خطوة تالية...؟!... ثم نهض وركض دون أن ينتبه للجدار.

الكتابة الأولى (التعاويذ)

* أحست حميدة الهلالي، بأنّ أبنها كنزها، ولا يمكنها أن تفرط به، بعد أن كشفت خبايا عينيه، وسطوة أصابعه، ويا ولدي... لا تترك أصابعكٍ للنسيان فتذبل قوّتك، وتضيع كما ضاع أبوك.

ـ فلماذا لم تحضر ابنة الحبّال؟

ـ ستحضر، وإياك أن تشك بذلك.

ـ أنني لا أشك، أنني أكاد أموت.

ورغم أنه في اليفاعة، والمراهقة العتيدة، إلا أنه كان يستعصي على البكاء مثل رجل ناهض وكبير، غير أنه كان يريد الموت ويحس بانجذاب بطولي نحوه، وشفته تريده، وتنجذب إليه، غير أن روحه كانت تشهق من فرط الإعياء.

ـ ويا ولدي، لا تغادر أسرارك ومواقعك، واحرص على أثداء

النسوة عند أصابعك، فبها وخلالها ستجر أنوف الرجال.

ويا ولدي حاول الكتابة.

ـ الكتابة؟ أية كتابة؟

ـ كتابة الأسرار، والتمائم والتعاويذ، وتعلّم التلاوة على سطح الماء قريباً من غيظ القصدير، وانفجاراته، حتى تدمر الغيظ بالغيظ، والظلام بالكلام، واكتب، واكتب، واكتب.

ـ ولكنني لا أعرف الأسرار.

ـ أصابعك ستدلك، وستتحرك بالكتابة وحدها ووجدها ورعشة الحياة فيها، للنسوة التمسيد والتلاوة، وللرجال التمائم والتعاويذ، والوجه الجهم الغليظ.

ـ عندما جاءت خولة الأبرص تشكو زوجها إلى حميدة الهلالي وثديها مندلق خارج ثوبها، قالت حميدة الهلالي: سيكتب ابني لك حجاباً، فحدثيه عن زوجك.

فتحدثت عن زوجها، ووصفت رأسه ومفارقه وأفعاله.

ـ قالت حميدة الهلالي: لا تخافي، وأحضري لي شيئاً من آثاره، وبسرعة، وأمام عيني الولد وأمه، تعرّت المرأة وأرتهما آثار العضات والنطحات على ظهرها وبطنها، ثم قالت للولد وأمه: تلك هي آثاره، فخذوها.

ـ لا تخافي سيكون ما تريدين، ابني سيكتب حجاباً يلجم زوجك ويحوله وستسعدين كما لم تفعلي في حياتك.

ـ في هدأة الليل انفرد الابن بقلمه وجسده لكتابة الحجاب، وفكر بكلام يعينه على محنته ويمنعه من افتضاح أمره، وخيبة أمه فيه، أمه التي قالت له: «اكتب ما تريد»، لذلك حاول أن يكتب، لكنه كان يمزق الورقة ليبدأ من جديد. وفجأة وفي حالة من الانخطاف، بدأت كفه وأصابعه خارج إرادته تكتب الكلام العجيب، وبعد أن عاد إلى رشده نظر إلى الكلام الذي كتبه فكان: «يا صدر عفراء، ويا وجهها، ويا جزرة شعرها... تعالوا إلي».

وعندما نهض إلى أمه وأطلعها بغضب على ما كتب، صاحت في تردده:

ـ اكتب ما تريد، وما يعنيك ويلبي حاجتك وأيامك. وليكن هذا من بعض أسرارك، لا تهمس به لأحد، وعندما تنتهي من الكتابة، إطو الورقة طيات متعارضة، ثم لفِّحها بالقماش الغامض وبإبرتك وخيطك، أغلق الفتحات الظاهرة، وسيصير الكلام حجاباً، والحجاب سيحجب ويداري، ويحل ما انعقد ويعقد ما انحل.

في حالة النوم، وعندما هاجمت خولة الأبرص زوجها بالمقص، وقصت بعضاً من شعر رأسه وربطته بطرف الحجاب ووضعت الحجاب تحت المخدة، شهدت بأم عينها، زوجها وهو يتلوى في النوم كأنما يتعرض للذبح، فتركته على حاله مؤملة أن لا ينهض أبداً. ولكنه بعد زخة من الشخير والعرق الغزير، تلوّى برأسه وجسده ونهض من ساعته مثل رجل آخر، رجل وديع أليف لا تكاد تعرفه، جسده وصوته، وتقاطيعه وكل شيء فيه، بدأ يسترق ويلين، بعد أن كان خشناً جافياً، ومن هيئة ثور عنيد، تحول إلى

هيئة حمل وديع، وبدأت خولة الأبرص بعد أن عاينت التحول العجيب، تعدد فضائل الولد وفضائل أسراره، وصارت تهمس للنسوة عن الذي فعله الحجاب بزوجها. صحيح أنه كان قبل الحجاب أكثر فحولة، لكن جسدي بعد الحجاب استعاد لونه، وفي كل مرة كانت تنضو ألبستها عن جسدها مؤكدة: انظرن... لا توجد آثار عضات ونطحات عليه.

فلماذا إذاً عفراء الحبال، بدأت التقلص والتشنج وغزت حنجرتها الأحلام الغريبة، والتأوهات، هل حصل ذلك لأن أسمها وصدرها وردا في التعويذة التي كتبها السيوفي؟ وهل السر في الكاتب، أم السر في الكتابة؟

ـ عندما زفت حميدة الهلالي لولدها بشرى النجاح، لتحضّه على الكتابة أجابها بصوت أقلقها:

ومن الذي يكتب من أجلي؟

ـ اكتب لنفسك بنفسك، فما حك ظفرك مثل جلدك. وصمتت، فعرف المعنى، ولكنه توقف عن الكتابة، رغم طوابير النسوة اللواتي أتينه وأمه ليحدثنه عن الأصابع واللهاث.

ـ في أول عهده بالكتابة، بدأ بكتابة التعاويذ والأدعية، والتمائم.

ـ في أول عهده بالأحلام، واجه أحلامه الجائرة بأحلام من صنعه وانتصر عليها، والرجال الذين ذهبت زوجاتهم إلى السيوفي وأمه لكتابة التعاويذ، والحجب، دخلوا جميعاً في الليونة والانصياع، وأما الباقون الذين لم تجرؤ زوجاتهم على أن يكشفن على أجسادهن

لإظهار آثار الرجال المتيمين، فقد ازدادوا غضباً وعنفاً لأسباب كثيرة.

فاحتكار مادة الخبز من قبل بيت (الجلالي) لعب دوراً في رفع التوتر، وزيادة الغضب في العيون والبطون.

واحتكار مادة (الكاز) من قبل بيت (الفضلاوي) لعب دوراً ملحوظاً في اشتعال الحرائق في الصدور، وترك المواقد والمدافئ دون وقود، لذلك غامت العيون بالدخان، وشكل المنصاعون جماعة متعاونة، وشكل الغاضبون جماعة معارضة.

وقد لعبت حادثة مؤلمة دوراً مباشراً في تسعير النيران.

آل (الجلالي) تجار الحبال وأصحاب الفرن، كانوا على وفاق مع آل (الفضلاوي) تجار المكانس وأصحاب براميل (الكاز)، لأن كل طرف يحتاج إلى الطرف الثاني، وكل طرف يحتكر مواد لا يتدخل فيها الطرف الثاني، وكان الوئام يسود الحارة والناس، فما دامت الرؤوس متوافقة، قال أقطاب الأسرتين، فلا بد من أن تتوقف الأيدي والأرجل عن الحركات الزائدة، وقد بدأ يدخل في روع الكثيرين أن التعاويذ التي يكتبها السيوفي الابن صارت بشكل غير مباشر تلعب دوراً في توتير الأوضاع.

ويا حارة المغاير، ويا ساحتها المرصوفة بالحجارة، ويا أدراجها الحجرية الموصولة بالساحة، حيث يتمركز حول الساحة، الفضاولة، والجلاليون، وأبواب قناقاتهم وقصورهم وأقواسهم التي توحي بالعلاء والرفعة، ويعبرها جمل محمّل دون أن يضطر جَمّاله لأناخته.

ويا حارة المغاير، ويا قسطل الماء وسط الساحة، وقد وضعته الحكومات الوطنية لتجعل الناس يحسون بالفارق بين حكومة البلد وحكومة الاحتلال، كيف حدث الذي حدث، وكيف توقف السيوفي وأمه عاجزين عن منع الزلزال.

عاتكة

عندما قامت الوحدة بين مصر وسوريا، رحبت بها حارة المغاير من شرق الوتارة حتى غربها الموصول بحارة الكلاسة. وقد بالغ الفضاولة والجلاليون بالترحيب، بها وفعلوا العجائب وأظهروا للملأ وعلى أقواس الساحات عدد السجاجيد والطنافس العجمية التي يملكون، وقد اضطروا بسبب ذلك أن يقطعوا الكثير من أشجار التوت والفستق الحلبي لتزيين الأقواس، ومدَّ كل واحد من بيته إلى وسط الساحة حبالاً طويلة من لمبات الكهرباء البيضاء والملونة، وقدموا القهوة المرّة والنراجيل لزعماء الحارات المجاورة لإقناعهم بأن حارتهم (المغاير) رغم تطرّفها وابتعادها عن حارات الزعماء السياسيين، لها قادتها ورجالاتها الذين لا يقلّون أهمية عن الزعماء البارزين، وقد أدت الاحتفالات بالوحدة إلى زيادة تمتين الأواصر بين الأسرتين الكبيرتين، فاتفق أصحاب القرار فيهما على عقد عدد من الزيجات والخطوبات المتبادلة بين فتيات الجلاليين الوسيمات وشبان الفضاولة الذين يتمتعون بعيون شوص

وشفاه غليظة، وأذهان متوقدة.

وقد كان من نتيجة ذلك أن خُطبت عاتكة الجلالي إلى قيس الفضلاوي، الابن البكر لعامر الفضلاوي، عميد أسرة الفضاولة وكبيرها، وقد عمق ذلك من طمأنينة الأسرتين المتحالفتين، أسرة المكانس وأسرة الحبال.

أما عاتكة الجلالي الفتاة التي أُعلنت خطبتها لقيس الفضلاوي، فكانت أكثر جمالاً من أن تحتمل هذه الخطبة المفاجئة على قيس الفضلاوي الذي بلغ به شوص عينيه وتوقد ذهنه مبلغاً، جعله يخطئ أغلب الأحيان في تحديد باب بيته، فيندفع بحسن نيّة وقصد باقتحام البيوت المجاورة.

وفي اعتقاده وظنه أنه يدخل بيته، وقد أسهمت الأحداث في زيادة فرحه عندما أخذته أمه لمشاهدة خطيبته عاتكة الجلالي، التي عندما تفرّس في وجهها، استدار إلى أمه قائلاً: لا أريد أن أتزوج أربع فتيات دفعة واحدة.

وقد اضطرت والدته لأن تشرح له الأمر وتهمس في أذنه قائلة: أمامك فتاة واحدة، وفي ليلة الدخلة سأدخل معك لأدلك عليها.

لذلك كان ضرورياً أن تدخل عاتكة الجلالي في الحزن العميق أو تتوارى في الجدار حتى تحجب بريقها عن العالمين.

عاتكة الجلالي لؤلؤة أسرتها وبيتها، ورجال أسرتها رغم تميزهم بالصلع المبكر، إلا أن غالبيتهم يتميزون بالوسامة ودقة الأفواه والأنوف، واندهاش العيون واتساعها وزرقتها اللامعة.

وعاتكة الجلالي، جسد في نداوة الحليب، مشرب بحمرة حارقة، وعينين لاحدَّ لسماوتهما ورفعتهما، أما نهداها فيثقبان قلب المتغافل عنهما حتى يردياه فكيف بقلوب المنتبهين؟

ولأن الخُبزَ ضروري للحارة.. ولكل الحارات في الدنيا، لذلك حدث الذي حدث وغرقت عاتكة في الحزن الذي يقوِّض الحارات والحديد.

عاتكة الجلالي تحب رائحة الخبز الساخن، وحمزة الواقدي العامل المياوم في بلغة والدها، يذهب قبل جهجهة الضوء إلى فرن الجلالي الكبير والد عاتكة ليحضر الخبز الساخن إلى الأسرة.

* أهل الحارة الذين يتكوّمون أمام الفرن، يعرفون ويشاهدون حمزة وهو يدخل من الباب الجانبي للفرن ليختار أجود الخبز وأحسنه وأكثره نضجاً، ثم ليضعه على طبق القش ويأخذه مهرولاً إلى بيت الجلالي، ليسلمه ويعود إلى البلغة ليتابع العمل في صناعة الحبال مع بقية العمال.

عاتكة الجلالي تحب رائحة الخبز الساخن، لذلك تقف خلف الباب منتظرة قدوم حمزة الواقدي وعلى رأسه طبق الخبز الذي تنضح منه الرائحة العجيبة، ولأنها تحب الخبز، وتنتظره كل صباح لتشمه، فقد اضطرت إلى أن تنتبه إلى وجه حامله، إلى وجه حمزة الواقدي الذي كان يصل إلى عاتكة في الصباحات الباردة وقد احمرّ وجهه من السرعة، ولأن عاتكة لمحت وجهه المتورّد وأنفاسه الندية، فقد قاطعت لهاثه قائلة: وجهك يا حمزة يشبه رغيف خبز ساخن، وأنا أحب الخبز الساخن. من يومها ما عاد حمزة يتكلم بكلمة واحدة.

قبل أن تصف عاتكة وجهه هذا الوصف، كان يتحدث دائماً عن الطريق، عن ازدحام الناس أمام الفرن، وعن خبزه الذي يختاره، عن هرولته، وعدد الحُفَرِ التي قفز فوقها، عن عثراته، عن أغاني العمال في الوتارة في هدأة الليل وبريق الفوانيس، عن تجاوب العمال في البلغات المجاورة. فلماذا صمت مرة واحدة وهو يتأمل وجه عاتكة الجلالي لؤلؤة أسرتها وحارتها؟ ولماذا تابع صمته عندما طلبت منه أن يعود لسابق عهده في الكلام؟ حاولت مرات كثيرة أن تعيد الطمأنينة إلى قلبه ووجهه، وأن تستلم منه الطبق المملوء بالخبز، واضعة بطن كفيها على ظاهر كفيه في محاولة لإقصاء مخاوفه حتى يعاود الكلام والابتسام في حضرتها، ولكنها فشلت.

* حاولت أن تبقي كفيها في حالة احتضان لكفيه وهما تقبضان على أطراف الطبق، مدة أطول مما أعتاد، وأكثر مما يستطيع الاحتمال، فاستل كفيه من كفيها مرتعباً فوقع طبق الخبز على الأرض وتناثرت الأرغفة بين جسديهما، فانحنيا معاً للملمة الخبز ولملمة اللهاث، والنظرات، وعندما اقتربت الأرغفة من النهاية حاولت عاتكة الجلالي أن تتقصد الإمساك بالأرغفة التي يمسكها، وإيصالها كفاً بكف إلى الطبق القريب، والعين في العين والروح في الروح والبادئ أكثر هياماً وحباً.

لذلك كانت عاتكة الجلالي تحب الخبز الساخن وتزداد به هياماً، وتتمنى لو أنه يحضر إلى البيت مع الوجبات صبحاً وظهراً ومساءً، بوجهه المتورد ورائحته الطيبة وبسبب الخبز المتورد تورَّد وجه عاتكة، وكان ذلك سبباً في أن تلفت الأنظار إليها ويتقدم ابن الفضلاوي الأشوص لخطبتها.

لذلك دخلت عاتكة الجلالي في حزن مباغت.

توقفت بعده عن التهام الخبز ودخلت في النحولة، وهي تتابع طرقات حمزة الواقدي صبيحة كل يوم وهو يقدم لها طبق الخبز، فتزيح الطبق والخبز بنزق لتتساقط الأرغفة إلى الأرض ولتمسك عاتكة الجلالي حمزة الواقدي من صدره وتجره إلى صدرها لتدخل بعد ذلك في البكاء العظيم.

يا للحارة الهائلة، ابنة الجلالي، تبكي على صدر ابن الواقدي، صبي البلغة المكلف بإحضار الخبز، بالإضافة إلى مهمته في صناعة الخيوط: مدّها وجدلها وشدّها وترطيبها.

ابن عامر الفضلاوي، قيس الأشوص الذي تمت خطبته على عاتكة، يجلس يومياً إلى أمه طالباً منها أن تصف له عاتكة، والأم بارعة في الكلام والوصف، لذلك تبدأ بالفم والعينين والأنف والشعر اللامع، والجسد الذي تفقدته في حمام السوق فوجدته أنعم وأحلى من جسد (فطوم المغربية). صحيح هي عنيدة، لكن صوتها حلو، كأنها من بنات الأجانب، وابن الفضلاوي يسمع الكلام ويتنهد، وتطفر الدموع من عينيه وتسيل على وجهه تماماً كما تفعل العيون السليمة وأكثر، ويقاطع أمه مؤكداً بعد أن يأخذه الانفعال بعيداً.

ـ ما دامت عاتكة على هذا الحسن والجمال، فلماذا تريدون تزويجي من أربع فتيات؟

* لذلك كانت عاتكة الجلالي تنسى جسدها ونفسها بين يدي حمزة الواقدي وهو بين يديها والخبز مسفوح إلى الأرض، وقد فعلت ذلك مرات عديدة وطويلة، ورائحة الخبز تبارك عناقهما.

في أحد العناقات الطويلة خرجت الأم فجأة، فشاهدت أفعال بنتها

المخطوبة مع هذا المفعوص ابن الواقدي، فاستنكرت ذلك بسبب ذكريات قديمة برقت في رأسها.

تذكرت أم عاتكة أيام الشباب السالفة عندما كانت تنظر لوالد حمزة، رمضان الواقدي دون أن تشبع منه، وها هو ابنه حمزة الواقدي داخل في صدر ابنتها وداخلة فيه وكأنهما في ليلة القدر، وتحتهما يتصاعد لهب الخبز، المدور مثل وجوه تبارك عناقهما.

* تنحنحت الأم وسعلت فلم ينتبه إليها أحد، فاضطرت لتصرخ بغيظ: يا عاتكة، إلا أن أحداً لم يستجب للنداء، ماذا أصابكما؟ هل مِتُّما، مع صراخ الأم وأسئلتها خرج الأب منتبهاً، فتأمل ولم يصدق، وانتبه ثانية، وعندما لم يحفل بانتباهه أحد، قفز من وقته وساعته إلى المطبخ واستل أقرب شيء أمامه، وكان الشوبك(١)، وعاد إلى ساحة العناق وأهوى بالضربة الأولى على أول رأس أمامه وكان رأس ابنته، وثنّى على الرأس الذي يليه، وكان رأس حمزة الواقدي، فتهاوى الرأسان على الأرض فوق الخبز الدافئ ودخلا معاً في غيبوبة، ودخلت معهما الحارة في الفزع والانتباه.

حميدة الهلالي، وعندما وصلها خبر ابن الواقدي حمزة، هرعت إلى أمه لتستطلع الخبر.

* رمضان الواقدي، والد حمزة الغائب عن الوعي يفتح الراديو على إذاعة صوت العرب، التي تبث يومياً أجزاء من خُطَبِ الرئيس جمال عبد الناصر، ويقرِّب رأس ابنه الغائب عن الوعي من جهاز

---

(١) الشوبك: قطعة خشبية مدورة غليظة تستعمل لتحويل العجين إلى رقائق.

الراديو وهو يقول: خطابات جمال عبد الناصر ستعيد ابني إلى رُشده، ما دامت قد أفلحت في إعادة الأمة إلى رشدها. قيس الفضلاوي بعد أن وصلته أخبار الغيبوبة العميقة التي أصابت خطيبته عاتكة، صار ينظر للأمور نظرة ثاقبة، ثم يسأل أمه: هل يمكن أن تصيب الغيبوبة أربع فتيات دفعة واحدة.

أما على صعيد الحارة، فقد اجتمع الفضاولة، وحللوا الظاهرة، بعد أن نظروا إليها بعيونهم المتشاوصة، وأدركوا بعد المداولة والتدقيق أن ما قام به جلال الجلالي بحق ابنته عاتكة، ليس إلا محاولة من طرف بيت الجلالي للانفراد بالسلطة، والسيطرة على مقدرات الحارة، وقد تم اعتبار غيبوبة الفتاة أمراً مفتعلاً ومخططاً له.

لذلك قرّ قرارهم بضرورة الاستيلاء على الفرن الذي يمتلكه الجلاليون لتخليصهم من أعتى أسلحتهم، ثم الانقضاض على الوتارة وتدمير السندات والدواليب التي تجدل عليها الحارة الحبال، والبدء بمفاوضات جديدة لتحديد من هو الأقوى والأجدر بالسيطرة على الحارة وحكمها.

تم التوقيت للمعركة، وجلال الجلالي وأركان أسرته، يتأملون وجه ابنتهم عاتكة وجسدها المسجى أمامهم، والضوء يطفح منه، والدموع تهتز على أسفل ذقونهم ثم تتساقط على أكفهم المتشابكة في أحضانهم من فرط الأسى، وعندما ينتابهم الشك في ابنتهم، وهل دخلت برزخ الموت أم ما زالت معلقة ببرزخ الحياة، يقرّبون الخبز الساخن من أنفها فتهتز وتختلج وتتسارع أنفاسها فيداخلهم الاطمئنان بأنها ما زالت حية.

عندما تم تحديد ساعة المواجهة، انقسم الفضاولة إلى فريقين: فريق

يتسلل إلى الوتارة، وفريق يدهم الفرن قبل اختمار العجين وخروج الأرغفة من بيت النار، حتى يتم الدهم بعيداً عن الناس المتقاطرين لشراء الخبز، وفي سرية تامة، عندما تم الدهم كما رسم لها وقدر، فوجئ الفضاولة بالعجائب، فقد أفلح الجلاليون بالالتفاف عليهم ومحاصرتهم على جبهتي الحرب (الفرن، والوتارة) وخرجوا إليهم من السطوح والزواريب، وكل منهم في يده باكورة من خشب المحلَب، وفي اليد الثانية سكين قندرجية تلتمع حوافها من كثرة السن والسحج، وبصعوبة بالغة استطاع الفضاولة إحداث ثغرة في حصار الجلاليين المنيع وتسربوا منها، وهم يشحطون على الأرض ضحاياهم من طلائع الفضاولة المستغربين.

فلماذا حصل ما حصل يا حارة المكانس والحبال؟

الواقع أن شيئاً غامضاً لعب دوراً في تحويل نتائج المواجهة بين فريقي النزاع، وقد تمت معرفة هذا الشيء في ما بعد، وخاصة بعد أن رأى شهود عيان وقبل المعركة بساعات، قيس الفضلاوي خطيب عاتكة الجلالي وهو يتخبط في ليل الحارة ودروبها دون أن يعرف أحد السبب.

في الاجتماع الموسّع لبيت الفضاولة وأركانه، حضر الاجتماع قيس الأشوص خطيب عاتكة وتابع مجريات الاجتماع بقلب دام وعقل منتبه وأنصت عميقاً إلى خطابات المتطرفين الذين طالبوا بالانقضاض على بيوت الجلاليين وإفناء رؤوسهم الصلع عن آخرها.. وأخذ نسائهم عنوة... عند ذلك نهض قيس الفضلاوي وصرخ بصوته القوي الواضح قائلاً دون شوص أو زوغان:

ـ الذي سيهاجم البيوت والنساء نهايته على يدي، وحاول أن

يضرب أحد المتطرفين بقبضته فأصاب والده القاعد قربه وكاد الاجتماع أن يتحول إلى مجزرة، لولا تدخل العقلاء لثني الوالد عن ذبح ولده العاشق بسبب ما لحقه من إهانة وضرب أمام الحاضرين وهو كبيرهم. المهم في الأمر أن الاجتماع خرج بالخطة السالفة الذكر بعد أن تم اتفاق المعتدلين مع المتطرفين، وقيس الفضلاوي متكوِّم على حبه ونفسه، وقد أعياه وأنهك روحه الظلم الفادح الذي سيصيب أهل خطيبته بسبب إغراءات السلطة وسوء الفهم، لذلك نظر إلى الأمر بعين قلبه، فتشكلت في ذهنه الأفكار، وعلى أطراف عينيه الدموع، فنهض من وقته وساعته، قاصداً بيت الجلالي الكبير، والد عاتكة.

بعض الناس من العابرين شاهدوه يرتطم بالجدران، ويقع أمام الأبواب، وعندما تعبر حركة أقدام يسأل عن بيت الجلاليين حتى وصل وقد ملأت جبهته الكدمات، وعندما دخل، استقبله أهل الدار بارتياب وخاصةً أن الوقت تجاوز منتصف الليل، لكنه طلب باستعجال الاجتماع إلى عميد الجلاليين، وبعد أن انفردا في الغرفة القبلية، أخبره بفحوى الاجتماع وأهم مقرراته، وحذره من النتائج وطلب منه اتخاذ الإجراءات، وقد سُرّ الجلالي الكبير بما سمع ورفع كفيه متمنياً على الله أن يعيد اليقظة إلى روح ابنته وعيني خطيبها الأشوص.

ـ بعد أن خطبت ابنتكم يا عمي، أحسست بأنني صرت واحداً منكم، وما يصيبكم يصيبني، لذلك جئت، وقلت ما قلت مضحياً بأهلي وعائلتي.

في اليوم التالي على المعركة الخاسرة، أغلق الفضاولة الأبواب، ورفعوا الأعلام السود واستدعوا حلاّق الحارة ومطهِّرها ليضمد

الجراح ويمرهمها، ويطمئن النسوة المتجمهرات في صحن الدار عن مستقبل الأزواج والأبناء، وعندما فعل الحلاق ما فعل، خرج إلى النسوة وطمأنهن إلى أنه لا توجد إصابات قرب الحوالب والسُّرَر، وعلى ذلك بوسع المصابين أن يستمروا بإنجاب الأولاد، إلا أصحاب القلوب الضعيفة منهم، فمن شأن الخوف أن يؤثر فيهم ويحول دون أن تكون لهم في المستقبل ذرية.

بعد عمليات التضميد والتخييط والربط والتجبير، اجتمع الفضاولة، السليمون منهم والمصابون، وقرروا دراسة ما جرى وصار، وفي ذهن كل واحد منهم إحساس بأن الخيانة صدرت عن واحد منهم وأن الجلاليين ليس بوسعهم قراءة الغيب ومعرفة الأسرار. واستشاط المتطرفون غضباً وهم يطالبون بأقسى العقوبات بحق الخونة والمتآمرين، المعتدلون يطالبون بضبط الجلسة ووضع خطة لمعرفة الخائن وعدم إضاعة الوقت في الخطب والبيانات والتصريحات.

في آونة الاجتماع الغاضب لأركان الفضاولة، وهم يتحدثون عن أسباب هزيمتهم، ظهر بين ظهراني الحارة الشيخ علي البرادعي، وهو على ظهر حماره ودخل في النداء العميق: «يا حارة الحبال والمكانس، حفظاً على الوحدة الوطنية، ورغبة من جلال الجلالي كبير أسرة الجلاليين وعميدهم، في لم الشمل فقد قرر بعد أن يمن الله على ابنته عاتكة، بالصحو والفيقان، أن يزوجها من قيس الفضلاوي، ابن عامر الفضلاوي عميد أسرة الفضاولة، وذلك بسبب الأيادي البيضاء التي قدمها للجلاليين وعميدهم في المعركة الأخيرة».

عندما انتبه الفضاولة إلى البيان الذي أطلقه الشيخ علي البرادعي وهو على صهوة حماره الذي يقدم رجلاً ويؤخر أخرى بسبب

ضعفه وسوء فهمه، اعتبروه إعلاناً للحرب، وعندما انتبهوا أكثر، أحسوا بأن غريمهم الذي نقل أسرارهم قاعد بينهم، لذلك وبحركة مباغتة نهض عامر الفضلاوي إلى ولده قيس الفضلاوي صاحب الأيادي البيضاء على بيت الجلالي كما ورد في البيان، نهض وأمسك بأقرب (باكورة) مرمية أمامه، وانقض بها على رأس ولده الخائن حتى أدماه، وبعد خلجتين أو ثلاث انضم قيس الفضلاوي إلى قائمة العشاق ودخل في الغيبوبة التامة، لذلك تقاطرت النسوة إلى بيت حميدة الهلالي طالبين منها ومن ولدها التدخل لإنقاذ الحارة.

وكيف؟ تساءلت حميدة الهلالي باستغراب أمام حشود النسوة الدامعات.

اكتبي حجاباً للزعماء قالت إحدى النسوة، وحجاباً للغائبين عن الوعي، وطلبت منهن حجاباً للحكومة حتى يحنَّ قلبها وتسمح لولدها الهارب إلى لبنان بالعودة إلى الأهل والوطن، وقد استنكرت بعض النسوة هذا الطلب واعتبرنه طلباً شخصياً يمكن تأجيله، غير أن الواقع أثبت عكس ذلك، فقد تكاثر عدد المطالبات بحجاب للحكومة لأن عدد الأولاد الهاربين أكثر من عدد الأولاد الباقين الذين لم تدهمهم الغيبوبة، لذلك قفز هذا الطلب إلى المقدمة، وأصبح من الضرورات.

ـ سأطلب من ولدي، أجابتهم حميدة الهلالي، وعسى أن تكون النتائج خيراً، وقد قامت بعد اجتماعها بحشود النسوة بتسجيل أسماء طالبي الحجابات والأسباب الموجبة لكتابة كل حجاب، وانطلقت إلى ولدها لتستفتيه في أمر الحارة والناس.

ـ ويا أمي الحجبُ والتعاويذ لا تنفع في مثل هذه الأحوال.

ـ وهل نترك الحارة لحالها؟

ـ لست أدري.

ـ سأخوض التجربة وحدي، قالت الأم غاضبة.

ـ لا تفعلي ذلك، أجابها السيوفي راجياً.

بعد أيام من التأمل والسهر والكتابة، خرجت حميدة الهلالي إلى الحارة، وعلى كتفها قضيب طويل، تدلت من أمامه ومن خلفه الحجابات، وعلى إيقاعات اهتزاز جسدها على درب الحارة المبلّط بالحجارة غير المستوية، بدأت الحجابات بالاهتزاز والارتطام ببعضها، مما أضر بالتعاويذ المكتوبة داخلها، فتجاذبت وتقاطعت، وتسربت أسرار بعضها إلى بعضها الآخر، وتخربت حالات بعضها بسبب الاجتياحات المتبادلة للقوى الغامضة في ما بينها، فاضطربت البرامج، وتشتتت الدلالات وبدأ رأس حميدة الهلالي بالزوغان، ورجلاها بالتخبط، وقبل أن تتهاوى على الأرض أمسكت بالقضيب من وسطه وبدأت تبرمُهُ بين قبضتيها حتى تلاشت أطرافه من شدة الدوران ولم تعد تظهر لناظر ولا تبين لقاصد، ثم اطلقت القضيب فتطاير في سماوات الحارة، وهو يلقي على الأسطحة والشرفات وباحات الدور المندهشة الحجابات المصابة بالهذيان.

* وبسبب دوران القضيب وطيرانه دارت بها الأرض بقوة فانخطف جسدها وطارت وارتطم رأسها بجدار قريب، وقد أدى ارتطام رأسها إلى غيابها عن الوعي وانضمامها إلى بقية الأجساد المستلقية دون حركة أو نأمة، إلا من صدر يعلو ويخمد دون إشارة أو خفقان، وعبد العزيز السيوفي الذي كان حتى الساعة خارج

الحلبة، أصبح داخلها وهو يعاين جسد أمه المسجّى دون أن يعرف، أو يفهم طبائع الأشياء.

* صحيح أن خطابات جمال عبد الناصر قد ازدادت حماسة ووطنية آونة أحداث الحارة، وآونة استلقاء أجساد فتيانها المريب، غير أن الحماسة التي راهن عليها رمضان الواقدي لتكون سبباً من أسباب يقظة ولده حمزة المستلقي أمامه لم تنجده بشيء يوقف حزنه وأحزان الناس من حوله.

عندما استلقت الحجابات المشوشة على الأسطحة والشرفات والباحات مثل فئران صغيرة ميتة، دخل الناس في الانتباه، وبدأوا يتساءلون عن دور الحكومة في العمران، والحق، والتفت النابهون منهم لتنظيم تجمعات سياسية معارضة، أما المستغربون فقد انصرفوا للصلوات والأدعية وقد ازدادوا اعتقاداً بأن مصيبة الأجساد الساكنة تمّت بسبب فقر الحارة للأئمة والعلماء، والسيوفي الابن قاعد في البلاهة بين غيبوبة أمه، ومحنة الحارة وهو المدعو لأفعال لا يستطيعها، يحاول أن يدخل نفسه في التوهم أو النبوءة عساه يدخل في الغيبوبة أو يجد حلاً لها.

قبل أن يحصل ما حصل كانت أمه معه، تسارره وتنجده، وها هو وحده وحيداً ومريراً وقد أغلق ابتعاده عن صدر ابنة الحبال سجاياه.

* جلال الجلالي والد عاتكة، تحرك وحده للبحث عن خلاص بعد أن شاهد الأحجبة الجافة متناثرة في باحة داره مثل فئران ميتة، فأرسل الرسائل والرسل إلى أطراف المدينة والأشجار، حيث ينزوي الأئمة وأصحاب الأسرار، ليفتوه في أمره، وبعد انتظار تقدم له

الأئمة بعشرة حلول، مكتوبة على أوراق متناظرة، طواها ولمها بانتباه ومهابة، ثم أطلقها أمامه، وأرسل في طلب ابنته الصغيرة عائشة، وطلب منها أن تحمل ورقة من الأوراق، لكن الصغيرة خافت، فلم تفعل ولم تحمل وهرعت إلى حضن أمها باكية، فانتبهت الأم إلى الأمر وحملت ابنتها وهربت رغم صراخ الأب وتوعده، وقد قر الرأي على إحضار ولد عابر، والطلب إليه بعد إغرائه بالحلوى والنقود حتى يتغلب جوعه على خوفه، وقد كان الخيار من نصيب سالم الابن الأصغر لأم جنيد جارة حميدة الهلالي الذي كان متجهاً إلى دكان (الجوكاني) لشراء اللفت المخلل، وفي يمينه (فرنك) وفي يساره صحن عميق مطعوج القعر والحواف. بعد اختطاف الصغير ومقاطعة بكائه بالحلوى، والنقود، وإدخال الطمأنينة إلى نفسه وطفولته، طُلب منه أن يختار ورقة من أوراق الأئمة. وهو في وضعية التنهد وقبضته على عينيه ليداري دموعه، وفمه مملوء بقطع السكر، بعد عمليات شرح وتوضيح من الأب والأم ظلَّ الطفل لا يفهم بسبب انشغال ذهنه الشديد بتذوق الحلاوة التي ملأت فمه، فما كان من الأب إلا أن أمسك يد الطفل وقربها من الأوراق وقال له: أمسك واحدة، فأمسكها، فحملها الأب وأطلق سراح الصغير.

عند فض الورقة بحضور أركان العائلة، وبعد تلاوة سطورها، وفهم فحواها، تقرر أن تجهز باحة الدار لليلة الضرب بالأسياخ بعد أن تمت دعوة صاحب الورقة، إمامُ الطريقةِ الجنيديةْ وجماعته، ليساهم بإيقاظ عاتكة الجلالي، لؤلؤة بيتها وحارتها من الغيبوبة التي اختطفتها.

في الليلة المشهودة، حيث تجمّع الإمام والأتباع، وكشفوا صدورهم

وأذرعهم وبطونهم، واستلوا سيوفهم، وبدأوا يندهون ويتلون ويتلوَّون.

كان الرجال في الحارة في حالة المراقبة، وكانت النسوة على الأسطحة، وقد نسين من الدهشة أن يغطين وجوههن وصدورهن فاندلقت أثداؤهن مثل أشياء فرحة لامعة، وكان السيوفي بين الرجال يراقب الساحة والأسطحة وينتظر، وقد أمر إمام الطريقة بإحضار البنت المصابة المسجاة بجسدها، فتقدم الجسد المغطى إلى وسط الباحة، وقام الإمام بالكشف عن الوجه وإعلان تقاطيعه، فتشاهق الحضور وهم يصيحون «يا سبحان الله!»، وتسمّرت نظراتهم في الوجه العجيب، والملامح الباهرة، غير أن الأمام بدأ التلاوة، وتبعه المريدون وبدأوا بالالتفاف حول الجسد وعيونهم مسمّرة إلى وجه صاحبته الذي يضاهي وضاءة الأدعية، وألق النداء العميق، ويا عاتكة صاح الأمام، يا ابنة عبد الله وأمته، يا من في برزخين تعيشين، برزخ الحياة وبرزخ الموت، إننا ندعوك باسم الله وببركة الأجداد الذين ساروا على الطريقة فاجتلينا آثارهم، إننا ندعوك... وبدأ الجميع بالحركات الموحدة يندهون بأصوات غير مفهومة، يتحركون ويخبطون الأرض، والوجهُ العظيم لعاتكة الجلالي يطلق نوره وطبيعته، وأهل الطريقة مسترسلون في الاتصال بالأجداد لإدخال قوتهم وأرواحهم ووجدهم في الحالة، حتى يستنهضوا الجسد ويخرجوه من استغراقه وغيبوبته، ثم لمعت الأسياخ، ووضع الشيخ إصبعه على خاصرته فوضع الأتباع أصابعهم، وأشهر شيشه فأشهروا من ورائه، وغرس الشيش في لحم الخاصرة فغرسوا، ثم تدفق الدم والذهول من الجميع وعبد العزيز السيوفي ينظر ويعاين، والجميع يتابع ويستغرب طلاقة الوجه ومواطن الطعنات على جسد الشيخ والمريدين.

بعد انصراف الحشد لتضميد الجرحى، من أصحاب الطريقة، وقد دخلوا في الخوف والارتجاف، ودخلت جراحهم في التدفق والدم، قال الإمام ويده على الضمادة عند خاصرته، مخاطباً جلال الجلالي: لم تقل لي إن وجه ابنتكم بهذا الجمال.

ـ وما دخل الوجه، صاح الأب الملتاع.

ـ لقد انشغلنا بجمال الوجه، وانقطعنا عن التواصل مع الأجداد، فانقطعوا عنا وسالت الدماء، لعل غيري أجدر مني، فاحرصوا على تغطية الوجه في المرة القادمة، احرصوا كثيراً، ثم لملم نفسه وأتباعه ومضى.

ها هو ذا الأمام، يعترف بسلطة الوجه وسطوته، فكيف يمكن أن لا ينتبه السيوفي إلى الوجه العجيب وإيقاع ضربات النداهين والوجوه والأثداء المدلاة من الأسطحة مثل ثريات غامضة ولكنه آونة الدم لم يبق في ذاكرة السيوفي الابن سوى وجه عاتكة الجلالي وحده. وقد تشرب بحمرة لافحة، بتأثير لهب الخبز القديم، وحول الوجه ظلال، أفاضها الدم والرجال المريدون وقد تهاووا في صفرة المفاجأة. وجه عاتكة الجلالي وحده، وحده تسرب إلى وجدان السيوفي وأمسك به فتداخل في اللهاث، وبين غيبوبة أمه ووجه عاتكة، صار مطلوباً من السيوفي الابن أن يبذل الجهد والإرادة ليصل إلى حل، ولأنه غير مزوّدٍ إلا بمراهقته وتعويذته الحارقة الممتدة من أصابع يده إلى الحلمة اليسرى لنهد ابنة الحبال، ولأنه كذلك، وجد نفسه وحيداً دون معرفة ودون عزاء، فالتعاويذ التي ورد في متونها اسم ابنة الحبال عفراء ليس بوسعها أن تعين ابنة الجلالي عاتكة على الصحو والارتقاء.

ما دام لكل منهما.. بريق باهر وحلمتان فالتعاويذ التي يرد فيها ذكر للنساء، لا تعني النساء.

في الليل كان ينتظر قدوم الحلم لينجده، وفي الليل شاهد أمه تعاتبه لأنه تركها وحيدة، عند يديها بكى في الحلم، وقال: ليتك رأيت وجهها، لقد نفرت الدماء، وتدلت النهود، وبقي الوجه على حاله، ليتك رأيت وجهها. ويا أمي أنجديني، صاحت الأم، الشيء بنقيضه يداوى، عندما تتعطل الرؤوس، حاول بالأقدام.

عندما استفاق السيوفي واستعاد حلمه الغريب، خيل إليه أنه لم يفهم، لكنه توقف طويلاً عند كلمة حاول بالأقدام، فهل يبدأ بأمه ليضربها، ليجرب فيها حِكمتها، وكيف يمكن أن يضرب الابن أمه، كيف؟ حتى ولو كان الثمن أن يستردها من الغيبوبة التي عطلت أمومتها.

حاول أن يتجاهل الأمر ويتناساه، لكن الكلمة ترددت في رأسه: حاول بالأقدام، تستجب الرؤوس. لذلك بحث عن عصا، ورفع قدمي أمه إلى الأعلى وأهوى عليهما وظل يهوي حتى تحرك الدم، حاراً إلى الرأس، معيداً العروق والأوردة إلى طبيعتها وعملها، فتحرك الرأس والفم وقالت بإعياء شديد: يا عبد العزيز، يا عبد العزيز. ولكن الولد المنصرف إلى الضرب لم يسمع، في المرة الثانية شهقت الأم بالبكاء وهي تصيح: الله يغضب عليك يا عبد العزيز أفنيتني من الضرب. فانتبه للكلام وتوقف، وقبل أن ينتبه إلى يقظة أمه، وعودتها إلى الحياة تذكر عاتكة الجلالي، فركض إلى الباب والحارة، وقد ارتسمت في ذهنه يده وهي تقرع الباب الكبير لبيت الجلالي ثم ترتد إلى رأسه أصداء القرعات الهائلة كأنه قادم من القيامة، غير أنه، ويا للدهشة! وجد باب الجلاليين مفتوحاً له،

ومستجيباً لخطواته كأنما قرعته يده قبل أن يصل إليه، فلم يتمكن من لجم جسده عند حافة الباب فاندفع إلى الباحة حيث كان جسد عاتكة ودماء الشيخ والمريدين، وانتبه ولم يلمح شيئاً، عندما لمحته النسوة القاعدات في الغرفة القبلية، دخلن في الصراخ والولاويل وهن يصحن، حرامي حرامي، دون أن يتبينَّ هويته ومقاصده، فتقاطر عليه الرجال، وانسفحوا عليه لكماً وضرباً حتى تهاوى جسده في الغيبوبة والدماء، غير أنه لم يكن قادراً مثل غيره على المغامرة بيقظته والدخول في التماوت والصمت، فبدأ يئن ويتلوى قريباً من أقدام المداهمين، ثم فتح فمه الذي انسرب الدم من جوانبه وقال: أنا ابن حميدة الهلالي.

ـ فقال الرجال: تشرفنا، وزأروا ثانية: ماذا تريد يا ابن الحرام؟

ـ أريد أن، أريد أن، وأعيته التتمات فتكوم على نفسه وجراحاته، وتداخل في النشيج، فترفقت به القلوب وانتبه إليه الجلالي الكبير والمتوسط والصغير، وتحولت قبضاتهم عنه وتقدموا إليه وأعانوه على القيام، فتساند عليهم، ومشى إلى الركن القصيّ حيث يجتمع الأقطاب، وتهاوى على الأريكة الطويلة يلملم نفسه ولهاثه فأحضروا إليه الماء، وتبرّع أحدهم بمسح خيوط الدم المنسرب من أنفه وفمه، وانتبهوا إليه صامتين حتى داخلته الطمأنينة واليقظة فقال: لقد جئت من أجل ابنتكم عاتكة.

ـ وهل تعرفها؟ سأل الأب.

ـ أعرف مصابها، وقد لمحتها ليلة الضرب ودم المريدين.

ـ ماذا تريد منها؟

ـ أريد أن أشفيها.

ـ أنت؟ كيف تستطيع وقد عجز الأئمة؟

ـ اتركوني وسأحاول.

ـ هل سبق وعالجت حالة مماثلة؟

ـ نعم، حميدة الهلالي أمي.

ـ أمك حميدة الهلالي، سمعت أنها غائبة، مثل ابنتي.

ـ لقد عادت وعرفْتُ الدواء.

ـ أخبرني عنه، حتى أجربه.

ـ أنا الدواء. كان الكلام يخرج من فمه كأن غيرَهُ من يقول.

ـ أنت؟!

ـ وماذا ستفعل؟

ـ أحضروا البنت عارية لي.

ـ عارية؟! زأر الجميع.

ـ ماذا ستفعل؟ سأل الوالدُ المفجوع.

ـ سأضربها.

ـ الأئمة ضربوا وفشلوا.

ـ وإذا لم تُفلح؟

ـ افعلوا بيِ ما تشاؤون.

بعد التشاور مع النسوة، قرَّ الرأي على الانصياع، فعُرِّيَتْ عاتكة الجلالي من ألبستها، ومسح جسدها بالماء والزيوت المطيبة فازداد بريقاً وهولاً ثم غُطي بالملاءة البيضاء، وأدخل السيوفي إلى غرفتها

وقد أحاطت به النسوة، ووقف الرجال على الباب وأكفهم على الأسلحة.

اقتربت الأم من السيوفي الوجل وقالت: هل أكشف لك الغطاء، فقال: لا.

ـ ماذا تريدنا أن نفعل؟

ـ أحضروا عصا.

فتم إحضار عصاً قصيرة، أمسكها السيوفي وسأل: بهذه ضربت على رأسها؟

ـ أبوها ضربها بالشوبك.

ـ أحضروا لي الشوبك.

فأحضروه، فأمسكه وقال: ارفعوا لي قدميها، فتبرعت الأم ورفعت قدمي ابنتها، فرفع السيوفي الشوبك وضرب ضربته الأولى، وعندما حاول ثانية، تيبس في مكانه وهو في وضعية الضرب، لا حركة ولا نأمة.

عندما رفعت الأم قدمي ابنتها عاتكة الجلالي، انكشف الغطاء عن ساقيها، والسيوفي وهو في وضعية من يهم بالضرب، لمح الضوء الباهر، فتيبس من لحظته وعاد الدم للتدفق من فمه ومنخريه.

«ويا حارة المكانس والحبال، لماذا حدث ما حدث؟» ولماذا؟

جمدت الأم وجمدت النسوة، وتهاوت الساقان المرفوعتان إلى الأرض.

«رؤية وجهها عطلت إماماً، فما الذي تفعله ساقاها؟».

وازداد السيوفي تأملاً ويباساً، وزداد الرجال وراء الباب تململاً وانتظاراً، وعندما أمضهم الوقت زأروا واستلّوا مقابض أسلحتهم واستعدوا للمداهمة.

* فجأة انفرج الفم النائم، والساقان المسبلتان عن صيحة: أريد خبزاً، فانتبهت الأم، وانتبهت النسوة، وامتلأت الأرواح بالزغاريد، ونهض رأس عاتكة الجلالي، فتبعه الصدر وأعلى الجسد فانسدل الغطاء الباقي عن ذلك كله، فارتج السيوفي الابن، وانصرفت النسوة للزغاريد.

لكن عاتكة أعادت قولها: «أريد خبزاً»، فهرعت النسوة لإحضاره، وظل السيوفي وحيداً مع الجسد الفادح العجيب.

عندما عادت النسوة بالخبز والألبسة، خرج السيوفي إلى الباب، متهدلاً وحزيناً، وفي الطريق بدأ يستعيد ذكريات الجسد القريبة، ويقارن عفراء الحبال بعاتكة الجلالي، الصدر بالصدر والنهد بالنهد، حتى سقط على الأرض.

والد عاتكة وإخوتها لحقوا به ليباركهم، ويغفر لهم تطاولهم، فوجدوه على الأرض، فحملوه وأعادوه إلى بيته، وإلى ذراعي أمه وصحوها الذي لم تستكمله.

أما النسوة فقد أحضرن كل الخبز الذي في الطناجر، وكوموه أمام عاتكة، وظلت تعيد الكلام، أريد خبزاً، أريد خبزاً، حتى اضطرت النسوة للذهاب إلى الجيران للاستدانة.

وحدها الأم أحست بمحنة ابنتها، فأوقفتهم عن إحضار الخبز من كل أطراف الحارة، بعد أن عرفت خبز ابنتها الذي تريد، فصمتت وهي تداري دموعها عن الحشد، وقفزت إلى ذهنها صورة العناق العظيم بين ابنتها وحمزة الواقدي مباركين باللهب والأرغفة، لذلك ذهبت إلى زوجها الذي عاد، وأسرّت له بالأمر، فوجد الأب نفسه بين نارين، نار وعوده، ونار حب ابنته الحرام لحمزة الواقدي وأرغفة خبزه، ما دفعه للتفكير بسرعة للخلاص من هذه الحالة، وتقريب ذات البين بينه وبين أسرة الفضاولة الملتاعين بجراحاتهم وخططهم، وقرر العمل جهده للإسراع بتحقيق الزواج الذي قطعه على نفسه بين ابنته عاتكة، وقيس الفضلاوي الأشوص، الخطيب الشهم، الذي خان بسبب الحب أهله وانحاز لبيت محبوبته. والزواج يحل المشكلة، قال الجلالي لزوجته هامساً، فبعد أن تتعرف ابنتها إلى زوجها وتستلقي إليه ويستلقي إليها ويداعبها وتداعبه، ويتداخل اللحم باللحم ويتعالى لهب الشهقات، تنسى الفتاة الخبز ولهبه وصاحبه، وقد عادت زوجته إلى ذكرياتها، فوجدت كلام زوجها معقولاً، لذلك طالبته بالإسراع في تحقيق الخطة.

بعد هذه المصارحة، نهض الجلالي الكبير والد عاتكة، وأرسل الرسائل والرسل لمخاطبة عقيل الفضلاوي، كبير أسرة الفضاولة ووالد قيس الفضلاوي لوضعه في الصورة، دون أن يدرك الأبعاد السياسية والأخلاقية لهذا القرار، (فالفضاولة) وبعد غياب ابنهم عن الوعي، درسوا ظاهرته وتأملوا فعلته فوجدوه أقرب إلى الخونة منه إلى الأبناء، وعلى ذلك فقد قرّ قرارهم على إهماله والسماح لأمه وحدها بالاهتمام به بعد أن أُلقي به في مكان معتم بعيد، ومن ذلك ظهرت لامبالاتهم عندما وصلتهم أخبار من الجلاليين ورسائلهم عن ضرورة لم الشمل وإنقاذ الابن العميل، والتحضير

لزواجه من ابنة الجلالين عاتكة، التي صحت صحواً مبيناً، وقد لعبت هذه الدعوة، ـ خلافاً لقصد الجلالين ورغبتهم ـ دوراً في توتير العلاقات السياسية والاجتماعية في الحارة، فانقسمت الحارة، وظاهر الرجال الرجال، وظاهرت النساء النساء، وذرت الخلافات بقرنها، واستعر الصراع تحت الرماد، وظهرت مبادرة الجلالين بمثابتها محاولة لشق البقية الباقية من صفوف الفضاولة، وذلك بتكريم ابنهم الخائن.. قيس الفضلاوي وتزويجه من ابنتهم التي منحت قلبها وخبزها لحامل الخبز الضئيل.

ويا حارة الحبال والمكانس لماذا حدث ما حدث؟

وحمزة الواقدي، غارق في الغيبوبة بعيداً عن الخبر المسفوح ولهب العناق، ووالده رمضان الواقدي مصر على أن شفاء ولده لا يحققه ألا حدث سياسي ساخن، وخطبة حاسمة من الرئيس عبد الناصر، لذلك عندما وردته إشارات إلى قدرة عبد العزيز السيوفي، على إيقاظ ابنه من غيبوبته كما فعل مع عاتكة، سقط على قفاه من الدهشة والضحك وقال، بعد أن مسح أطراف عينيه: عندما تصير اليقظة لعبة يلعبها الأولاد، ما هو دور الزعماء العظام في إيقاظ الأمم الفاضلة والبشر الذاهلين؟

خلال ذلك تتالت الأيام، وتسارعت الأحداث، ودخلت الحارة من طرفها الغربي سبعة توابيت، في كل واحد منها جثمان لابن من أبناء الحارة سقط في ساحة الوغى.. فصرخ رمضان الواقدي وهو يعاين التوابيت: لقد جاء الحدث السياسي الرهيب، فمتى سيكون الخطاب الحاسم؟ وانتظر طويلاً حتى انتهت حرب حزيران بأيامها وأخبارها، وأعلنت إذاعة صوت العرب أن الرئيس عبد الناصر سيخطب في الأمة، فجلس رمضان الواقدي قرب الراديو منتظراً

الخطاب الفصل، وقام بتقريب جسد ولده من الراديو كثيراً حتى يكون ضمن مساحة تأثير الخطاب.

عند تقديم الرئيس وظهور صوته الساحر المتهدج الذي يعلن فيه تنحيه عن الحكم، وخسارة الأمة لحربها، انتبه إلى ابنه فوجده شديد الزرقة والغموض، مثل أرض محروقة، فَهزّه كثيراً، وقرب أذنه من فمه وقلبه، وفتح له عينيه فوجدهما معتمتين، لا ضوء ولا حركة، في تلك البرهة أحس بأن ابنه الوحيد حمزة الواقدي قد مات.

في هدأة الليل، تصاعدت النيران من فرن الجلاليين، وغطت الحارة رائحة العجين المحروق، ونام أهل الحارة دون كلام وعشاء.

ويا عاتكة الجلالي، لماذا حدث ما حدث؟

في هدأة الليل، وفي غمرة الغطيط الحزين لآل الجلالي الذين وصلوا إلى قرار بضرورة إعدام رمضان الواقدي الذي سبب، في اعتقادهم، إحراق الفرن انتقاماً لموت ولده حمزة في تلك الهدأة، وقد استسلمت الأجساد للإعياء والشخير، واستسلمت الأرض لحزيران الطويل وقد فقدت الأمة الأرض والزعيم، وفقدت الحارة أجمل أبنائها، حمزة الواقدي. في ليل الليل نهضت عاتكة الجلالي إلى الباب وخرجت منه وحيدة وحافية إلى دروب الحارة لا يستر جسدها وبريقه الجارح إلا ثوب هفهاف، وتقافزت على الدروب المرصوفة بالحجارة مثل غزالة فرحة، حتى وصلت إلى تخوم الكروم والأشجار، آونة ظهور القمر وشقشقة الفستق الحلبي الحزين، وبين الأشجار، انتبهت إلى القمر فوجدته بهياً ومحمرّاً مثل رغيف ففتحت ذراعيها على طلاقتهما، وركضت إلى رغيفها العظيم

وظلت راكضة حتى طلع صباح اليوم التالي.

ـ أم حمزة الواقدي، قمر الزمان، القاعدة قرب قبر ولدها حمزة وقد رفضت مبارحته، لمحت عاتكة الجلالي وهي ترف قربها متجهة صوب الأشجار، فأمسكت قبضة من التراب الطري، وألقتها نحوها.

ـ أم قيس الفضلاوي الأشوص التي كانت تقضي الليالي بطولها قرب جسد ولدها تطعمه وتسقيه وتسرُّ إليه بالأخبار وتطلب منه أن يرفع يده أن كان يفهم أو يسمع. وبعد ليال من اختفاء عاتكة الجلالي واحتراق الفرن، وموت حمزة الواقدي، حكت لولدها حكاية الحارة والتوابيت، وما جرى وصار للناس، وهزته حتى يفهم أكثر وينتبه، وانتبهت إلى وجهه، فلمحت الماء يملأ أطراف عينيه، ثم انتبهت أكثر عندما حرّك ذراعيه معاً، ونهض بجسده دفعة واحدة، فغرقت بالدهشة والمتابعة، ونهضت إليه وتأملت عينيه فوجدتهما وقد عادتا سليمتين، لا شوص ولا حول ولا انحراف، وقد ازدادتا صفاءً، فعانقته فرحة، لكن ولدها دفعها عنه باستعلاء وجفاوة، وقال إن عصراً جديداً قد بدأ، وليس بوسع أحد في الحارة والناس، أن يلوي ذراعه، ثم صرخ فيها صوتاً أيبس أمومتها. عندما فعل ما فعل، أحست الأم بأن الحول والأنشواص الذي غادر عيني ولدها قد أصاب عقله، وأنها لو لم يكن الجسد جسده، لما عرفته، ثم تركته وذهبت إلى وحدتها حزينة متهافتة.

أم عبد العزيز السيوفي حميدة الهلالي، نهضت إلى المكانس وأحضرت قلادة منها، وعادت إلى البيت لمتابعة العمل بعد أن قرّ قرارها على ذلك، أما عبد العزيز السيوفي الابن فقد نهض إلى الكتب والدرس، وأقسم بينه وبين نفسه إنه سيمكّن نفسه من

الكتب، ولن يعود أبداً للكتابة، وقد قصد بذلك كتابة التمائم والتعاويذ والحجابات. قال ذلك، بعد أن شعر الجميع بأن عصراً جديداً بدأ، وأن المكانس والحبال أصبحت أكثر قدرة على كنس الغبار والأحلام من أول الحارة حتى بيت الجلالي الكبير.

* الجلاليون، وبعد هرب ابنتهم عاتكة الجلالي، لؤلؤة بيتها وأسرتها، أخذوا يذبلون من الحزن وينزوون في الظلال، وبخاصة الجلالي الكبير والد عاتكة الذي رأى في هربها كارثة تصيبه وتصيب مشاريعه الوحدوية التي أخذ على نفسه قراراً بالعمل على تحقيقها مع الفضاولة المتشاوصين، لذلك بدأت هيبة الجلاليين تتردى في الحارة، وبدأ اليباس يغزو مفاصلهم، ورؤوسهم الصلع، وتحولت الزرقة التي تزنر حلقات مآقيهم إلى الرماد.

ـ حارة بدون عاتكة الجلالي، وخبزها الذي تحب، أي لون لها؟ وكيف لها أن تكون؟

لذلك وفي غياب عاتكة، عادت الرؤوس تستدير ثانية جهة عفراء الحبال التي تبوأ صدرها الصغير وعقدة شعرها السميكة مكاناً في قبضة السيوفي في أحد الأيام.

* لم يكن مصادفة أن يجتمع الثلاثة في مدرسة واحدة وصف واحد، عبد العزيز السيوفي، ومحمد المغربي، وقيس الفضلاوي، فلقد كانوا في عمر واحد، وأبناء حارة واحدة، والذي يجمعهم بالإضافة إلى الصف الواحد، أنهم جميعاً ينتبهون لعفراء الحبال، وهي في وضعية الدخول والخروج، من البيت والمدرسة، رغم تباين طبائعهم واستجاباتهم واختلاف نقاط التوتر والحنين في دواخلهم.

محمد المغربي، كان يحب عفراء على طريقته، يحبها صامتاً ويتأملها صامتاً، تقترب منه فيبتعد، وتبتعد عنه فيقترب، وفي رأسه ذكريات مراهقتها وجلوسها أمامه في كُتّاب حميدة الهلالي، حيث كان يراقبها كما يراقب اللص كنزاً مقدساً، دون أن تتوافر له الإرادة على قول كلمة شافية أو القيام بفعل رجيم، كما فعل السيوفي عندما اقتاد عفراءه إلى غرفة المؤونة حيث امتلأ العالم بالفئران والغناء العظيم.

* أفعال السيوفي أفزعت محمد المغربي أول الأمر، ولكنه عوضاً عن البحث عن طرائق عديدة من الحقد والانتقام لمواجهة خصمه السيوفي، فقد وقع على لون من ألوان الغفران يستجيب لنوازعه وطبيعته، وصار المغربي يستثمر وحدته بأشياء نافعة تخرجه من حرج طبيعته لتدخله في الطمأنينة والعزاء، من نظراته الخائفة نحو وجهها وجسدها، ومشيتها أعطى المغربي لنفسه الحق بتشكيل عفراء وجسدها، نقاط الضمور والبروز فيها، من مفارق الشعر وحتى مفارق اللمعان والحنين. وأخذ يدفن رأسه في كفيه ويغلق عينيه لتنتابه الأخيلة التي تعيد الخلق والتأويل.

قيس الفضلاوي، وبعد أن نهض بين ذراعي أمه مكتملاً، وقد غادره الشوص، وعادت عيناه إلى محجريهما، نهض وكأنه مسح عن نفسه وروحه تاريخاً برمته، فصار شديد الاعتداد بالنفس، يطلق الكلام الصارم والأحكام، ويتعالى على من حوله كأنه خلق للأمور العظيمة وحده، وعلى المحيط الذي حوله أن ينصاع له ولإرادته، كأنما عاتكة الجلالي لم تدمع له يوماً عينيه، وكأنها لم تكن من أسباب خيانته وغيبوبته. لذلك عندما ارتد إلى الدراسة، والمدرسة والأقران، بدت له نفسه أكبر من الصداقة والأصدقاء،

فظل وحيداً، تشغله تحديات وأوهام، يواجه بها الحارة والمدرسة والناس.

غير أن الذي أسهم في تحويل مسيرته، رغبته في التحدي، فلقد انتبه مثله مثل غيره من أولاد الحارة إلى عفراء الحبال، وشعر بأن السيوفي والمغربي يتابعانها باهتمام، في الذهاب والعودة، فقرر أن ينتبه لعاتكة التي شعر بأنه وحده الجدير بها، وقد أثبت لنفسه وخصومه أنه بحجم التحدي.

لعفراء الحبال أخت أكبر منها بعامين أسمها وحيدة، وهذه الأخت أكثر جمالاً واكتمالاً من أختها عفراء، غير أن جريرتها أنها لم تدرس ولم تغادر البيت أبداً ورغم جمالها، إلا أن الحارة لم تنتبه إليها ولم يكلف أحد من شبانها نفسه وأمه ليطرق الباب ويتقدم لخطبتها، وكانت تكبر أمام عيني نفسها وأمها وأختها وحيدةً وحيدةْ. لذلك، ومن وقع الأخوة التي تربطها بأختها عفراء، كانت تطلب منها وتلح عليها لتحدثها عن العالم الواسع، عن الحارة والناس والمدرسة والأولاد.

كانت وحيدة، حين تقعد مع أمها في الصباح وتتناولان الفطور، وتمدان أيديهما معاً إلى الخبز، وتمدان الخبز معاً إلى الزيت والزعتر، وترفعان معاً الزيت والزعتر إلى الفم، ومعاً تلوكان اللقمة، ومعاً تبلعان وتغصان بالطعام، وكانت وحيدة تنتبه إلى حركاتها التي تتطابق مع حركات أمها، وتقول والدموع تسيل إلى ذقنها وهي تتحرك لازدراد الطعام:

ـ يا أمي، إننا نزداد تشابهاً واتحاداً كأنك لم تنجبيني، ثم تنهض إلى الحائط منفعلة وتظل تضربه بقبضتها حتى يتهدل نهداها من

جفاف الزعتر وقلة الزيت والرجال.

* عفراء الحبال، كانت تُسِرُّ إلى أختها وحيدة بكلِّ صغيرة وكبيرة، في ما يخص أنوثتها، لذلك عندما حدثت أختها عن محمد المغربي، وانتباها إليه في كُتّاب حميدة الهلالي، فإن أختها وحيدة أحبته، وعندما تكلمت لها عن السيوفي وأفعاله في غرفة المؤونة، فإن وحيدة أحبته أكثر، وعندما استفاضت لها في الحديث عن قيس الفضلاوي وجرأته، فقد أحبت وحيدة الثالث أيضاً، وبدأت ترسم في ذهنها لكل واحد منهم صورة تخصها مستعينة بها في ليال،ي الوحدة، على وحدتها.

المعركة

في فترة ذبول الجلاليين وخبلهم بسبب غياب عاتكة، طرأت في رأس الجلالي الكبير فكرة لا تتناسب ومقامات الأسر الكبيرة، فقرّر أن يفتح مستودع الطحين ـ الذي يخصه والذي يزود منه الفرن ـ لأهل الحارة، متبرعاً بجميع الأكياس، التي يغص بها المستودع. لذلك تقاطر أهل الحارة على الأكياس وحملوها وهم يلهثون من وطأة الثقل والدهشة والفرح، ويدعون الله أن يرد للرجلِ عقله وابنته بعد أن وقر في أذهان بعضهم أن الجنون، لا الرغبة في عمل الخير، وراء عملية توزيع الطحين، مستبعدين أن تكون ابنة عجيبة مثل عاتكة سبباً في زلزلة الأرض والضمائر واضطراب الأرواح والعالمين.

في فترة ذبول الجلاليين وخبالهم، سطع نجم قيس الفضلاوي الأشوص، ابن الأسرة الموازية، وأصبحت كلمته في اجتماع أسرته، وفي تفرقها لا تردّ، وقد تداول الناس أحاديث عديدة، عن اسم

كبير الحارة القادم الذي سيقود الحارة ويوحدها، ويلغي سلطة الأسرتين المتعارضتين لمصلحة أسرته، ويلغي سلطة أسرته، لمصلحة نفسه. وقد أعد لنفسه العدة رغم يفاعته، ليتوحد في نفسه وتتوحد الحارة فيه، لذلك جمع حوله عشرة شبان متشاوصين من أسرة الفضاولة ـ بعد أن قام الجلالي الكبير بتوزيع الطحين ـ وانقض بهم على الفرن واستولى عليه، وتحول الجلاليون من مالكين للفرن إلى شغيلة فيه.

غير أن تحولاً أصاب مسيرة قيس الأشوص، وأعاد عينيه السليمتين إلى الشوص المقيم حين خاض معركته الفاصلة دفاعاً عن عفراء الحبال.

* بين مدرسة معاوية، التي كانت فيها عفراء الحبال طالبة في الصف العاشر، وحارة المغاير، لا بد من المرور بحارة الكلاسة التي تشكل صلة وصل ضرورية ومنطقة عبور لازمة للذاهبين والعائدين من أولاد ونساء حارة المغاير ورجالاتها. وبما أن عفراء الحبال منهم فقد التزمت بالعبور في هذا الحي الذي يكنُّ أولاده ورجاله عداوات غامضة لحارة المغاير وأهلها. ولأن عفراء الحبال فتاة جميلة، ومرور الفتاة يحرك الشؤون والشجون، فقد تحركت مشاعر أحد أولاد حارة الكلاسة، نحو ابنة حارة المغاير، فسوّلت له نفسه ما سوّلت، وانقض على الفتاة في عناق مباغت، انخطفت له الفتاة وصارت بين ذراعي المداهم الغريب، والفتاة عندما تتعرض لهجوم من هذا النوع، تفقد القدرة كلياً وتتماوت بين ذراعي الخصم، ويغط على قلبها، وتعجز حتى عن الصراخ، ردود أفعال العشاق الثلاثة تباينت وهم يرون عفراء فتاة أحلامهم وقد حصل معها ما حصل.

* المفاجأة عقدت لسان محمد المغربي، وأيبسته في أرضه. السيوفي كان يسير وحده، وعندما لمح ما لمح، ألقى بالكتب على الأرض، وركض ليفك الارتباط بين طرفي العناق المفاجئ الغريب.

قيس الفضلاوي، أحس بالحركة الغريبة والركض الغريب، فركض ليتبين الأمر، وعندما وصل، كان السيوفي يحاول انتزاع ابنة الحارة الغالية، وعندما أفلح، تهاوت عفراء على الأرض، فانشغل السيوفي بجسدها وضفيرة شعرها وصدرها، في محاولة لإيقاظها. في هذه البرهة انقض الفضلاوي على الفاعل، وانهال عليه بالضرب حتى أوقعه أرضاً.

أولاد حارة الكلاسة الذين شاهدوا ابن حارتهم وهو يتعرض للضرب والإذلال، انقضوا على قيس الفضلاوي وبدأوا يلوكون جسده بقبضاتهم ورفساتهم، حتى تكوم على نفسه وجراحاته مثل جثة ثم هربوا شامتين.

خلال ذلك تقدم محمد المغربي بعد أن ارتد إليه رشده وغادرته دهشته. تقدم إلى جسد قيس الفضلاوي في محاولة لاستنهاضه وإخراجه من غيبوبته، ولكن الفضلاوي نهض معتمداً على نفسه، بعد أن رفض أن يستند إلى كتف المغربي، الذي أحس بنفسه وحيداً لا ينتمي إلى أحد، وعندما سار الثلاثة صامتين قرب عفراء الحبال، تخلّف محمد المغربي عن الجماعة، وبدأ يجر نفسه وجسده جراً، وقد غمره إحساس حاد بالوحدة والبرد، كأن جراح الهزيمة التي أصابته أكثر إيلاماً من جراح رفيقيه الشجاعين. وفي المقدمة سارت عفراء، بوجهها الذي رطبته الدموع، مثل ملكة، وقد حاولت عفراء رغم ارتباكها واضطراب صدرها الذي لامس في غفلة منه أصابع السيوفي وهو يحاول إيقاظها، أن تتذكر ما جرى...

* وعفراء رغم وحدتها وغبار الأرض والطريق الذي لون ثيابها وجسدها، لم تكن تحس بالغضب نحو أحد، امتنان غامض أحست به نحو الفتى الغريب الذي هاجم جسدها بالعناق المباغت.

* وامتنان كبير أحسته نحو جسدها الذي لم يحظ في أي وقت بما حظي به الآن من أهمية وحفاوة. كذلك داخلتها حفاوة بالدور الشجاع الذي قام به قيس الفضلاوي، وفي الوقت ذاته انتابها تساؤل حزين نحو محمد المغربي الذي لم يفعل من أجلها شيئاً، ورغم ذلك تذكرت حزنه ومخاوفه أيام النظرات الخجولة، وتذكرت وجهه المتورد وعينيه الضائعتين، فأحست نحوه بالمغفرة والحنين.

بعد أيام، وعندما صحا قيس الفضلاوي من آلامه وكدماته، وركلات أولاد حارة الكلاسة، دعا عصابة العشرة من أولاد الفضاولة، وأخبرهم بخطة الثأر التي انتوى أن يقوم بها ضد أولاد حارة الكلاسة الأنجاس. وفي الاجتماع وضعت خطة سرية للرد، وتقرر أن يقوم قيس الفضلاوي وميليشياته المتشاوصة بحملات منظمة لرجم أبواب حارة الكلاسة وبيوتها بالحجارة، ثم العودة متسللين إلى دورهم دون أن يلمحهم أو يحس بهم أحد، وقد فعل ذلك في خمس ليال متواليات، تمكن خلالها أن ينهب النوم من عيون الكبار والصغار في حارة الكلاسة المجاورة، دون أن يمكن أحداً منهم من معرفة أسباب الهجوم وجهته وطبيعته، حتى أدخل في روع أهالي حارة الكلاسة أن جيشاً من الجن يرصد الحارة، ويحاول الانتقام منها لأفعال اقترفها رجالها.

* بعد خمسة أيام من اليقظة الدائمة والإعياء المقيم، نهض

الموسورون من أهالي حارة الكلاسة لنذر النذور وذبح الأضاحي، تكفيراً عن ذنوب أحس بعضهم بأن الذي حصل بسبب اقترافها، أما رجالات الأسر الكبرى في حارة الكلاسة، ممثلين برجال أسرة القباني والبسوت والصهريج، فقد وجدوا الفرصة ملائمة للانقضاض على بيت عبد الجليل فانوس الذي اغتصب السلطة في الحارة اغتصاباً. لذلك وضعوا خطة لمحاصرة بيته واقتحامه والقبض على زعيم الحارة وغريم الكثيرين منهم، فأخرجوه من بيته (بجلابية النوم البيضاء) وبدأوا محاكمته في الساحة وغبش النعاس والمفاجأة يحاصر حواف عينيه.

خلال فترة المحاكمة، في ساحة الحارة، وقرب جامع جمال عبد الناصر، تقدمت طلائع أبناء حارة المغاير بقيادة قيس الفضلاوي، وفي أكفهم الحجارة وفي عيونهم الغضب، وعندما وجدوا الحشود، أحسوا معاً بأن فرصة الانتقام الجماعي قد حانت، فتقدموا وأنصتوا، ثم تراجعوا بحركات موحدة واستعدوا، وبدأوا يمطرون الحشد بالحجارة.

كان الحشد الغاضب في وضعية انتزاع السلطة من عبد الجليل فانوس الذي فعل بحارته ما فعل ونكل بالرجال والنساء، وكان في قصد الجميع تنصيب زكريا القباني زعيماً جديداً بدلاً منه، والقباني رجل آيل للسقوط، بينه وبين القبر عدة شهقات، وقد قرّ القرار بإعطائه السلطة بعد أن أحس الجميع بتهافته وضعفه، وعلى ذلك بوسع الحارة أن تستعيد من خلاله أنفاسها وسطوة أسرها الكبرى، التي حال عبد الجليل فانوس بينها وبين السيادة.

غير أن الحشد وهم في وضعية المحاكمة واتخاذ القرار، أحسوا

بالحجارة تقتحم ظهورهم، فخرّوا إلى الأرض سجّداً وقد وقر في أذهانهم أن قصاصاً من الله قد نزل، لكن بعض الأولاد انتبهوا إلى الحجارة وجهتها، فصاح أحدهم: أولاد غرباء يضربون. بعد تكرار الصيحة ثلاث مرات، نهض رجالات حي الكلاسة، إلى الأسلحة والحجارة، وتحولوا إلى مطاردة الخصوم، وعبد الجليل فانوس أمامهم، وقد وضع أطراف (الجلابية) بين أسنانه وتقدم الصفوف كما يفعل القادة الشجعان.

بعد أن وصل المهاجمون من جماهير حارة الكلاسة إلى تخوم حارة المغاير وعرفوا هوية خصومهم، والجهة التي ينتمون إليها، استرخت فكوكهم من الدهشة، وتساقطت أطراف (جلابياتهم) على بقايا سيقانهم المكشوفة، واستعادوا أنفسهم بعد أن برد لهاثهم وعادوا إلى حارتهم مستغربين، وقبل أن يتفرقوا إلى البيوت، قرّ قرارهم على مهاجمة حارة الخصوم في ليلة قادمة. كما اتفقوا على أن يغضوا النظر عن ترشيح زعيم جديد للحارة، لأن حارتهم في حالة حرب، وقرّ قرارهم على التجديد لعبد الجليل فانوس خمس سنوات، وربطوا هذا التجديد بتحقيق انتصار كاسح على حارة الخصوم المجاورة، وأبنائها (البناديق) وقد تصدى لقيادة هذا التحول وتبريره، عدد من الخطباء البارزين.

ويا حارة المكانس والحبال، لماذا حصل ما حصل.؟

بعد أيام تسربت أخبار معارك الحجارة التي شنها قيس الفضلاوي والميليشيات التابعة له، إلى بيوت الحارة، إلى الجلاليين الذاهلين، والفضاولة المنتبهين، فتلفت الجلالي الكبير والد عاتكة وأخرج نفسه لبرهة من ذهوله، وتذكر أيام ابنته الهاربة عاتكة الخير والجلال، المحبة لخبز الله ودينه فتهاطلت على خديه دمعتان لامعتان وركضتا

على وجهه مثل ابنتين هاربتين، وقال لمن حوله من الذاهلين عن أرواحهم وأولادهم ومعتقداتهم: ستأتيكم أيام، لم يقيض الله لعاد وثمود مثلها، وسيهرب منكم أولاد، لم تشاهد زوجة العزيز أجمل منهم، وستبحثون عن البصل والثوم والسكاكين، ولن تروا غير الدم والوشايات، ولن تنجدكم الأحلام، وستخلط البقرات السمان بالعجاف، ولن يخلصكم أي مستودع للطحين. ثم صاح بصوته الأبوي العميق: أين أنتِ يا عاتكة؟ وشهق شهقتين وغاب.

كبير الفضاولة عندما وصلته الأخبار، نهض من وقته وليلته إلى ابنه قيس الفضلاوي، فاستدار إليه الولد، بعينين أكثر ما تكونان تشاوصاً واستغراباً، فقعد الوالد إلى ابنه وقبّله، ومرر كفه على شعره الجعد وقال له: يا ولدي، وبعد الذي فعلته بالحارة والحارات المجاورة نفسي تحدثني أن أذبحك، فماذا ترى؟

قال قيس الفضلاوي لوالده: لو كان ذبحي يوقف الدم لما أبيت، غير أني أرى، وعندما يكون قيس الفضلاوي في وضعية التشاوص الحاد، فإن كلمة (إني أرى) تستحوذ على انتباه عميق من الوالد ويشعر بأن ابنه أكثر ما يكون عليه من الصدق والبصيرة والرؤية.

ـ فماذا ترى؟ أعاد الأب السؤال.

ـ أرى أن تحقن الدم.

ـ تريدنا أن نستسلم، أجاب الأب مستغرباً.

ـ بل أريد أن نهجم، وقد كلفه ذلك أن يشرح لأبيه ويفيض، ليقنع والده بخطته، وكيف أن الهجوم يوفر الدم ولا يتلفه.

ـ وماذا أيضاً؟ تساءل الأب.

ـ نعيد الفرن للجلاليين.

عند ذلك أحس الأب بأن ابنه قد دخل برزخ الحب من بابه الواسع، وليس الانشواص الذي يعتريه إلا برهان على ذلك.

ـ وماذا أيضاً؟

ـ نسمر الأبواب ونجدل المقاليع، ونهجم.

ـ وماذا أيضاً؟

ـ اذبحني أو أتركني لأنام.

* عندما قعدت عفراء الحبال إلى نفسها وجسدها وفكرت في ما سيصيب الحارتين بسببها، وضعت كفيها على نهديها وقالت: أعطي نهداً لكل حارة إذا كان هذا يحقن الدماء، وعندما صارحت أختها وحيدة بالمخاوف التي أصابت نهديها، قالت لها أختها: المخاوف ذاتها تعتريني، لكنّ حديثك عن قيس الأشوص، وما فعله مع الولد الذي هاجمك، جعله يكبر في عيني وبين ذراعي، غير أنني عاجزة عن تقدير الخسائر، حتى يأذن الله ويهاجمني ولد مثله، عند ذلك سأبكي على عنقه، وأنا أهمس به، أهرب بي إلى آخر الأرض، ثم نهضت لعناق أختها وهي تحاول أن تدخل في ذكرياتها، ثم همست لها: ألم تتأهبي لعناق الولد الغريب لحظة انتزعكِ من الأرض؟

ـ لم أكن منتبهة حين فعل.

ـ ألم تلامسي جوعه وغضب زنديه وأظافره؟

ـ لم أكن منتبهة حين حمل.

ثم تأملتا بعضهما، وبكتا معاً بانتباه كبير.

عندما تمت مراسم إعادة الفرن وتسليمه للجلالي الكبير، كانت الحارة برمتها ترافق الحدث، وتنتبه إلى الأقطاب، وقد رفرفت فوق الجميع مشاعر المواطنة والإخاء الصريح، عند ذلك تقدم عامر الفضلاوي وتحدث إلى الناس معتذراً عن تجاوزات ابنه وذويه، وحكى للحارة أبعاد الخطر الداهم، وطالبهم بالعمل والحيطة والتوقف عن جدل الحبال، والانصراف إلى جدل المقاليع، وعندما انتهى الفضلاوي، تقدم الجلالي الكبير ليدلي ببيانه الذاهل للناس فقال:

أما عن إعادة الفرن للجلاليين، فقد عاد الحق إلى أصحابه. أما عن الفترة الماضية، فترة السطو على الفرن وانتزاعه من أصحابه، فإنني أدعو عامر الفضلاوي وولده وشعبه للمبارزة، ورفع قبضة يده أعلى من كتفه كأنما يشهر سيفاً، عندها شهق الناس من الفَزْع، وأحسوا بالدم يملأ وجوههم، غير أنهم صمتوا في انتظار الردود، والتتمات، وعندما لم يَرُدَّ الفضلاوي على التحدي، تابع الجلالي الكبير الكلام:

عندما ذهبت ابنتي عاتكة، ودخلت الأرض والحارة، في القيظ الشديد ومات ابن الواقدي حمزة، واخترقت التوابيت الحارة، ذهبت إلى الفرن وطالبت بمضاعفة الخميرة، غير أن العجين لم يختمر، عند ذلك صرخت في الحارة والأهل: أين أنت يا عاتكة، يا ابنتي؟ وضياع ابنة مثلها، يذهل العجين والطحين، ويوقف الخمائر عن التخمر، وينذر الأرض والناس بالدم، لذلك فتحت مستودعي وأكياسي للناس، وقررت أن أعطي الفرن لمن يقدر على إعادة الخميرة للحارة، والخبز للناس، وما وجدت أحداً، حتى جاء أبنكم الأشوص وانتزع الفرن انتزاعاً، ابنكم الذي وعدته بابنتي

ووعد الحارة بالحرب. إنني أنذركم، ستأتيكم أيام لم يقيّض الله لعادَ وثمودَ مثلها، وسيهرب عنكم أولاد لم تشاهد زوجة العزيز أجمل منهم، وستبحثون عن البصل والثوم والسكاكين، ولن تجدوا غير الدم والوشايات، وستختلط البقرات السمان بالعجاف ولن يخلصكم أي مستودع أو فرن، ثم استدار واستدارت معه كهولته، ومضى يتوكأ على نفسه ودم المريدين.

في ليل الحارة، انطلقت ميليشيات قيس الأشوص إلى البيوت، وطرقت الأبواب، فتوقف الناس عن المكانس والحبال، وبدأوا يجدلون المقاليع، بعد أن أصاب كل بيت نصيب معلوم من الخيوط.

عندما قعدت عفراء الحبال إلى حصتها من الخيوط وأخذت تجدل المقاليع، كانت تتأمل كل مقلاع بعد إنجازه وتصيح: يا رب، لا تدع حجراً يصيب أحداً، أما أختها وحيدة فكانت تأخذ المقلاع بعد أن تُتمّ صنعه، وتضع كف المقلاع على نهدها، وتتمتم بالكلام الغريب... يا رب احمل نهدي بالمقلاع إلى تخوم الحارة الثانية، لأشاهد العالم والناس، ولأشبع عيني منهم، ثم تنهال على صدرها بقبضتها، كأنها تحاول أن تشعل فيه عناصر الحرب، ما دامت المناغاة بعيدة عنها والحليب.

في ليل الليل، ذهب محمد المغربي بعد أن ومضت في رأسه فكرة، فنهض إليها لينفذها حالاً، وعلى غير عادته، انتصبت قامته وأعضاؤه أكثر مما تعود وألف، ومضى إلى الحارة المجاورة، وعندما صار في مواجهة بيت الفانوس، دوّى الباب بصوت الطرقات، فانتبهت الحارة وانشقت الأبواب عن الوجوه المستغربة والمتسائلة عن قصد القادم الغريب وغايته.

كان عبد الجليل فانوس، الزعيم، يحاور نفسه وأركان حارته من بيت القباني والبسوت والصهريج لإقرار خطته، وقد تم الاتفاق على المداهمة ليلاً، وانتزاع رجال الأسر الكبيرة في حارة المغاير من أحلامهم ووسائدهم، واحتجازهم رهائن، وإرغامهم على توقيع معاهدة مذلة، ولا بأس من احتجاز بعض النسوة الجميلات قال الفانوس مؤكداً، فاحتجاز النساء يمرغ رؤوس الرجال في الأرض، ويفضحهم أمام بقية الحارات، ويضمن لنا استسلاماً تاماً، وقد لقيت هذه الدعوة كثيراً من الشجب والمعارضة، بسبب السمعة السيئة لصاحب الاقتراح، وبسبب المخاوف التي انتابت بعضهم من أن تفتح المحاولة درباً إلى الحرب لا تردمه الأيام، لذلك جوبه هذا الاقتراح بالرفض التام، رغم غضب الفانوس ومبرراته التي حاول أن يؤكد فيها أن شوكة أية حارة لا يمكن أن تكسر إلا عن طريق نسائها.

* في آونة الغضب والخلاف تلك، جاءت طرقات محمد المغربي لتوقف الجميع عن الحوار.

ـ من أنت؟ سأل الفانوس بعد أن دعي بنفسه لمقابلة الطارق.

ـ أنا المغربي.

ـ ماذا تريد؟

ـ أريد أن أوقف الحرب.

ـ أنت؟

في ذهن الفانوس الكبير تشكلت الأفكار، فلعل الفتى الغريب جاء مندوباً عن أجهزة الأمن، أو وزارة الشرطة، وقد تسرّبت إليهم

الأخبار عن الاستعدادات الجارية للمواجهة.

عندما دخل المغربي قاعة الاجتماع، وتنبه إلى وجهه الأقطاب قريباً من الضوء، وجدوا أمامهم شاباً يافعاً، فأحسوا بضآلته، وتهافت مقاصده، لكنه صارحهم:

ـ جئت لأسلم نفسي إليكم رهينةً لأمنع وقوع الحرب.

ـ وهل أرسلك رجال حارة المغاير؟

ـ جئت وحدي.

ـ هل شعرت بخوفهم؟

ـ شعرت بغضبهم، واستعدادهم الكبير، فجئت إليكم لأخلصكم منهم، وأخلصهم منكم.

ـ هذا الكلام كبير عليك.

ـ الحرب أكبر من الجميع.

ـ نحن نعمل بقطع الحجارة من الجبال، ونعرف كيف نكسر الرؤوس.

ـ ونحن نعمل بالحبال والمقاليع، ونعرف أين نسدد الحجارة.

واحد من أولادهم يقول هذا الكلام، تساءل كل من الحاضرين بينه وبين نفسه، فماذا بوسع الكبار أن يفعلوا؟ لذلك ورغبة من الأقطاب، في تجنب الحرب، لأنها إن حصلت وحصل الانتصار فيها فإن الفانوس سينسب النصر إلى نفسه ولن تكون قوة في الحارة قادرة على الوقوف في وجهه. عند ذلك رفع زكريا القباني يده بعد أن استسلم للذكريات الجميلة التي دهمته، فتذكر أيامه

عندما كان عضواً في البرلمان، وكان طلب الكلام يتم برفع الكف إلى أعلى، ولأنه في آخر أيامه فقد انساق إلى رغبة دهمته في فعل الخير، ولأنه المرشح البديل لزعامة الحارة لو لم تنكشف أبعاد الحجارة ومصادر سقوطها، لذلك قرر أن يستجيب لاقتراحات الفتى، التي أعجبت كهولته ووجدها حالة جديدة لم تكن واردة في أيامه، فقرر أمام الجميع أنه يرغب في تصديق الفتى وتقدير موقفه، ويميل للاحتفاظ به رهينةً وتجنب الحرب، ومحاورة أقطاب الحارة المجاورة.

سيل من الاتهامات، بالانهزامية والجبن وعدم الإحساس بالمسؤولية أطلقه الفانوس على الاقتراح وصاحبه، غير أن الأوان فات، ولقي اقتراح الرجل الجليل هوى في نفوس الأقطاب فاستجابوا للاقتراح ودافعوا عنه.

ـ ولماذا أتيت أنت، ولم يأت غيرك؟

ـ لأنني أنا الذي قمت بقيادة الهجوم والإشراف على وضع الخطة لمداهمة حارتكم بالحجارة.

ـ أنت؟! صاح الفانوس غاضباً.

ـ ومتى سيأتي رجالات حارتكم لافتدائك؟ قاطع زكريا القباني الكلام ليقطع على الفانوس استرساله وتطرفه.

ـ بعد أن يصلهم الخبر.

ـ ألم تخبرهم؟

ـ لو أنني أخبرتهم لاحتجزوني وفضلوا الحرب على احتجازي.

بعد أن انفض الاجتماع، قرّ الرأي على احتجاز محمد المغربي

رهينة لاستخدامه كورقة ضغط في المفاوضات، وبقي الفانوس وخططه الخائبة في مواجهة رهينته، لذلك تقدم منه، وأهوى بكفه السمينة على وجهه قائلاً: أمامي يا ابن الكلب، والله سترى عندي أياماً لم يرها المعتقلون في حبس الدم في القلعة، ومضى به إلى القبو المعتم الرطب.

أيام مرت ولم يأت من حارة المغاير خبر، لا للحوار ولا للمقايضة، أو تقديم التنازلات الفادحة، ومحمد المغربي قاعد في القبو بين الرطوبة والفئران وأكياس المؤونة، وفي رأسه تتشكل عناصر بطولته والثمن الذي سيدفعه أهل حارته مقابله، والحارة نائمة عنه ومنشغلة بخيوطها ومقاليعها، حتى أمه نسي أن يخبرها بخطته ووجهته، لذلك عندما لم يعد، خافت وبكت، وظلت في مكانها يتناوبها البكاء والخوف ويقعدانها عن الإتيان بحركة، ورجالات حارة الكلاسة يرتبون الأفكار والشروط للبدء بالمفاوضات القريبة التي ستكرس حارتهم سيدة للحارات المجاورة

لو لم يأته الصوت الجميل من أطراف البيت متسللاً إلى قبوه وهو يغني (يا لأسمر اللون يا لأسمراني) لأعياه الاحتجاز ولقرر أن يضرب رأسه بالجدار حتى يقتل نفسه، ولكن الصوت الجميل أتاه، وبعد الصوت جاءت صاحبته زينب الفانوس، فواربت عليه الباب بعد أن أدارت المفتاح فيه وامتدت بزندها إليه وامتدت في مقدمة زندها، صينية صغيرة وعليها صحن من المرق الساخن وساق دجاجة يساوي حارة غافلة، فامتدت يده إلى الساق ليستعين به على الرطوبة والبرد المقيم.

في المرة التالية واربت الباب أكثر، وامتدت بزندها ورأسها لتلمح السجين، وعندما شاهدت وجهه وعمره، والتماعة عينيه شهقت

من وقتها ورفعت كفها إلى فمها لتداري دهشتها، فسقط الطعام على الأرض، وظلت منتبهة إليه كأنما وقعت في الحَبَل، وبعد أن انتبهت إلى نفسها ودهشتها ركضت مهرولة وعادت إلى الباب الموارب ففتحته على طلاقته، وأقعت على ركبتيها لتنظيف المكان.

قبل حزيران كانت الحارات تختلط بالحارات، والفتيات بالفتيان، ويكون اللعب والكلام، واللمسات المفاجئة، وبعد حزيران انتبهت الأمة إلى أخطائها وعوراتها، وأدخل المريدون إلى عقول الناس أن الخسارة جاءت نتيجة لأفعال التهتك والمعاصي التي ترتكبها الأمة، فانكمشت الأسرار والحارات على أولادها وأعضائها، واستعر الجوع والتهبت المخيلات بالأفكار والصور الفاضحة، وزينب الفانوس ابنة زعيم حارة الكلاسة من حقها، ومن حق وحدتها عليها أن تعطي لنفسها امتيازات أمام هذه الفرصة النادرة، التي لا يمكن أن تتكرر، حيث يتكوم في قبو والدها واحد من الأعداء، لذلك عندما قعدت إلى الأرض بقلب مفتوح وركبتين منتبهتين أحس المغربي بالجوع والحفاوة، وطلب من الفتاة زيادة كمية الطعام.

وعندما سألته عن اسمه أجابها، وعن ظروف احتجازه أفاض في الشرح، فكبر في عينيها وصدرها وساقيها، وأحست نحوه بالحب، ووعدته بأن تلبي كل احتياجاته، فأحس نحوها بالامتنان وبارك الحجز وأيامه. وفي الليل عندما تسللت أليه وأطلقت نحوه نهديها، شعر بالبرق يداهم القبو، وأحس بالطعام الساخن أقرب ما يكون إلى وجهه فأكل حتى شبع، وأكل حتى أعياه الطعام، وعندما أسدلت الفتاة ثيابها، وعدته بالغناء والمتابعة، وتمنت من الله في

سرها أن يقسو أقطاب الحارة في الحكم، فيحكموا عليه بالحبس المؤبد مع الشغل ليظل المحتجز في القبو وتظل هي في السماء.

* عندما انتهى أقطاب حارة الكلاسة من وضع قائمة بالشروط استعداداً للمفاوضات القادمة مع أقطاب حارة المغاير ورجالاتها قعدوا ينتظرون، وعندما طال عليهم الانتظار أرسلوا من طرفهم رسولاً يبلغ الحارة المعادية عن مصير ولدها الرهينة المحتجز ويبلغ أقطابها استعداد حارة الكلاسة للتفاوض، عندما وصلت الأخبار وانتشرت في حارة المغاير من الباب إلى المحراب، اجتمع القادة (المغايريون) لمداولة الأمر والنظر فيه، وهم في حالة قصوى من الغضب والانفعال.

ــ ومن هو محمد المغربي هذا؟ أنا لم أسمع برجل له هذا الاسم.

ــ انه ابن صالح المغربي ويسكن وأمه في رأس الحارة، همس قيس الفضلاوي في أذن والده، وهو طالب معي في المدرسة.

ــ ولماذا سلم نفسه لأوباش حارة الكلاسة؟

ــ ربما وقع في كمين، صاح أحد الجلاليين.

ــ لم يقع في كمين ولا بطيخ، سلّم نفسه بإرادته حتى يوقف الحرب بين الحارتين، أجاب قيس الفضلاوي.

ــ يريد أن يصبح بطلاً على حساب الحارة.

ــ يا ليتني أمسك هذا البندوق حتى أقلع عينيه بإصبعي، ردّ عامر الفضلاوي زعيم الأشاوصة، وتعالت الأصوات.

ـ الولد ليس بندوقاً، وهو يحب الحارة، لذلك فعل ما فعل، صاح السيوفي مدافعاً عن صديقه.

ـ كل من يريد أن يذل الحارة بندوق، صاح الفضلاوي الأب، ما دام اختار بنفسه أن يكون رهينة دون علم الحارة وخبرها، فليدفع الثمن وليبق رهينة.

عند ذلك انتهى الحديث ولم ينته الغضب، وتجمّع الكبار وذهبوا إلى بيت الفضلاوي للمتابعة، وصياغة الرد على رسول الكلاسيين.

في الاجتماع المصغر، وبعد مناقشات غاضبة كادت أن تصل إلى حد الاشتباك بالأيدي، صدر عن الاجتماع القرارات التالية:

لا تفاوض ولا دفع فدية ولا استرداد، ثم أضافوا حاشية يقولون فيها:

أما عن الرهينة، فإننا لا نعترف بأعماله ولا يهمنا مصيره، فاحتفظوا به ولا تفاوضونا باسمه.

عندما دخلت عفراء الحبال إلى أم محمد المغربي أخبرتها عن ولدها وظروف اعتقاله، وأنه يأكل طعاماً جيداً وصحته ممتازة.

ـ ومن أين عرفت؟ سألت الأم الملتاعة.

ـ ابنة الفانوس (زينب) صديقتي وندرس في صف واحد، وقد أخبرتني عن أحواله في الحجز.

ـ عند ذلك اطمأنت الأم وقالت: إذا كان يأكل بشكل جيد

وصحته ممتازة فليبق في بيت الفانوس، ففي بيتنا يا ابنتي لا يوجد طعام ولا توجد صحة، وتمنت الأم من الله أن يوفق ولدها ويزيد لها وزنه ومدة اعتقاله.

عندما وصلت قرارات زعماء حارة المغاير، إلى زعماء حارة الكلاسة قعدوا مندهشين وارتخت فكوكهم، وبدأوا يفكرون بالقرارات الغريبة والحارة الغريبة والولد الغريب.

أما زينب الفانوس فقد هرعت إلى القبو وفتحت الباب، بوجه فرح وذراعين فرحتين، وأخبرت المغربي الرهينة، أن أهل حارته قد تخلوا عنه، وأنه على ذلك سيظل في الحجز مدة أطول، ثم قعدت إليه وأخبرته عن فحوى القرار وتفاصيله.

عند ذلك صمت محمد المغربي ودخل وجهه في القسوة والغرابة، وعجزت بعدها شفتاه عن ازدراد كلمة، أو الاستجابة لقبلة، فتشاغلت زينب الفانوس بأحزانه وجرته إلى صدرها لتعينه على الاحتمال.

في الاجتماع الثاني لأقطاب حارة الكلاسة، قرّ الرأي بالإجماع على إطلاق سراح الرهينة التي غررت بهم، وأعطوا الفانوس صلاحية متابعة الأمر، كما تم الإجماع على الأمر التالي، أن حارة تفعل بولد شجاع من أولادها كما فعلت حارة المغاير بولدها محمد المغربي، ليست جديرة بخوض حرب أو الانتصار فيها، وعلى ذلك فقد تم غض النظر عن متابعة الإعداد للمواجهة.

عندما دخل الفانوس إلى غرفة الحجز وجد الباب موارباً ووجد ابنته وأزرار صدرها مفتوحة وكفين غريبتين تختفيان بظهرها، عند

ذلك اختلطت عليه الأمور وانقض برأسه على الموجودات محاولاً تصفيتها.

الابنة وقد خبرت والدها وطبيعته، استطاعت أن تتسلل هاربة، غير أنها، ويا للعار، تركت الفتى السجين وحيداً في مواجهة لا يحتملها.

بعد ذلك استعد الفانوس للوثوب على الرهينة ونطحها برأسه الضخم، فتراجع المغربي حتى ارتطم ظهره بالأكياس ووقعت يده مصادفة على كيس طحين مفتوح، فقامت اليد بمبادرتها وقبضت على حفنة من الطحين وذرتها في وجه الفانوس المندفع فغامت عيناه، فتابع انقضاضه ونطح المغربي في صدره فأوقعه أرضاً، ثم عاود الهجوم فانحرفت مسيرته وبدأ رأسه يرتطم بالأكياس فيبقرها فتتسرب الحبوب والبقول، وتزداد جفونه ورموش عينيه التصاقاً ببعضهما بسبب جودة الطحين ورطوبة القبو، وظل الفانوس على هذا الحال من نطح وبقر حتى تهاوت منه القوى، فقعد على الأرض في حالة إعياء مقيم، وقد تصادف أن كانت قعدته قرب غريمه المغربي، فانتبه إليه ولامسه ثم صاح فيه:

ـ لماذا فعلت ما فعلت يا ابن الحرام؟

ـ وماذا فعلت؟

ـ أنت تعرف، أعطيتك بيتي وثقتي، لتفعلها وتخونني بابنتي.

ـ أنا لم أخنك.

ـ فماذا تسمي الذي فعلت بعد أن وجدت ابنتي عندك في القبو؟

ـ إن كنت قد وجدتني عندها في غرفتها، فتلك هي الخيانة، أما وقد وجدتها معي في القبو، فاذهب إليها لتسألها: عندما فكر

الفانوس في الكلام، وجده صحيحاً.. لذلك ترك القبو وهرع إلى غرفة ابنته.

* أما المغربي الذي استطاع أن يحمي نفسه ويدرأ عنها الخطورة، فيا للعار فلقد أوقع بالفتاة النبيلة الدافئة في العقوبة والتنكيل.

الفتاة التي أنجدت انكساره ووحدته، والتي لولاها لأطاح روحه ودمه ضرباً بالباب أو الجدار، الفتاة التي عرف من خلال ذراعيها كيف تتنهد النهود، وتتخلق المواجد، وكيف ينحني الشيء على الشيء كأنما يخرج إلى طبيعته.

ويا حارتين تقتلان معاً لماذا حدث ما حدث؟

الفانوس، بعد أن فعل ما فعل، أخرج رهينته إلى صحن الدار، وأوقفه في وسطها وحيداً ثم صعد إلى دَرَجِ المربّع، وعند قرص الدرج وقف وبدأ خطابه الموجه ضد المغربي وحارته:

«وأنتم يا حارة من القُرعان والمقملين، وأنتم والبهامة فيكم طبع، تأكلون الكوسا وتظنونه خياراً، وتأكلون اللفت والفجل وتحسبونه من أنواع جوز الهند، وأنتم وقد مالت مئذنة الجامع في حارتكم فربطتموها بالخيوط والحبال، وشددتم حتى وقعت عليكم، ها أنتم تواجهون حارتنا بالحجارة وتدخلون ليلها في نهارها، ثم يأتي أحد زعرانكم، ليسلم نفسه رهينة ليوقف الحرب، فتسلّم ابنتي نفسها لذراعيه ونذالته ولا يأتي أحد من حارته ليتسلمه أو يفاوض لتحريره. أنت لا شيء، أنت لا أحد». وظل يرددها حتى هربت حدقتاه إلى قحف رأسه، وبدأ بالتخاور والهيجان، وصار الزبد الذي لا ينفع الناس يخرج من فمه ومنخريه، فأحست ابنته بمحنته،

فهرعت من الغرفة القبلية إلى الجب وملأت سطل ماء وقذفته إلى وجهه ليصحو ويستعيد نفسه، ثم أشارت للمغربي أن يركض إلى جهة الباب ليهرب، فما فعل، فتركت والدها في غيبوبته وركضت إلى الصبي فجرته إلى الباب، وعوضاً عن فتح الباب لإطلاق سراح الفتى، فتحت ذراعيها وشدته إليها، ووضعت رأسه في فسحة صدرها وأخذت تشمه وتجعر بالبكاء، ثم استدارت عنه إلى الجدار وأسندت رأسها إلى زندها بعد أن أعياها أن تلمح رحيله القريب.

* زعران حارة الكلاسة وشبانها كانوا منتبهين إلى حركة باب بيت الفانوس الذي باتوا يتوقعون اقتراب إطلاق سراح الرهينة منه، لذلك حضّروا حفلاً وداعياً خاصاً (بالمغربي الرهينة) يليق بالبطولات التي نذر نفسه لها، وكانوا في وضعية الانتباه الشديد، فعندما أطل بجسده الذي ما زالت تكلله نداوة العناق، انهالت عليه الحجارة والغضب الدفين.

الضربة الأولى زلزلته وكادت أن تنال من قرار الصمود الذي اتخذه، كذلك فعلت الضربة الثانية والسابعة، وبعدها تعوّد الضرب وتعالت فيه أرادة الصمود وتقدم دون أن تنال الضربات من عزيمته بخطوات ثابتة لا متمهلاً ولا مستعجلاً، ودائرة الخصوم تقترب منه وتتحلق حوله ولديهم من الدهشة والغرابة أكثر مما في أيديهم من الحجارة والإصرار الشديد.

الضربات الأولى كانت تتقصد رأسه وصدره، والضربات التالية صارت تتقصد الأطراف الأقل إيلاماً بسبب دهشة المهاجمين من صلابته ونظراته، أما الضربات الأخيرة فصارت تتساقط في طريقه وبين قدميه كأنما يومض جسده بما يمنع الضربات عنه.

* عندما شطرت الحشد ابنة الفانوس وركضت أليه أمام سمع الحارة وبصرها وعانقته لتحميه، أدرك الجميع صحة ادعاءات الرهينة وقوة روحه، وتوقف الجميع عن الضرب، فالتفتت ابنة حارتهم إليهم وصاحت فيهم: اضربوه، اضربوه، مثلكم يجب عليه أن يضرب واحداً مثله. ثم وقعت على ركبتيها وبدأ جسدها بالارتجاف والنحيب.

ابنة الحارة، ابنتهم تتكلم مثل هذا الكلام، عن الولد الغريب وهي في حالة احتضان له وبكاء بين يديه، وهي التي لا يجرؤ الكبير ولا الصغير على رفع النظر إلى وجهها، لذلك أمعنوا النظر عميقاً ووقرت في وجدهم وأرواحهم حفاوة بها وحب لها، وتبعوها وتبعوا المغربي وهم في هيئة الأتباع والمريدين، عند مفترق الحارتين، تركت ابنة الفانوس بطلها ليكمل الطريق وعادت محاطة بأولاد حارتها وعيونهم التي تبارك جسدها ووجدها وزوغان خصالها.

* بعض من عناصر ميليشيات قيس الأشوص، كانوا يعملون عناصر استطلاع، وعندما لمحوا الحشد في حالة الاقتراب وتبينوا ابن حارتهم المغربي وسطه هرعوا إلى الحارة للإعداد للاستقبال الذي يليق بالبطل الذي هدر كبرياء الحارة وكرامتها، وعندما وصلوا إلى قيس الفضلاوي الأشوص ومجلسه الحربي هدرت الأصوات وأعدت الأسلحة وهرول الحشد، وتحول بسرعة إلى تظاهرة كبرى.

تابع المغربي الطريق إلى بيته وأهله، والدم يتفصد من جبهته وأطرافه، وعيناه تبرقان بالضوء الغريب، وعندما اقترب كثيراً إلى حشود مواطنيه الذين أعدوا العدة لاستقباله، ازداد اعتزازاً بنفسه ومواقفه، حتى أصابه الحجر الأول منها ثم تتالت عليه حشود الحجارة الأخرى.

حين انتبهت حشود أهله ومواطنيه إلى تقدمه، توقفت أيديهم عن الحجارة، وبدأوا بالانتباه إلى بريق عينيه، والتماع خطوط الدم الذي يكلل وجهه، فتوقفوا كأنَّ على رؤوسهم الطير، وانتبهوا كأنما لا يشغلهم شيء سواه. كانت نظراته تتجاوزهم إلى الأفق الضائع خلف تخوم الحارة، وهو يتقدم منهم ولا يتقدم إليهم، وقد خذلوا يفاعته، فأنجدهم دمه، كأنما لم يكن هو، روح غريبة تتقمصه، وتصنع مبادراته، وهو الذي يرعبه أن يرد على النظرة بنظرة مماثلة ويلجمه أن يبادر لتخليص محبوبته من ذراعين غريبتين اقتحمتاها يتجرأ على الأفعال الكبيرة، ولا يحصد مقابلها سوى الدم والرجم، الدم الذي أسالته من وجهه وجسده حارتان ذاهلتان ومفطورتان على القصاص الرجيم.

وحده الجلالي الكبير والد عاتكة، قال لأقطاب الحارة: افتدوه بأغلى ما لديكم، فعندما تحس الحارة الأخرى بقيمة أولادكم لديكم، تكبرون في عيون الأعداء والأصدقاء، فلا يجرؤون عليكم مرة ثانية. أدلى برأيه في هيئة إنذار، فأجابه الناس بالسخريات فاستدار ومضى. لذلك عندما نامت الحارة بعد عودة المغربي إلى بيته وأمه، الكثيرون جافت جنوبهم الرقدات وتقلبوا وهم يفكرون، هل كانت الحارة على حق؟ هل كان الولد على حق؟

عندما التقت عفراء الحبال بزينب الفانوس في المدرسة، سألت زينب زميلتها في الصف عن أحوال المغربي ابن حارتهم، وكيف يعيش، وقالت إنها مشتاقة إليه، وكانت ترغب أن يظل محجوزاً في بيتهم لتطعمه وتداريه، وإنه لا توجد في حارتهم ولا في الحارات الأخرى شاب مثله، فانتبهت عفراء للكلام وأحست بالغيرة تأكل روحها فسألت:

ـ وهل حصل بينك وبينه شيء؟

ـ أشياء كثيرة حصلت.

ـ هل قبلك من فمك؟

ـ لو لم يفعل لمات في الحجز.

ـ هل أمسككِ من نهدكِ؟

ـ لو لم يفعل لمتُّ من القهر.

ـ لذلك تريدين أن يطول بقاءه عندكم.

ـ ليته يعود ويسلم نفسه ثانية إلينا. ليظل إلى جواري أبد الدهر.

ـ وإذا لم يعد؟

ـ سأحضر إلى حارتكم وأسلم نفسي حتى تفاوضوا عليّ، ثم شرقت بدمعها وغص صدرها بالتنهدات والحنين.

* هكذا إذن، قالت عفراء في نفسها، محمد المغربي الذي أكاد أنساه، يفعل بابنة الفانوس ما فعل، فلا والله لا أتركه لها، ولا أتركها له، ويا ذكريات تعالي لأعود لمحبته من جديد.

* بعد أيام من العودة غير المظفرة للمغربي إلى الحارة، وقد أفلح في تبريد نيران الحرب التي كادت تستعر بين الحارتين، عاد الناس في الحارة إلى الحبال والمكانس، وتجاهلوا المقاليع المكدسة في زوايا بيوتهم وأحضان نسوتهم، بعد أن كاد الجوع والحاجة أن يقتلا أضعاف ما يمكن أن تقتله الحرب لو أنها استعرت، وقد دفع ذلك عدداً كبيراً منهم إلى لم المقاليع من البيوت وتكويمها في ساحة

الحارة وإشعال النيران فيها، وقد أغضب هذا العمل الفضاولة وعميدهم، وولي عهده قيس الأشوص، غير أن الغضب لم يعد مفيداً بعد أن استعرت النيران وأتلفت عدة الحرب الغالية التي بذل فيها أهل الحارة الجهد والزمان الضنين.

* في تلك الأيام وقع الجلالي الكبير والد عاتكة بالمرض الشديد، ثم لبى سريعاً نداء ربه، وقد لمح في أواخر الحمى والهذيان وجه ابنته عاتكة يرف إليه، فصاح صوتين: إنها هي، إنها هي. ثم أسلم الروح.

* حين انتشر خبر موته في الحارة، دخل الناس جميعاً في الذهول، وقعدوا في بيوتهم دون حس أو حركة، فالجلالي كان محبوباً رغم التجاوزات والمودات التي كان يمحضها لآل الفضاولة القساة القلوب، وفي الموت تنسى الحارات أحقادها، وتتذكر الأيام والفضائل التي لا تموت.

حارة برمتها وفصائلها واتجاهاتها ذهلت بموت الجلالي، وأخذت تتذكر أيام ابنته عاتكة، عندما كانت الحارة تأكل الخبز الساخن المدور مثل وجه حمزة الواقدي الفقيد.

في الآونة ذاتها مات الرئيس جمال عبد الناصر فجأة، فذهلت الأمة برمتها، ولأن حارة المغاير توقفت منذ حزيران عن الاستماع للإذاعات والخطابات، فإن خبر موت عبد الناصر لم يصل إليها، كانت مشغولة من الصغير فيها للكبير بموت الجلالي الكبير. الذي نبه الحارة لموت عبد الناصر، حادث آخر.

* كان عاشور الطويل، يعمل مديراً للمركز الثقافي الجديد الذي

بنته حكومة الوحدة في حي المساكن الشعبية المتاخم لحي المغاير، وكان عاشور الطويل هذا صاحب اهتمامات سياسية وثقافية وسينمائية متنوعة، وقد استطاع أن يقنع الكثيرين بأن شركات سينمائية عالمية تتصل به ليسد الفراغ الذي تركه (كلارك غيبل) بطل فيلم ذهب مع الريح، وأن فريد شوقي ورشدي أباظة لا يساويان أمام موهبته شيئاً، وكان للرجل حضور طاغ وجاذبية، وقد استطاع أن يستقطب سكان الحارات المتاخمة، ومنهم سكان حي المغاير، بالعروض السينمائية الليلية على جدار المنزل المقابل للمركز الثقافي، إضافة إلى الخطابات السياسية المؤثرة التي يخلطها بالتمثيل والحكايات والنكات. ثم تطورت الأمور، فصارت ساحة المركز الثقافي المشجّرة مكاناً يستقطب الناس وتقام فيه الأعراس وسهرات لعب الورق بين الرجال، وحفر الباذنجان ولف اليبرق (ورق العنب) من قبل النساء. هذا في الحالات العادية، أما عندما تحصل أحداث جسام، فإن مدير المركز الثقافي يقوم بتوجيه دعوات للحضور والتحشد في ساحة المركز لإطلاع الحارة على أهم المتغيرات.

في غمرة انهماك أهالي حارة المغاير بموت عميدهم الجلالي الكبير، جاءتهم دعوة من مدير المركز للذهاب إلى الساحة، فذهبوا كباراً وصغاراً، رجالاً ونساء، وعندما اكتمل نصاب الناس تساءلوا عن الهدف من الاجتماع، فقال لهم قائل: إن عاشور الطويل سيخطب هذه الليلة فانتبهوا أكثر، فلعاشور الطويل صوت من ذهب، وكل كلام يقوله يشد اهتمام الناس ويستحوذ عليهم، والذي أدهش المحتشدين، قعوده على طرف المنصة في حالة من التهدل والتنهد، وحوله رجلان من موظفي المركز، يتناوبان على مسح دموعه والرش على وجهه ليصحوا بعد أن يحس من حوله بغيابه عن الوعي.

عندما حان الوقت، حمله الرجلان إلى المنصة ليبدأ خطابه الجليل، فنظر إليه الحشد ونظر إليهم، ثم بدأ الكلام مستنداً إلى مرافقيه، فلم تطاوعه إرادته، واهتزت ذقنه وبدأ بالتشنج أمام المكبّر، والناس بين منتبه ومتألم، وبعد أن أنهى فاصل البكاء التمهيدي نظر إلى الحشد ثانية وقال:

هذا يوم ليس ككل الأيام، يوم سيظل في الذاكرة، لأننا فقدنا فيه رجلاً لا كالرجال، وبطلاً لا كالأبطال، رجلاً كان الزعيم والأب الرحيم، تألبت عليه قوى الغدر والظلام لتكسر عوده وتلجم مسيرته وما استطاعت إلى ذلك فتيلا. وعندما سمع الناس كلمة فتيلا تقافز إلى أذهانهم عملهم في فتل الحبال، فانتبهوا أكثر إلى كلام الخطيب وشعروا بأن المقصود هو الجلالي الكبير عميد حارتهم، فازدادوا اعتزازاً بحارتهم وزعمائهم وقالوا في نفوسهم: لقد أصبحت حارتنا ملء السمع والبصر، ولو لم تكن كذلك لما تحدّث مدير المركز هذا الحديث عن موت الجلالي الكبير الذي تجاهلناه حياً وبدأنا نجلّه ميتاً، ثم انخرطوا جميعاً في البكاء واستمطار الدعوات علَّ الله يرحمه الله ويعيد له ابنته عاتكة الخير والجلال في أعلى عليين.

ـ أنتم تعرفون هذا الرجل، صاح عاشور الطويل فيهم.

ـ ومن منا لا يعرفه ويقدره ويدعو له بالرحمة؟ صاح عامر الفضلاوي.

ـ تابع الخطيب عاشور الطويل: إن المغفور له، الشهيد، الراحل الكبير، جمال عبد الناصر، كان رجلاً في أمة، وأمة في رجل، وبفضله تم بناء المركز الثقافي هذا، لتدخل حارة الفردوس

والمساكن الشعبية والمغاير، والحارات المجاورة عصر النور وعصر الثورة الثقافية، أنني إستحلفكم بالله، هل تصدقون أن رجلاً مثل جمال عبد الناصر يمكن أن يموت؟

ـ جلال الجلالي مات أيضاً، صاح صوت من الحشد.

ـ ومن هو جلال الجلالي.

ـ شيخ حارة المغاير وعميدها.

ـ ومن يكون جلال الجلالي مقارنة بعبد الناصر، الطويل الأسمر، الذي يكاد أن يكون بطولي وفي لون بشرتي، أنا أختلف عنه بالأنف فقط، والاختلاف لصالحي، وإذا أرادوا تخليد مسيرة الراحل في السينما، فأنا الوحيد الذي يمكنه أن يلعب دوره.

ـ أما الجلالي، فلا أنت ولا غيرك يستطيع أن يلعب دوره، أو دور ابنته عاتكةَ، الخير والجلالْ، هكذا رد قيس الأشوص، بعد أن تذكر الرجل وابنته فأعاده التذكر إلى الحَوَل والحب الشديد.

وكادت القيامة أن تقوم، فما كان من عاشور الطويل مدير المركز الثقافي سوى أن رد على الكلام بكلام غاضب نسي فيه الموت والميتين، ودخل بقوة في الصراخ العميم، مما أفزع الحاضرين وشتت شملهم، فتسربوا إلى بيوتهم بعد أن أحسوا جميعاً بأنه بعد موت عاتكة والجلالي وعبد الناصر، كيف للحارة أن تكون وللناس أن تعيش؟

بعد أحداث الموت هذه وانفلات الأحزان من عقالها، وجدت الحكومة السبب الجوهري لتعزيز سلطة المخفر المجاور لحارة المغاير والمتاخم لجسر الحج الذي يقاطع نهر قويق الحزين، هذا النهر الذي

قطعته تركيا عن حلب، فتماوت وكاد أن يلفظ أنفاسه لو لم تنجده مجارير المدينة بالماء المرير، لذلك عمدت الحكومة إلى إقالة الدرك الذين عملوا في هذا المخفر منذ أيام الاحتلال الفرنسي وشاخوا وشاخت كدشهم وأحصنتهم التي يركبونها، وكادت شيخوختهم هذه أن تهدد هيبة الحكومة المركزية، التي جاءت وفاة جمال عبد الناصر تحدياً كبيراً لسلطتها، فخرجت المسيرات الباكية والغاضبة لتطالب بالوحدة والأيام السالفة، حتى الدرك والشرطة الذين انتدبتهم الحكومة لتفريق التظاهرات، كانوا يقفون على أطراف الحشود الغاضبة ويشاركونهم البكاء والتنهد حزناً على الرجل وموته المبكر، لذلك خافت الحكومة من حوادث موت مفاجئة أخرى، واجتمع أقطابها للتساؤل والبحث عن حلول. وعلى ذلك قررت الحكومة تعزيز سلطة مخفر جسر الحج، وتسريح الخيول والدرك، ووضع شرطة من المنتسبين الجدد لإعادة ضبط الأمور، ومنع الموت المفاجئ من تحقيق أهدافه وتحدي أرادة الحكومة التي شعرت بأن أحداً ما لن يبكي على أفرادها إن دهمه الموت بغتة دون تمهيد.

وكان من نتائج ذلك أن ذر الاستقرار بقرنه، وبدأ الناس بالنسيان والانصياع، وشاخ عدد كبير منهم سريعاً، وتحولوا إلى نوع من الأحصنة المتعبة، والحارات الخامدة.

بعد الذي حصل اضطر الشيخ علي البرادعي للتدخل، فصاح وهو على حماره العجوز الذي يقدم رجلاً ويعيد أخرى: يا أهل الحارة، من شاهد ابنةً أحلى من القمر والشمس، وشعرها أطول من حيطان القلعة، واسمها عاتكة، من شاهدها منكم فليرجعها لبيتها في الحارة وله الأجر والثواب عند الله.

الحارة كلها دخلت في الجنون وهي تسمع النداء، لذلك ضرب الكبار يداً بيد وهم يقولون: منه العوض وعليه العوض. ثم أخرج أهل الحارة بحركات موحدة، أجهزة الراديو التي أحسوا بأنها لم يعد لها شغل في بيوتهم، أخرجوها إلى ساحة الحارة قرب بوابة بيت الجلالي الكبير، وعند قسطل الماء الحكومي، وألقوا بها في الساحة ثم أشعلوا في صناديقها الخشبية الضخمة النار، وبسبب غياب عاتكة وأجهزة الراديو، اضطربت مشاعر الناس وتفككت لغتهم ودخلوا في حالة من الجنون النبيل.

عروس الماء

عندما دخلت الحارة في الجنون الكامل، اضطرت الحكومة للتدخل، فدخلت إحدى دورياتها إلى الحارة، وفي جيب قائد الدورية قائمة بالأسماء، توجه معها إلى بيت مختار الحارة، الحاج ديبو مكانسي، وبعد عدة أسئلة وأجوبة، أخرج مختار الحارة ورقة ورسم خريطة لمواقع البيوت التي يسكنها أولاد مطلوبون، ثم نهض مختار الحارة مودّعاً رئيس الدورية ومعتذراً له عن عدم قدرته على الذهاب معه إلى البيوت حتى لا يعتب عليه أهل الحارة، فهو مختارهم، وعليه أن يكون في صفهم. لكن رئيس الدورية أوضح له المعاني الجديدة التي جاءت بها الحكومة الجديدة فقال: إن حكومتنا وحدها هي التي تمثل الشعب والناس، وتمثل مصالحهم، وعلى ذلك فإن المعنى القديم قد تهافت وتلاشى، ولم يعد المختار يمثل أهل حارته، بل صار يمثل الحكومة في حارته، ويجب أن تذهب معي إلى البيوت بيتاً بيتاً، وإلى المطلوبين فرداً فرداً، لتطبيق إرادة الحكومة في القبض عليهم، هذه الإرادة التي هي في الوقت ذاته إرادة الجماهير.

أُعجب المختار بقوةِ منطق رئيس الدورية، فنهض إليه قائلاً: لعنة الله عليك وعلى المعاني الجديدة. ثم انتزع من يده خريطة البيوت ومزقها، وقال له: تفضل اعتبرني أول المطلوبين.

المفاجأة أيبست رئيس الدورية، وعطلت له نياشينه، ورغبة من مختار الحارة في تخليصه من الحالة قال له: اسمع يا حضرة المفوض، من أكثر من سنتين ضربني تراكتور زراعي فلتان من رأس الطلعة وسائقه يصرخ ويولول: انتبهوا يا عالم يا هو، لا توجد مكابح ولا فرامات. وأنا كنت واقفاً على الرصيف أشتري باقتين فجل وبقدونس وبطاطا من دكان (محمد أبو الخيل)، لكن التركتور طلع على الرصيف وضربني أسفل بطني، فنبق لي عند الحالب دمّل كبير، ورفع مختار الحارة القنباز فظهر الدمّل الكبير عند الحالب مثل ثمرة بطاطا هائلة. الأطباء قالوا لي: هذا الدُمّل سيقتلك. وانتظرت سنتين والدُمّلَ يَكبُر، ولكنه لم يقتلني، الآن بدأت أشعر بأنني ما عدت أحتمل هذا الدمّل، تفضل يا حضرة المفوض أنا جاهز للذهاب معك.

ـ لماذا غيّرت رأيك؟

ـ من يوم أن ضربني التراكتور الزراعي، وظهر الدمّل، تغيّرت الأيام والأحوال، صرت أحس بأن التراكتور الزراعي سيهاجمني في كل لحظة، والحارة ما عادت كما كانت، كأن تراكتوراً مستعجلاً دون فرامات يولول في دروبها.

ـ وتترك الحارة بدون مختار؟

ـ أترك الحارة للحكومة والتراكتور، تفضل لأدلك على البيوت.

عندما خرجا معاً، جاءه صوت زوجته:

ـ ستتأخر (يا أبو مالك).

ـ لا يضل بالك، يمكن هالمرة أتأخر.

بطيئاً مشى المختار متجهاً إلى البيوت، وبطيئاً اضطر رئيس الدورية للمشي معه، وبطيئاً ضرب الأبواب، وأخرج الأولاد، وبطيئاً سار الجميع معاً إلى قاووش الحجز في مخفر الكلاسة.

في المخفر اضطر رئيس المخفر لإطلاق سراح المختار بسبب عدم ورود اسمه في قائمة المطلوبين، لذلك اضطر المختار لشتم الحكومة بأقذع الكلام ليتمكن من البقاء مع أولاد حارته الموقوفين، وقد استقبلت شتائمه استقبالاً حسناً وأدخل مع الأولادِ الثمانية إلى غرفة الحجز. لكن اللافت للانتباه أن مشادة كادت أن تقع بين رئيس المخفر ومحتجزين من آل الهبراوي، فهما من حزب القلعة الثانية المؤيد للحكومة، وقد تم اعتقالهما رغم أنه لم تصدر في حقهما داخل التنظيم عقوبات، لا بالتنبيه ولا بالإنذار ولا الفصل، فكيف تم سوقها إلى الحجز مثل بقية أولاد المعارضة الأنذال؟

ـ هذا الأمر أربك رئيس المخفر تماماً، واضطره للإبقاء عليهما داخل القاووش، لأن الأوامر جاءت هكذا، وهو أداة تنفيذ لا أداة تحليل وتوضيح، ولكنه وعد المحتجزَينِ الكريمين بمتابعة الاتصال بدائرة الأمن الرئيسية للحصول على جواب شافٍ، وحتى يأتي الجواب لا بد من الانصياع والتنفيذ حتى ولو كنتما من أولاد وأحفاد سيف الدولة الحمداني حاكم القلعة الأولى. لذلك انصاع الجميع ودخلوا إلى الحجز وعيونهم محمرّة من رئيس المخفر ومن

مختار الحارة الذي سَلَّمَهمْ، واستسلم معهم.

في اليوم الأول والثاني للحجز دخل المختار في الغيبوبة والهذيان، واعترف للمحتجزين بالدوافع والأسباب التي دعته إلى أن يفعل ما فعل، وكشف لهم عن حالبه وحكى لهم حكاية الدّمل الذي يشبه ثمرة بطاطا هائلة وطمأنهم بأن الدمل سينفجر قريباً، وطلب منهم أن ينظروا إليه نظرة الوالد، وأن لا يحملوا عليه ويبالغوا في اتهامه كما تفعل المعارضة مع الحكومة.

أيام مرّت، ورئيس المخفر يتابع الاتصال بدائرة الأمن المركزي ليستوضح عن مصير العضوين المنخرطين في حزب القلعة الثانية التابع للحكومة، وهل حصل خطأ بشأنهما، وقد دفعته المخاوف للإلحاح على دائرة الأمن المركزي للحصول على جواب كاف حتى لا يحصل خطأ في الأمر ويؤاخذ على احتجازهما في ما بعد، وقد جاءه من الأمن المركزي التوضيح التالي، فاطمأن وأبقى الأمور على حالها.

من دائرة الأمن المركزي.

إلى رئيس مخفر الكلاسة.

لقد تقصدنا القبض على المدعوين زاهر وفاضل الهبراوي ولدي عبد الرحمن، رغم علمنا المسبق أنهما عضوان نشطان في حزب القلعة الثانية الموالي للحكومة الموقرة، وذلك حتى لا ندع جماهير حارة المغاير التي ينتمي إليها بقية المحتجزين، تشعر بالريبة والخوف، فالسلطة حين تقبض على بعض أفرادها الأبرياء تدفع الجماهير للإحساس بالأمن والعدل، ومن حسبك بسعره ما ظلمك، لذلك نطلب منكم الانتباه إلى هذا الوضع، وعدم الوقوع في خطأ إعطاء

المحتجزينِ المذكورين امتيازات تثير حفيظة بقية الموقوفين وغضبهم.

* للاطلاع والعمل بمقتضاه ومضمونه.

* وكل أمر يخالف ذلك يؤدي للمساءلة.

بعد قراءة الكتاب، اطمأن رئيس المخفر للجواب، وعمل بالمقتضى، وطلب من الحراس نسيان المحتجزين الضحيتين.

* غُرَفُ الحجزِ في المخافر ضيقة وغير مجهزة، والمحتجزون ينزلون ضيوفاً مؤقتين، لا تلبث إدارة المخفر أن تُرحلهم إلى القصر العدلي حيث ألحق بمبنى السراي المتاخم، وتحت الأرض سجن واسع يستوعب الموقوفين بانتظار صدور الأحكام بحقهم وتحويلهم إلى السجن المركزي، في الطرف الثاني للقلعة، غير أن القضاء لا يتدخل في الموقوفين السياسيين، وعلى ذلك لا جدوى من تحويلهم إلى سجن القصر العدلي. وبما أن السجن المركزي «مليان على أخره»، فقد تُرك الموقوفون السياسيون في غرفة الحجز الضيقة التابعة للمخفر، والإنسان المحتجز والممنوع من الحرية يضيق بروحه، فكيف لا يضيق بسواه، وخاصة أن الشباب المحتجزين أصحاب ملل ونحل وأفكار متضاربة، كأنما خرجوا لتوهم من كتاب الشهرستاني.

* في أول الحجز انصرف ولدا البركات، محيي الدين وقمر الدين للصلوات والدعوات فعسى (قال محيي الدين لأخيه قمر الدين) أن تخرَّ صاعقة من السماء على باب السجن أو رئيس المخفر فينشق الجدار ويأتي الفرج. وقعد الجميع في غرفة الحجز، ومعهم الحاج ديبو مكانسي يتأملون ويتفكرون، والسجناء دون كلام، أكثر وحشة منهم دون طعام، لذلك بدأ كل منهم يرتب لصاحبه

هجوماً إذا لم يتمكن خلاله من كسب الجولة لصالح اتجاهه، فهو لا بد ضامن الخروج من عزلته وصمته.

عندما أتم ولدا البركات الصلاة والسلام.

ـ قال الحاج ديبو مكانسي لهما: تقبل الله.

ـ ولماذا لم تُصَلِّ معنا يا حاج؟

ـ الدمّل يا ولدي يمنعني من السجود والقيام.

ـ ولكنه لم يمنعك عندما أوصلت الحكومة إلى بيوتنا.

ـ اتركني يا ولدي في حالي، يكفيني ما أصابني.

ـ ومن المنتقم الجبار، من يكفيك؟

ـ أستغفر الله العظيم على هذه الورطة.

ـ اتركا الحاج في حاله، ربما قال في نفسه السجن للرجال، رد أسعد الهبراوي ممازحاً.

ـ ما قلت في نفسي مثل هذا الكلام، رد الحاج ممتناً، ولكن عسى أن يجعلكم السجن تحبون الحارة أكثر.

ـ تريد أن تعلمنا كيف نحب الحارة يا حاج، صاح قمر الدين البركات.

* هكذا وبدون مقدمات ولا بطيخ، نفرت الدموع من عيني الحاج، وتهاطلت على وجهه وذقنه، وهو في حالة اندهاش من أفعال عينيه الخائبتين، فانتبه الجميع إلى الحالة الطارئة وانكمشت وجوههم وأعيتهم التتمات، وصمتوا صمتاً جارحاً.

ـ لا تؤاخذوني قال الحاج، هذا الدمّل الملعون يضغط على روحي. ولم أرد أن أموت أمام أم الأولاد، لذلك جئت معكم.

ـ لا تشغل بالك يا حاج، رد عادل الشرم، أنت مثل والدنا، ثم ساد صمت قاطعه أحد رجال الشرطة من القائمين على حراسة غرفة الحجز وتأمين الخدمات للسجناء، ففتح الباب وأدخل سطلاً مملوءاً بالبطاطا المسلوقة التي تشبه دمامل صغيرة ملساء، وعندما طالب السجناء بالملح والشاي، قال لهم الحارس: في الغد سأحضر لكم ملحاً من بيتي. فاطمأن الجميع إلى هذا الجواب، وحمل كل واحد منهم حبة من البطاطا وضربها على الباب والجدار، فانهرست وتساقطت على الأرض وتركت مكان الضربة علامة رطبة، ثم أصاب الجميع حنين للعمل السياسي والتظاهرات، فشنوا حملة من الهتافات ضد البطاطا وإدارة السجن، وهتفوا بحياة الملح والشاي، وقد ردد الجميع هذا الكلام، حتى أعياهم الصراخ، وعندما لم يلتفت إليهم أحد عادوا إلى البطاطا المهروسة والمتساقطة على الأرض من جراء الغضب السياسي، فلموها وجمعوها وجلسوا يأكلونها، بمحبة وامتنان، والحاج ديبو المكانسي ينظر إليهم من وراء دمّله ويشاركهم الغصات.

* وفي المساء انفتح الباب، وتسلل منه سطل البطاطا ثانية، واللهب يتصاعد منه، فالتفتوا إليه، وانقضوا عليه، وأمسك كل منهم حبة، ونظر إليها بمودة، ثم طوّح بيده ليرطمها بالجدار، غير أنه أعادها إليه ثانية، وتأملها قبل أن يفتح فمه ليدسها فيه.

وحدهما ولدا البركات، ألقيا بالبطاطا جانباً، ونهض محيي الدين وقال: سأضرب عن الطعام ولن أكل بعد اليوم مما تقدمه إدارة السجن، لأنها وما تقدم، على ضلال وأنا لا أطيق عذابك يا أرحم

الراحمين، ولا أطيق طعم البطاطا، ثم بكى في تأثر مبين.

ثم تلاه في العصيان وإعلان الصوم أخوه الأصغر، قمر الدين، فتفاقمت الأوضاع، وازداد الوضع السياسي في القاووش انفصاماً وتأزماً، ووجدت بقية الفصائل السياسية (من الموقوفين) في موقف آل البركات ما يحرّضها على الأكل، فانهالت على البطاطا الساخنة قضماً وبلعاً، حتى ابتلت من أفرادها العروق وبدأوا يحمدون الله على ما أعطى، ويمسحون على بطونهم وحلوقهم، وكلهم اطمئنان وامتنان للدور السياسي الذي تلعبه البطاطا، وولدا البركات المضربان عن الطعام، ينظران إلى السطل الذي ما زالت البطاطا تملأ منتصفه وقد جفت منهم العروق وتبللت المآقي، وهم يبسملون ويحوقلون ويرددون: اللهم ابتليتنا فلا تُعرّضنا.

في اليوم الثاني، وبعد سطلين إضافيين من البطاطا والقضم والبلع، وصل محيي الدين البركات إلى قرار، فانقض فجأة على سطل البطاطا وبدأ بالالتهام، وانقض أخوه معه دون سؤال ولا كلام، وعندما شبعا وحمدا الله على ما أعطى وقَسَمْ، بادر محيي الدين البركات الجميع بالكلام فقال: لقد كنا على خطأ، والعودة عن الخطأ فضيلة.

ـ ولماذا كان الإضراب عن الطعام خطأً؟ تساءل رضوان الدوارة، من الحزب الأممي، لقد كنا نفكر بالتضامن معكما والإضراب عن الطعام بكل أنواعه ما عدا البطاطا، لأن حزبنا يحترم البطاطا ويحض عليها ويعتبرها طعام الجماهير.

ـ لم نكن نريد من أحد تضامناً ولا بطيخاً... فكلوا من البطاطا حتى تنفجروا.. لترضى عنكم أحزابكم.

ـ فلماذا عدتما إلى البطاطا؟ قال ابن الهبراوي أسعد.

ـ عدنا لأننا كنا على خطأ.

ـ كنتما على خطأ؟ تساءل الجميع، ولماذا؟

ـ رد محيي الدين البركات: الإضراب عن الطعام يوهن الجسم ويضعفه، وقد يؤدي للموت، والموت مع الإضراب مثل الانتحار، والانتحار معصية كبيرة وكفر.

ـ لم أكن أعرف أن البطاطا، تعلّم الإنسان الفقه، قال ابن الهبراوي نعسان ممازحاً.

ـ ليست البطاطا، بل الجوع، أجاب ابن الدوارة، والجوع لا يصنع العلم، بل يقلب الدنيا ويغير الأحوال.

* كان الحاج ديبو المكانسي في وضعية التكوم على نفسه وعلى روحه مثلما تتكوم الحامل على جنينها في شهرها الأخير، فلقد تورّم الدمّل الذي يغلق حالبيه ويفصل بشساعة بين رأسه وأسفله، وتحوّل لجلده من الصفرة اللامعة إلى الزرقة الخافتة، فعض على لسانه من الألم حتى أدماه، وبدأ يوقع برأسه على الجدار ضربات متناظرة من مقام الهزج، وهو يغني في أنين مكتوم، يا لأسمر اللون يا لأسمراني.

في اليوم الخامس دخلت البطاطا إلى الزنزانة، كأنما هي من جملة السجناء، فأحس المحتجزون نحوها بالتضامن، بينما كان رجال الشرطة وإدارة السجن يقتسمون الطعام الذي أحضره أقرباء المحتجزين وأهاليهم ويكومون الحصص أمامهم، ويبدأون بالتهامها، وهم يؤكدون أن حلب مدينة لا تضاهيها أي مدينة في صنع

الطعام الطيب، وفي محبة الأولاد.

ـ ثم تابع رئيس المخفر الكلام: مثل هذا الطعام الطيب، يشجع الناس على معارضة الدولة، والدخول إلى السجون، ونحن من حقنا على أنفسنا ومن حق الدولة علينا أن نمنع المعارضة من تحقيق أهدافها. وأتم حديثه بعد أن ابتلع قرصاً تاماً من الكُبَّة، يعني والله لو ضمنت لي الدولة أن آكل مثل هذا الطعام لدخلت السجن برضاي.

ـ كلامك يا سيدي يساوي ثقله ذهباً، قال رئيس الدورية الرقيب جمعة الذي ذهب إلى بيوت الموقوفين بيتاً بيتاً وأحضرهم عداً ونقداً، البطاطا ستعلمهم ما يعجز عنه الكرباج والدولاب.

ـ وماذا ستعلمهم البطاطا؟ تساءل رئيس المخفر مستفهماً.

ـ بعد أيام من أكل البطاطا يا سيدي، ستتصمغ أمعاؤهم ويصابون بالكتام، ويعجزون عن الخروج، فتتصدع رؤوسهم وتتبلبل أفكارهم، ويشكلون حزباً لمعارضة البطاطا وتأييد الحكومة، وتفضل يا سيدي هذه المحشية.

ـ تناول رئيس المخفر محشية الباذنجان شاكراً وهو يقول: هل تعرف يا رقيب جمعة كل شيء فهمته، ما عدا أن تقبض الحكومة على ولدين من بيت الهبراوي وهما من حزب الحكومة، قال حتى لا تلفت إليها الأنظار ولكي تظهر بمظهر الحكومة الوطنية ويحبها الشعب، يعني والله والله الشعب لن يحب هذه الحكومة، حتى ولو قبضت على جميع أعضائها ووضعتهم في السجن، والأنكى من ذلك أن مركز الأمن في العزيزية، يؤكد أنهما ولدان نشيطان

ولم تصدر بحقهما عقوبات، هذا يعني أن الشابين عندما سيخرجان سيشتغلان بحزب البطاطا ولن يعودا للحزب.

خلال هذا الحوار الهادئ المملوء بالموضوعية والأطعمة الدسمة، وصلت أصوات الصراخ والشتائم وأصوات الضربات العنيفة، من غرفة الحجز الوحيدة، فقطعت على المتحاورين الطعام والكلام، وبدأوا بالإصغاء والانتباه.

حاول الرقيب جمعة أن ينهض ليتبين الأمر، فطلب منه رئيس المخفر أن يتجاهل الأمر ويتابع الأكل والحوار.

ـ دعهم لِما أرادوا، إنهم يعاقبون بعضهم، أحزابهم متصارعة وأفكارهم متضاربة، ومن الضروري أن يحركوا أجسادهم وأذرعهم بالضرب حتى تتحرك البطاطا في أمعائهم.

ـ والله معك حق يا سيادة الرائد، إذا ضربوا بعضهم يوفرون على الحكومة مهمة ضربهم، تفضل هذا الصاروخ من الكبة، وناوله درويشاً من الكبة مملوءاً باللحم والشحم والبصل والبهار.

* الذي جرى وصار في غرفة الحجز كان ضرورياً أن يحدث في أية لحظة، فبعد أن التهم المحتجزون الكرام سطلاً من البطاطا المسلوقة، وبينما هم في حالة تقشير وتفكير وتأمل، خطر ببال عادل الشرم، وهو من الناصريين العتاة، أن يعود لطرح موضوع الوحدة، محاولاً أن يفصل بينهما وبين المداخلات الديماغوجية التي طرحها أولاد البركات حول تكفير الوحدة والقائلين بها، غير أن الرد هذه المرة جاء على لسان ابن الهبراوي نعسان الذي أدهش الحضور بفهمه وسعة اطلاعه، وأسهم بإيصال الحوار إلى ما وصل

إليه من ضرب وترفيس وتعفيس.

ـ يجب في كل حوار أن نفصل بين الأشياء، فالوحدة شأن أرضي، والتوحيد شأن سماوي، وعلينا في الكلام أن لا نخلط بين عباس ودباس، هذا التقسيم أعجب به المستمعين الكرام، لكن عباس ودباس هذه أقلقتهم فابتلعوها مثل حبة غير ناضجة من البطاطا، وبدأوا بالمزاورة والكلام واختلاط الشجب بالتأييد، والوحدة بالتوحيد، وتهم الكفر بتهم العماله وتعالت الصرخات والقبضات، والواحد ينتصر لحزبه ومعتقده وينتهك سواه، والحاج ديبو المكانسي مختار الحارة، داخل في التذكر والمتابعة ورأسه إلى الجدار، وعند حالبه زوابع من الحنين، والضرب المُمِضّ، لذلك عندما ترجّه الصرخات يتكوم على نفسه، محاولاً أن يلصق ركبته بذقنه مثل جنين فيحول الدمّل بينه وبين أمه وذكريات طفولته، ويدفعه بعيداً لتقمّص هيئة المرأة الحامل التي ترجها عوامل الموت والولادة، والعض على النواجذ والذكريات.

فيا له من حوار، كل واحد في الحجز ينجز ولادة تخصه، وموتاً يخص سواه، إلا الحاج ديبو، فإنه راكض وحده إلى فلاة طفولته، وحيداً وحيداً حتى يتلاشى ويذوب، لذلك تدهمه أمه وذكرياته، أقسى من مداهمات الحكومة وأمرّ وأعتى من حوارات أولاد الحارة الذين لا يعترفون بأبوته.

ويا بلداً من الحارات العاتبة، والبطاطا والدمامل المفاجئة لماذا حدث ما حدث؟

بعد فترة من الصمت والمزاورة تابع عماد الشرم: مع الحكومة حق في أن تعتقلكم، أنتم أعداء للوحدة ولستم دعاة لها، فقذفه

الهبراوي بحبة البطاطا التي في يده، فانهرست على جبهته، فرد الأخوان الناصريان فأحنى المستهدفان رأسيهما، حتى لا تنهرس البطاطا الطائشة عليهما، فأصابت سواهما، وجنَّ جنون الجميع، وانهال كل واحد على الأخر بيديه ورجليه يريد الإجهاز عليه، وتعالى الصراخ والصفعات والرفسات. كان التنسيق بين الفرقاء من القوى السياسية المتصارعة واضحاً، على صعيد الأفكار والضربات، لذلك برز العمل العائلي المشترك كمحتوى عميق للوعي السياسي، لذا كان الأخوان ينقضّان معاً في الكلام والضربات، فبعد أن أعيا الجميع ما لاقوه من بعضهم من هجوم ونزق ترنّحوا وتهدلوا على حواف الجدران والأرض، لحظتها دوّى الانفجار العظيم، فالحاج ديبو المكانسي الذي احتمل دُمّلَه، واحتمله دُمّلُه، لم يتمكنا في ظل الحجز والبطاطا والحوارات السياسية الساخنة من متابعة الاحتمال، فسعى كل منهما لإطاحة صاحبه، وحصل الانفجار، وامتلأ المخفر بالدوي، فاندهش رئيس المخفر واندهشت اللقمة في فمه، فشرق واحتقن وجحظت عيناه، فعاجله حضرة الرقيب بضربتين على ظهره، تقبلهما رئيس المخفر بحسن نية، ثم تابع بعدها البلع ومسح عينيه وتساءل عن الصوت ومصدره، وهو يشبه صوت انفجار دولاب سيارة، وتساءل: هل يوجد في المخفر عندنا دواليب مؤهلة للانفجار، فالصوت قريب كأنما جاء من تحت طاولتي؟ وللزيادة في الاطمئنان نظر تحت الطاولة فلم يجد شيئاً.

أما الرقيب فقد نفى أن يكون داخل المبنى أي شيء له علاقة بالدواليب والسيارات، ثم تقاطعت أفكارهما ونظراتهما فخرجت من فميهما عند برهة التقاطع كلمة واحدة، إنه الدُمّل، وهرعا معاً إلى القاووش.

حاولوا أن تتخيلوا يالتصوير السينمائي البطيء، كيف ينفجر الدمّل الكبير المملوء بالكلام والأسى والاحتجاز الطويل.

لقد حصل الانفجار بقوة وبطريقة مفاجئة، فتطايرت الأشياء اللزجة إلى الوجوه والمعتقدات، وتوقف المتعاركون عن متابعة المعركة، والتفتوا إلى جهة الصوت دون الالتفات إلى ما أصاب وجوههم.

كان الحاج ديبو المكانسي ينتظر حدوث الانفجار ويستعجله، وقد أسهم الشبان العقائديون بحواراتهم المتواترة، ومعاركهم في تسريع وتيرة الغليان الكبير الذي ينتاب الدمّل وشيخ الحارة، وعندما حصل الانفجار، غادرت المخاوف وجه الرجل المصاب، وتنفس نفسين عميقين ونظر بمحبة إلى الأولاد المتصارعين، وقال جملته الأخيرة: ليتني أستطيع أن ألعب معكم يا أولاد. ثم غفا دون سجن ودون حارة، ودون زوجة خائفة. عند ذلك انتبه الأولاد إلى أجسادهم المشدودة وقبضاتهم المغلقة، وداخلهم سلام غريب، فتذكروا الرجل وكلامه ودمّله، وتذكروا الحارة والأهل، فتراجعت أجسادهم إلى الجدران وانسدلت على الأرض مثل رايات تالفة وتساقطت رؤوسهم بين رُكَبِهِمْ ثم دخلوا في البكاء العميق وكان في السجن حزن، وفي الحارة، وعلى الناس.

أمام هذا المشهد، كان رئيس المخفر يحك ذقنه ويتأمل، ويقدح زناده فكره مستنجداً بالأنظمة والقوانين المحفوظة لتلهمه مخرجاً أو حلاً، عند ذلك أنجده الرقيب بالكلام، علينا أن نكتب تقريراً ونتصل بالطبابة الشرعية، ليتسلموا الجثة.

ـ هذا ما كنت أفكر فيه، قال رئيس المخفر.

* بعد ذلك تم استدعاء الموقوفين جميعاً، فوضعوا تواقيعهم على الكلام بعد أن قرأه عليهم رئيس المخفر، وفيه أن الرجل الموقوف ديبو المكانسي، قد مات بسبب دمّل أحضره معه، وأن الميت لم يتعرض قبل موته للضرب والتعذيب، ثم حُمِلَ الجثمان بعد لفه ببطانية قديمة، ووضع في مؤخرة سيارة اللاندروفر، لتمضي به إلى الطبابة الشرعية.

أما الحارة وقد نكبت وفي أيام متقاربة بموت ثلاثة من رجالاتها العظام: جلال الجلالي، وجمال عبد الناصر، وديبو المكانسي، فقد أحست كأنها حارة معلقة بالهواء، وقد صادف وصول الخبر أن الجو كان مشمساً، وأن نساء الحارة جميعاً قد نشروا الغسيل على الأسطحة، فهبت الريح وحَرّكَتِ الحبال والغسيل، فبدت الحارة كأنها ستطير.

في غياب الثلاثة الكبار، أصبح عامر الفضلاوي كبير الفضاولة صاحب القرار، فأمر بتشكيل وفد وذهب الجميع إلى الطبابة الشرعية لتسلم الجثة، وقد حرص الجميع على أخفاء الخبر عن زوجته المريضة وولده الصغير وبناته الكثيرات.

* في الطبابة الشرعية حدثت تعقيدات تقنية اضطر فيها الجميع للانتظار حتى تأتيهم الردود والأخبار، وبعد مدة صدرت التعليمات من الطبيب الشرعي بأن الجماعة المحتشدة غير مؤهلة لتسلم الجثة لأنه لا يوجد فيها أحد من أقرباء المتوفى، وبعد التفاوض مع الطبيب الشرعي وشرح ظروف زوجة المتوفى المريضة، وابنها الصغير وأن بقية أولاد المتوفى من البنات ولا يستطعن الحضور.

عند ذلك وافق الطبيب على تسليم الجثة، وعندما ذهبت الجماعة

لتسلم جثة مختار الحارة لم يجدوا لها أثراً، فشهقوا مذعورين وعادوا إلى الطبيب والأسئلة، فتذكر الطبيب الأسباب التي دفعته إلى عدم الموافقة على الإبقاء على الجثة بعد فحصها، وهي عدم وجود (جليد) لحفظها، لذلك أُرسلتْ فوراً، وقبل أن تفسد وتنتشر الروائح، إلى مشفى الجامعة للاستفادة منها في الدروس التطبيقية لتلاميذ كلية الطب، بهدف تطوير البحث العلمي.

وعندما تساءل الجميع ما العمل، قال الطبيب الشرعي: سأعطيكم ورقة لتسلم الجثة من المشفى، وإن كنت أُفضِّلُ أن تتبرعوا بها لإدارة المشفى، فأجابه أحد الموجودين: وهل الجثة لنا حتى نتبرع بها؟ نريد الجثة لندفنها في مقبرة الحارة، والحارة لا تستطيع أن تنام بدون أولادها وجثثهم الحية والميتة.

* في المشفى دخل أولاد الحارة العجيبة بعد إبراز الموافقة إلى أحواض حفظ الجثث، وانتبهوا إلى المناظر المفزعة، وتسللت رائحة الفورمل إلى عيونهم وعقولهم، وعندما انتبهوا إلى الرجل مستلقياً في الحوض أطول من طبيعته وأكثر تساؤلاً واندهاشاً، والماء من حوله ومن فوقه، وعندما انتبهوا إلى جثته وبياضها العميق، وحفرة الانفجار عند حالبه، عندما تأملوا ذلك، قرروا جميعاً أن لا يموتوا بعد الآن، ثم تراكضوا إلى الأبواب مذعورين كأنما تطاردهم فصيلة من الجثث المبللة.

وكان في الحوض حزن وفي الحارة وعلى الناس

* وحده عبد العزيز السيوفي الذي رافق الحارة والجماعة بحثاً عن جثة مختارها، أعياه ما رأى، فتأخر بجسده إلى الجدار واستند إليه وأصبح مثل جثة خرجت لتوها من الحوض وركنت إلى الحائط

لتتذكر وتلهث... لذلك عندما خرجت الحشود بقي وحيداً إلى الجثث والأحواض وبقيت إليه، ولكنه، آونة الاصفرار والغيبوبة، سَمعَ وهو في وضعية الإصغاء إلى الرائحة الواخزة والصفرة العالية صوت استغاثة كأنما يناديه، فانجرف بجسده إلى حوض بعيد، وهناك يا لهول جسده منه ويا لهول بصره وبصائره!

هناك في الحوض البعيد وجد فتاة باهرة الحواف، طافية على وجه الماء بعريها البليغ، امرأة متراصة لم يهدل الموت أبعادها وبوادر ابتسامة غامضة على طرف فمها، وثدييها في البروز العظيم، وفخذاها منغلقون على سرهما... وحده شعرُ عانتها كان خارجاً من لجة الماء كأنما يستغيث، وعندما انتبه طويلاً وانتبه عميقاً دهمت روحه أصوات الاستغاثة ثانية فحاول أن يمد يده إلى المرأة علـه، علّـهـا، علّ الحارة والأرض والنـاس، علّ اللـون الأصفـر العظيم... الذي يمسك الأشياء الميتة من الناس والحجارة، ويترك الأرواح على سجيتها لتصرخ وتستغيث.

عندما امتدت يد السيوفي إلى المرأة وحوضها، اقترب الرجل الذي يرتدي ثوباً أبيض إليه ووضع يده على كتفه، فاستدار السيوفي.

ـ جثة مختار حارتكم المكانسي هناك، قال المسؤول عن الأحواض غاضباً.

ـ أعرف... واقتلع السيوفي جسده من الحوض ولم يستطع أن يقتلع روحه، ثم مضى إلى الباب.

وكان الجميع خارج الأحواض وداخلها، يشبهون نوعاً عظيماً من

البطاطا التي خرجت لتوها من الطوفان.

* بعد الانتهاء من دفن جثة المختار، جلس رئيس المخفر إلى نفسه ونظر في شؤون الحياة والمخفر، وانتبه إلى كميات الطعام ـ التي يرسلها الأهل إلى أولادهم المحتجزين ـ وهي تتناقص، وتتضاءل قيمتها، إذ ما معنى ـ سأل رئيس المخفر نفسه ـ أن يبدأ الأهل في أيام الحجز الأولى بإرسال الكبة واللحمة المقلية والمشوية، وينتهون بإرسال الأرغفة المدهونة برب البندورة؟ ونظر أمامه إلى رغيفين مكسورين من منتصفهما بسبب الجفاف وقال: ألم تعد في قلوب الناس رحمة؟ ألم يعودوا يحبون أولادهم؟ ثم قرر من وقته وساعته ادخال سطل البطاطا المسلوقة إلى غرفته، وإرسال أطعمة الحارة إلى أولادها، وقد لاحظ المحتجزون هذا التغيّر المريع في وجبات طعامهم، فطالبوا بزيادة المياه حتى يتمكنوا من البلع، وجلسوا على حواف القاووش، يتذكرون الحاج ديبو المكانسي، وصمته وأسنانه وهي تأكل بعضها وحواراتهم وهي تأكلهم، وأحس كل واحد منهم بأنه مسؤول عن موت الحاج، تذكروه طويلاً وتذكروا أيام البطاطا العظيمة، ثم هرعت أيديهم إلى الماء بعد أن دهمتهم الغصات، دون أن ينتبه الجميع إلى المجارير التي تجلطت وانسطمت بفضل البطاطا والمنجزات.

* مرّت أيام عديدة لم يعد معها رئيس المخفر يحتمل البطاطا أبداً، وقد دفعه ذلك للتفكير في أحزان الموقوفين ووحشتهم والخوف من نسيان إدارةِ الأمن في العزيزية لهم، كما فعلت مع كثيرين غيرهم، عند ذلك من يمنع أهل الحارة من دهم المخفر وتخليص أولادهم من الاعتقال، عندها سيتبهدل أمام الرؤساء والأتباع، وسيصبح حديث جميع المخافر، وسيضرب به المثل في التهافت والتهاون

وعدم الانتباه، لما تحوكه البطاطا من مخططات، لذلك قرر أن يدعو الرقيب ليملي عليه.

* وقد تضمن الكتاب تساؤلاً خجولاً معللاً عن مصير المعتقلين السياسيين في مخفره، وهل حددت مدة زمنية لبقائهم؟ ثم وجد الجو مناسباً للدخول في أسباب التساؤل، فاستفاض رئيس المخفر في شرح الأسباب الجوهرية التي دعته لإرسال هذا الكتاب، ويأتي في مقدمتها المجارير، فإنه، وبعد أن دخل إلى غرفة الحجز فجأة ثمانية من الموقوفين السياسيين، وتبعتهم عشرة أكياس بطاطا ممتازة من مديرية الأمن، فإن المجارير بصراحة لم تعد تحتمل، ولأن المجارير قديمة، فإنها قد تنفجر من شدة الضغط إذا تتابع قدوم الأكياس، لذلك، نضع الموضوع في عهدتكم وبين أيديكم بعد أن وضعناكم في صورة المتغيرات، وإذا لم تستعجلوا في البحث عن حلول، فإننا نعتقد أن الفضلات والجرذان والروائح، ستفجّر جدران السجن وتحرّر المعتقلين. أما إذا استعصت عليكم الحلول، فإننا نقترح حلاً مؤقتاً، وهو السماح للمعتقلين بالذهاب إلى بيوتهم تحت الحراسة ليزيحوا ضروراتهم هناك ويعودوا سالمين غانمين، أو أخذهم في طابور إلى باب الفرج ليعملوها في المراحيض العامة تحت الساعة رغم ما في ذلك من محاذير وشبهات.

وللبيان حرر

رئيس مخفر الكلاسة الرائد

(عدنان البارودجي)

بعد أيام من إرسال الكتاب، وصل الجواب إلى رئيس المخفر، وفيه تنبيه إلى التطاول ورداءة المفردات، وتحذير من مغبة التساؤلات التي

تخدش الأمن والحياء وهيبة السلطات، أما عن الأسباب الأخرى المتعلقة بالمجارير، فإن جهاز الأمن بصدد وضع دراسة وافية يستبعد فيها البطاطا من الأسواق.

الحقيقة أن لهجة الكتاب نزلت كالصاعقة على رئيس المخفر، فشعر بالخوف والتعرّق، وأحس بنفسه ضئيلاً ورخواً، كأنه في رتبة حارس ليلي، فازداد تعاطفاً مع الموقوفين والمظلومين، وكاد أن يكتب قصيدة في هجاء الأمن والحكومة، غير أنه أحجم عن ذلك بسبب تهافت لغته وركاكة أسلوبه. وعندما رفع رأسه انقضت عليه غيمة من الروائح والذباب، فقرر أن يتصل بالدفاع المدني ويستدين كمامة واقية من الغازات السامة باسمه الشخصي لتحميه من الروائح، وقد وضع الكمامة الحربية تحت شعار، الاختناق بسبب الكمّامة أفضل من الاختناق بسبب الروائح، ثم جلس بعدته الكاملة وراء الطاولة ينتظر مثل كائن من الفضاء، واستمر في الانتظار حتى نام.

في الكتاب التالي، الوارد من مديرية الأمن، غادرته المخاوف بعد أن قرأ الكتاب، فجمع الموقوفين وأطلعهم على فحواه، وطالب كل واحد منهم بتقديم تنازل خطي يعلن فيه الانسحاب من حزبه أو تنظيمه كشرط ضروري لإطلاق سراحه، فانتبه الموقوفون إلى النص، وطالب قمر الدين بركات بإعادة تلاوته، فأعادها الرقيب، وبسبب من تكدّسَ الروائح الضارة في رؤوسهم فقد تناوب الموقوفون على طلب إعادة القراءة ليكتمل الفهم، وعندما أتم حضرة الرقيب القراءة العاشرة، أجابه الجميع بأنهم لم يفهموا شيئاً، فتمت إعادتهم للحجز ثانيةً.

وفي اليوم التالي، عندما أعاد رئيس المخفر عليهم قراءة الكتاب

وشروطه، ازدادوا تشدّداً ورفضاً، فلم يستطع رئيس المخفر الاحتمال ورفع الكمامة عن وجهه وانخرط بالبكاء، وقال متوسلاً: أرحموني، الذباب والروائح يخرجان معي من المخفر إلى البيت، زوجتي صارت تكرهني بسببكم، وصرت أخشى عليها من تركي واللجوء إلى بيت الجيران، فأرجوكم وافقوا وخلّصوني من هذه المحنة، ثم أعاد الكمامة وتابع التنهد والشهقات

* بعد أن أعلن نهاية الاجتماع وجلس وحيداً يتابع الذباب والأفكار، حتى خطرت بباله فكرة راقته كثيراً، وخشية منه على الفكرة أن تطير منه مثل ذبابة، سارع إلى إغلاق فمه وتدوينها ومتابعة تنفيذها فعساها تفلح مع هؤلاء الأوغاد، لذلك استدعى حضرة الرقيب وطلب منه إحضار وجوه حارة المغاير وآباء الموقوفين وأمهاتهم بهدف عقد لقاء معهم لتحريك مشاعر الأبوة فيهم حتى يضربوا ضربتهم ويقنعوا أولادهم بالانسحاب من الأحزاب.

* في بيت الفضلاوي تم الاجتماع، وقد تقصّد رئيس المخفر أن يحضره وحيداً حتى تتحقق الألفة والصراحة، وقد حضر الاجتماع وجوه الحارة، وآباء الموقوفين وأمهاتهم، إضافة إلى قيس الأشوص ابن زعيم الفضاولة. وقد أكد رئيس المخفر في مستهل اللقاء أنه سيخرج الأولاد على مسؤوليته إذا وعده رجالات الحارة وآباء الموقوفين بإقناع أولادهم بكتابة تنازلات خطية مذيَّلة بتوقيع الأبناء الشخصية يعلنون فيها انسحابهم من تنظيماتهم السياسية، وقد وجدها الآباء ووجدتها الأمهات بادرة حسن نية من الحكومة، فوعدوه خيراً.

غير أن رئيس المخفر لم يشعر بالاطمئنان الكافي، لذلك تابع الكلام: يبدو أنكم لا تعرفون أولادكم معرفة جيدة، لقد أصبحوا

أكثر صلابة بفضل الحجز والبطاطا والروائح، وما عاد الواحد منهم يفهم إلا نفسه، عشرون مرة بالتمام والكمال قرأت عليهم الشروط ولم يفهموها، رغم وضوحها واعتدالها وحسن نياتها.

ـ زأر الآباء: سنكسر رؤوسهم إذا لم يفهموا.

ـ ولولت الأمهات: ليسوا أولادنا ولا يعرفون حليبنا إذا لم يوافقوا.

أعجبت هذه الحماسة رئيس المخفر، فتأمل الوجوه ودخل في التأثر.

ـ لي شرط لتنفيذ ذلك.

ـ ما هو؟ تساءل الجميع.

ـ أريد ضمانة.

ـ ما نوع هذه الضمانة؟ تساءل عامر الفضلاوي زعيم الأشاوصة، إذا كنا نستطيع فلن نتأخر.

ـ الضمانة بسيطة، أريد رهينة أبقيها عندي في الحجز حتى تأتوني بالتنازلات الشخصية من أولادكم.

ـ هذا سهل، لقد تعودنا على تقديم الرهائن، اختر واحداً من الحاضرين وخذه معك.

ـ أنت كبير الحارة، وأريدك أنت أو ولداً من أولادك، من أجل ضمان النتائج وسرعة التنفيذ.

ـ أنا ذاهب مع رئيس المخفر ومعاونيه، أجاب قيس الفضلاوي الأشوص وعيناه تتحركان بغرابة وعمق.

انتبه رئيس المخفر إلى الولد المتكلم، وانتبه إلى حركة عينيه، فالتفت

إلى عامر الفضلاوي قائلاً: ألا يوجد عندكم ولد سواه، يراني وحدي دون معاونين؟

* عندما خرج المحتجزون من السجن كانت الحارة بشعبها على الباب، فاستقبلت الوِلْدَانَ بالعناق والحنين، وبين الحشود كان المغربي والسيوفي يتحفزان، أما قيس الفضلاوي فقد كان داخل المخفر يقوم بدور الرهينة، ورئيس المخفر قاعد وراء الطاولة يشهق بانفعال من شدة الثقة، ووطأة الهواء الملوث والروائح الضاغطة، وبعد كل شهقتين يهز رأسه متباهياً في هيئة رجل الأقدار ممسكاً أطراف الطاولة حتى لا يقع من شدة الانفعال.

تقدم موكب المحتجزين، وأهالي حارة الكلاسة واقفون على الأرصفة وخلف الشبابيك وهم يرمقون أهالي حارة المغاير وتظاهرتهم، ويشعرون بالغيرة لأن الحكومة لم تنتبه إليهم ولا لأولادهم حتى الساعة، لتجعل منهم حارة مرموقة رغم روائح المخفر التي تعج داخل حارتهم وأرواحهم.

حين وصلت طلائع الأولاد المحررين إلى تخوم الحارة، كان كرنفال النسوة والفتيات يقف على المطالع، وفي صدر كل واحدة قبضة من الحنين والشوق الممض، عندما اقترب الموكب والتحم بكرنفال النسوة تداخل الجميع بالعناق، الأمهات بالأولاد، والأخوات بالأخوة والفتيان بالفتيات، وكان الواحد للواحدة، والواحدة للواحد، مثل الحرية وأغلى، مثل الماء وأغلى، لذلك دخلوا بقوة إلى العناق، وضغطوا بقوة على الظهور والحفاوات حتى تعالت الشهقات، ووصلت إلى أذني وحيدة أخت عفراء الحبال، القاعدة وحدها على السطح مثل غسيل إلهي أبيض مبلل.

وحدهما محيي الدين وقمر الدين البركات المتشددان، وعندما عاينا بداية العناق، تسللا إلى أطراف الجمهرة، وبدآ بعينين دامعتين يراقبان الحفاوة والحب، ويدعوان على الناس بالهداية، وهما في غمرة التأمل والأسى وقعت أعينهما على أختهما سائدة، وقد همت بالحشد وهمّ بها، فصرخا صرخة موحدة واخترقا الحشد ثم انقضّا على الأخت الذاهلة وجراها من شعرها أمام أسماع وبصائر العيون والصدور المستجيبة للعناق، فارتبك الحشد وانشطرت المودات والناس، وتم إفساح الطريق للأخوين الغاضبين وهما يرفسان الطريق ويجران جسد أختهما مثل عربة.

عندما دخلت عفراء الحبال إلى أختها وحيدة ووجدتها مكومة على السطح سألتها: كل بنات الحارة خرجن إلا أنت.

ـ ليتني أستطيع الخروج مثلكن.

ـ لماذا لا تستطيعين؟

ـ العناق وحده لا يكفيني، والحارة لا ترحم.

ـ هل يكفيكِ البقاء على السطح.

ـ من مكاني شاهدت محمد المغربي، أجمل شباب الحارة بعد حمزة الواقدي الذي مات.

ـ وأنا شاهدته، وحاولت أن...

ـ وما استطعتِ... كنت أراقبك..

ـ كان يداري نفسه عني.

ـ قد لا يريد.

ـ يريد، ولكنه يخاف.

ـ ربما لأنك انفعلتِ بالعناق مع سواه.

ـ لا أعرف، لم أكن حاضرة الذهن.

بعد أن دخل المحتجزون إلى البيوت وأزالوا عن أكتافهم حرارة العناق وعن عيونهم تجهم البطاطا، وعن عقولهم غبار الحوارات واستسلموا باشتهاء للماء الساخن، خرجت إليهم مسامهم في حالة لم يألفوها، ولامسوا جلودهم كأنما أتم الماء خلقهم للمرة الأولى، وقبل أن ينتهوا من الحفاوة بأجسادهم ويبدأوا بتجفيفها، جاءتهم الدعوات المستعجلة لحضور الاجتماع في بيت عامر الفضلاوي برفقة ذويهم من الآباء والأمهات، من أجل عقد جلسة ختامية لوضع التواقيع والموافقة على الانسحاب من الأحزاب، وتسرب الناس من البيوت وانصفقت الأبواب وتلاقت الجمهرات، القاصي والداني والصغير والكبير.

في بداية الاجتماع، تليت آيات بينات من الذكر الحكيم، ثم صلى الجميع على محمد سيد الخلق والعالمين ومسحوا وجوههم بأكفهم وانتظروا.

* تقدم عامر الفضلاوي وأعلن بيان الحارة ورغبة الآباء والأمهات والمقربين والتابعين في أن يعلن أولاد الحارة انسحابهم من الأحزاب السياسية المتنوعة التي يعملون لصالحها، وطالب الجميع بالعمل في المكانس والحبال، فهذا أجدى وأنفع وقال: بعد أن اجتاحت الحارة خيوط النايلون، وصار اعتمادنا على اليابان بعد أن كان اعتمادنا على الباكستان التي كنا نشتري منها خيوط القنب والجوت، ونصنع منهما الحبال والأكياس، وفجأة انقذفت عيناه إلى

الأطراف، وبدأ يخلط بالكلام.

ويا أهل الحارة، ما عدنا نشم رائحة القنب بعد رشه وترطيبه بالماء، ما عدنا نشم الرائحة الحنون، وما عدنا نذهب لضفاف الأنهار لشراء القش والبردي بأسعار كافرة، خيوط النايلون حلت المشكلة، لا رائحة ولا بطيخ، لكننا صرنا ننتبه إلى لحم أيدينا وكفوفنا حتى لا تسرقه خيوط النايلون الغادرة منا، ونحن نجدله على السندات والدواليب، لذلك ومن أجل الحارة، التي ليس كمثلها حارة في الأرض أو السماء.

* عندما عاد عامر الفضلاوي لذكر الحارة، بدأت عيناه تتحركان ببطء وتعودان إلى موقعيهما، فتذكر ولده الرهينة، فدمعت عيناه وصاح مستشاطاً: والله يا عرصات إذا لم توقعوا على أوراق الانسحاب هذه الساعة سأكسر رؤوسكم، وأخرج أمخاخكم وأضع بدلاً منها بطاطا مسلوقة مثل تلك التي أكلتموها في قاووش الحكومة.

كان الشبان السياسيون في وضعية الانتباه والتساؤل، وقد نسوا أنفسهم وبدأوا يفكرون بأحوال الحارة وأحوالهم، وغزو خيوط النايلون والبطاطا لهم ولعقائدهم.

عند ذلك زأر الأولاد بصوت واحد: لن نوقع.

ـ ولكنني وعدت رئيس المخفر.

ـ وقع أنت!

أنا لا أفهم مثل هذا الكلام، إما التوقيع على الانسحاب التام أو

الموت، ثم أشار بيده إلى صدر باحة الحوش فانشطر الناس، وظهرت جماعة من المقاتلين وقد تسلّحوا بالعصي والحبال، وقد اضطر عامر الفضلاوي من أجل التحضير للمناسبة أن يستعين بميليشيات ابنه قيس الأشوص، وقد اتفق معهم على التنفيذ، وما بين غمضة عين وانتباهتها، انقضَّت الميليشيات على صفوة أولاد الحارة ومجدها، من المتشددين السياسين العظام وانهالت العصي على الرؤوس والأكتاف والظهور، ودخلت النساء بالولاويل وصرخن في أولادهن: وقّعوا يا أولاد الكلب وخلّصونا. وصرخن بامتنان وهن يوجهن الكلام إلى الميليشيات المهاجمة: الله يسلم أيديكم ويحميكم على هذه المروءة وهذا الضرب. ثم توجهن إلى الفضلاوي وبعقن في وجهه: الله يديمك على رأس الحارة، يا حنون يا ابن الحرام!

بعد أن حصل الانقضاض، واستوت الرؤوس من الضربات والدم، انقض كل واحد من عناصر الميليشيات على إبهام كل واحد من الخارجين على إرادة الأهل والحارة الزعيم، وتقدموا إلى الوثيقة فغمسوا كل إبهام بما يكفيه من الحبر الأسود، وضغطوا الإبهام على ورقة الانسحاب حتى ضاقت الورقة بالبصمات الغامقة الكبيرة، فيا لها من قيامة، ويا لهم من أولاد، وقد أحس بهم الوالدون والوالدات وقد كبروا أكثر مما يتوقعون ويعون، دون أن تخطر ببال أحد فضائل الجوع والبطاطا والوشايات ، ويا لهم من أولاد، وعندما وضعت الأمهات والآباء أنوفهم عند أعناقهم لم يلمحوا فيهم سوى رائحة الجنة والشوق المقيم، لذلك لم يتمكنوا من رؤية تظاهرات الذباب وهي تحيط فضاء الأولاد بالحفاوة والأزيز.

وعندما حضرت الأوراق لستر العورات يوم الخطيئة العظيم، وحضر

الحبر لصياغة خطبة الوداع، حيث سيتبرأ الواحد من جلده ومعتقده، وحضرت النظرات الغاضبة وغابت الدموع.

وقف الآباء والأمهات في هيئة الأطفال ودخلوا في التوسل والمناشدة ودخلوا في طور الحكومة والمؤسسات، وكل منهم يعلن أبوته ويباعد بين ساقيه، وكل واحدة تعلن أمومتها وتعصر ثدييها لإخراج الحليب والذكريات، والحارة ذاهلة والناس ذاهلون، وفي غياب عاتكة الجلالي وحمزة الواقدي ماذا يمكن لعفراء الحبال أن تفعل سوى أن تتفرس في الحشود لتخص محمد المغربي بنظرات لا تفنى وصدر لا يهون.

لقد قررت الحارة بعيون صفوتها، وبعد أن عاينت جثة الحاج المكانسي وهو في حوض (الفورمول) أن تحافظ على الأولاد وتلعن الزمان وتدخره لدفن العقائد واستعادة الأولاد، وقرر الجميع قبول اللعنة، قرروا ترك الحارة والنزول إلى الأرض.

هكذا عندما وضع الأولاد تواقيعهم في هيئة الكَتَبَةْ والفريسيين تلوّت الأجساد من شدة الفزع والضربات، وظهر العويل كلفة مجيدة، وفي غياب الأب والأم وروح المجالدة، وقّع الابن القدس، فيا للمنتبهين من شدة الهول والفزع، يا لهم عندما حُملت الأوراق ككفارة مملوءة بالدم الأسود والأسى إلى جهة الحكومة، وتم بموجبها، وتم بعدها إعادة قيس الأشوص الولد الرهينة إلى ذويه بعينين مستقرتين.

فبعد التواقيع دوّت الأرض بالإيقاعات، وبدأ الحشد بالرقص حفاوة بشيء لا يعيه، وتساقط الدم عند مفارق الأنوثة حاملاً بويضات الحنين إلى الهواء والشمس، ويا أيها التراب، صاح الناس، إننا

نخرج منك ولا نخرج عليك، ويا أيها التراب ماذا نفعل بالوشايات؟

ثم ضمت الأمهات سيقانهن إلى الخيبة وقررن أن يمتنعن عن التوالد والهواء، وباعدت العذراوات ما بين أفخاذهن، وقررن أن لا يمتنعن عن الحب ولا التوالد، ولكنهن سيمتنعن عن تعليم أولادهن فضائل الانصياع للمخفر والبطاطا والحكومات.

وكان في الأرض سجن وفي السجن حزن، ودم على الحارة والناس.

ـ عندما اجتمع أقطاب الحارة، إلى عامر الفضلاوي زعيم الأشاوصة وصارحوه بالأمر، واستوضحوا ليشرح لهم بعض الكلمات التي وردت في خطابه البليغ في حفل التواقيع والانسحابات، بكى بين أيديهم وهو يقول: أنا مثلكم، لا أعرف الذي يصيبني، أما عن اليابان والباكستان، فإنها أسماء ما أنزل الله بها من سلطان، أسمعها في الراديو ولا أنتبه لمعناها، وأنا، وحق الله صرت أخاف من نفسي على بلدي، ثم صاح في وجوههم متنهداً أفتوني في أمري ورؤياي أو أعطوني ورقة لأعلن الانسحاب .

ـ هذه الكلمات فتّتت قلب قيس الفضلاوي حزناً على والده، فحمل الكلام وذهب إلى عاشور الطويل مدير المركز الثقافي ليسأله رأياً أو توضيحاً قبل أن ينقضّ على والده ويتسلم السلطة، وقد فعلها رجالات الحارة أيضاً وشكلوا وفداً قيادياً وذهبوا إلى الشيخ أبو الجدايل ليسألوا في الموضوع ذاته، بعد أن أحسوا بأن صورة حارتهم اهتزت في نفوسهم وأمام الرأي العام والحارات المجاورة.

عندما استمع عاشور الطويل لكلام الابن، وتفكر فيه، وأداره في ذهنه وقلَّبه على كل الوجوه والاتجاهات، قال في هيئة خطبة:

ـ عجيب أمر هذا الزمان، ما ينتابني من أفكار يصيب غيري ويتسرب مني، وما دام جمال عبد الناصر قد تركني ومضى، فليس غريباً أن تتركني أفكاري إلى الجهات الأخرى. إن زوجتي تؤكد لي دائماً أنها ضدي، لقد تزوجتها خلال أيام الوحدة، وكانت مقبولة، ولكنها وضعت خطة مضادة استطاعت فيها أن تصبح غيرَ جميلة بعد قيام الانفصال، وعندما طلبت منها أن تتجمل، هددتني بأنها ستطلب من أسرتها ذات النفوذ القوي في سوق الهال أن يحولوا بيني وبين تحقيق أحلامي وأمنياتي السينمائية وهي في مرات كثيرة تقول لي إنني أشبه الرئيس (جومو كينياتا) ولا أشبه الرئيس جمال عبد الناصر. منذ مدة وأحوالي لا تعجبني، فبعد أن وضعت الدول الكبرى أقماراً صناعية في الفضاء، ما عدت أشعر بالأمان، وصرت أطلب من زوجتي أن تنام بكامل ألبستها، حتى لا تبث الأقمار الصناعية صوراً فاضحة لصراخها الذي لا يحتمله أحد سواي، غير أن المشكلة أكبر من ذلك بكثير، هذه الأقمار الصناعية اللعينة تبث موجات لاسلكية إلى الأرض. بعض الناس من أمثال والدك وأمثالي حسّاسون أكثر من اللازم، ولدينا أجهزة خاصة هنا في رؤوسنا لاستقبال هذه المعلومات التي تحملها الموجات، لذلك نتكلم أحياناً كلاماً لا نفهمه ولا يفهمه أحد، لكن الحذر واجب، وإبقاء الأمر سراً واجب أيضاً، لأنني أخاف أن يتهم أبوك بالتجسس لصالح الكواكب الأخرى، ثم سأل الابن:

ـ هل تتحرك عيناه ذات اليمين وذات الشمال؟

ـ نعم وتتحرك إلى جهات لا يفهمها الناظر، ولا يتقبلها كافر.

-اربطوا له عينيه وفمه، حتى لا تسيء الحكومة فهمه ويصير معه ما يصير بيني وبين زوجتي من مواجد وأشواق.

ـ وهل يقف شعر رأسه عندما يتحدث مثل هذا الكلام ويصبح مثل قرون التيوس الحزينة؟

ـ يقف ويشبه، رد قيس الأشوص مضطرباً.

ـ اطلب منه أن يربط رأسه قبل أن يبدأ الهجوم، وامنعه عن نساء الجيران، وقرّب بين أمك وأبيك، فعندما لا يبث الرجل للمرأة، ولا تبث المرأة للرجل، تتدخل الكواكب والأقمار الصناعية والأحلاف لتبث على طريقتها وتحصل القطيعة بين الحارة والناس، وبين الرجل والمرأة والبنات والأولاد.

عندما تقاطر الأقطاب على الشيخ أبو الجدايل للنظر في وضع زعيّم الحارة عامر الفضلاوي والتحولات التي طرأت على شخصه، تفكر الشيخ في الكلام وفك جديلة من شعره وضفر سواها، وفك رابعة وضفر سابعة، وقضم رؤوس أصابعه التي لوحها الحشيش والبخور بالصفرة العميقة والارتهان فانعكست على نظرات الرجل، وطول أنفه ووجهه المندهش مما يرى ويسمع، ثم قال:

ـ أما عن هذه الأسماء، اليابان والباكستان، فهي أسماء أعجمية وهي بدعة، لم ترد في سند أو حديث، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، وأنا من جهتي ومن جهة البخور الذي أرشه على النار، ومن جهة أختي وأخواتي من الجن المؤمنين، أعتقد أن هذه

الأسماء غير موجودة على الإطلاق، فلا تخشوها ولا تخافوا إلا من اليوم العظيم، أما ما يخص صاحبكم فأمسكوا به وقيدوه واضربوه حتى تخرج شياطينه الكافرة من جسده، ثم طالبوه بتقديم تنازل عن أفكاره، وليضع توقيعه على التنازل، ثم أحضروا التنازل اللعين إليّ حتى أدخله وصاحبه في التوبة القبول، ثم بدأت كفا الشيخ وأصابعه بالتردد والارتجاف وصار ينتفض بجسده وأصابعه ويعبث بالجدائل، فيربط المحلول ويحل المربوط.

عند ذلك أحس الأقطاب بأن الاجتماع قد انتهى وأن الشيخ قد دخل في الحضرة وما عاد مسموحاً بالاستزادة والمكوث.

أما السيوفي فقد مضى إلى أمه وحكى لها عن تحولات الحارة والناس، ولم يذكر لأمه شيئاً... عن الصورة الهائلة لجسد المرأة التي تشبه حارة غارقة في حوض الفورمول، لماذا بقيت حية في وجده وذكرياته، ببروز صدرها العظيم وخبابا سرتها وشعر عانتها، الذي يمد أصابع وحدته خارج الماء كأنما يستغيث، لماذا رأى الصورة؟ ولماذا رأته؟ لماذا غادرها؟ ولماذا لم تغادره؟ لذلك سكنه هم كبير، وأحس بالضرورات تدفعه لمعاينة الجسد مرة أخرى، وبالقوى الغامضة تشده للأحواض ليتنشق روائح الفورمول ثانية وثالثة وليتأمل انفعالات الجسد الطافي الجسد المكتمل رغم موته وعريه البليغ وهو يعلن عن نفسه وجنسه دون مخاوف ومحاذير، فيا للحارات، كيف تترك بناتها للماء الزنخ؟ كيف تدفعهن للوحدة والأحواض والصفرة المعادية، ومن تكون هذه التي لا يسعها الماء؟

وتذكر ليلة الدم والأسياخ، في بيت عاتكة الجلالي التي زلزله وجهها وجسدها، عاتكة التي هربت لا يستر جسدها سوى الحب والمخاوف والغلالات الرقيقة والحارات المتجهمة. هل هيَ هيَ؟ هل

يمكن أن تكون، لذلك ارتدَتْ ملامحه مواجد حمزة الواقدي وصاح بصراخ لا يخصه: (أين أنت يا عاتكة؟) وهرول ثانية باتجاه المشفى والأحواض؟

ـ لهجته وطلبه كانا غريبين، رغم أدعاء قرابته لجسد الحاج المكانسي وكادت الدمعات أن تترقرق من عينيه وهو الذي تتقوس عيناه على ظلهما كأنما لإطلاق الصلابة والسهام، غير أنه أحس بالخوف من أن لا يفهم المسؤول عن الأحواض حاجاته، فاقترب لاهثاً متضرعاً:

ـ أريد أن أطمئن إليه، لقد رأيته في المنام ورأيت حوله وتحته الدود كأنما لم تعد للفورمول فعالية، أو لعله قفز مستجيراً من الرائحة إلى حارة معادية، لذلك أريد أن أطمئن عليه وألاقيه.

ـ فوجئ المسؤول عن الأحواض باللغة وحماسة صاحبها، ورغم الحظر والمحاذير استجابت نفسه للطلب، وقرّر إدخال السيوفي لمشاهدة الحوض، وعندما فتح الباب اجتازه السيوفي مهرولاً إلى جهة الحوض البعيد، وصدى خبطات قدميه على أرض الصالة الخاوية يرجّه ويدفعه إلى الوحشة واللهاث، وعندما اقترب أو كاد، انفجر صوت الرجل الأبيض بالكلام، الرجال هنا في هذا الحوض، هنا، هنا.

ـ أعرف، أعرف، وتابع السيوفي الطريق، حتى وجد عروس الماء، فتأمل ابتسامتها الغامضة، وصدرها العظيم المستعصي على التهدل والأقاويل، ولاحظ تكتم ساقيها على جوعهما، واستغاثات عانتها التي تتابعت في النمو رغم الموت والفورمول والصرير، وعيناها لماذا تغمضهما، وأي حلم وأي وجه يسكنهما.

خلال دوامة متسارعة من الأسئلة، قبضت كف الرجل الأبيض كتف السيوفي وبرمت جسده إلى جهتها.

ـ تريد مشاهدة الرجال أم النساء؟

ـ الرجال، الرجال.

ـ تعال معي.

في مواجهة حوض الرجال وقفاً معاً، ووجدا الماء وحده.

أين هو.

ـ ربما أخذوه في الصباح ليدفنوه. ألم يخبروك؟

ـ أخبروني، ولكنني...

ـ جئت لمشاهدة المرأة إذاً؟

ـ هل سيأخذون المرأة؟ قال السيوفي فزعاً.

ـ لا أظن. لن أسمح لهم.

ـ لماذا؟

ـ لا أدري. ربما لأنها، ألم تلاحظ؟ الفورمول لم يستطع أن ينال من جمال جسدها، كل يوم أتسلل إليها لأراقبها، في الليل أسمع أصوات استغاثة، كأنما هو صوتها.

ـ هل تعرف اسمها؟

ـ وجدها الناس تحت شجرة فستق حلبي، ومن يومها لم يأت أحد للسؤال عنها.

ـ هل يمكن أن يكون اسمها عاتكة؟ هل يمكن؟ سأل السيوفي

نفسه وهو خارج المشفى وخارج الأحواض، عاتكة لا. عاتكة أجمل، أجمل بكثير، ردد السيوفي هذه الجملة وهو في حالة من الغياب والتهافت، شيء ما يعزله عن نفسه ليردد الجملة وما يلبث أن يعود والجسد يطارده، يقفز إليه في النوم واليقظة، في الخلوات ومع الناس، يقفز إليه ليصادره ويعزله عن كل شيء عداه، وكان في كل مرة يضطر لترداد الجملة: عاتكة أجمل بكثير.

الكتابة الثانية (القصص)

بعد نجاحه في شهادة المرحلة الثانوية، وحصوله على مجموع عال، كثيرون حفّزوه للدخول إلى كلية الطب، غير أن السيوفي سكنه اعتقاد كبير بأنّ الدخول إلى كلية الطب يشبه كثيراً الغرق في حوض الفورمول والطفو على مياهه العاتية والاستسلام له دون صرخات، لذلك عافت نفسه التقدم لهذه الكلية، وَرَغِبَ أن يدرس الحقوق، غير أنه لم يكن في حلب كلية لهذا الاختصاص، فاتجه إلى كلية الآداب واختار قسم اللغة العربية فيها. كانت الآداب تلبي رغبات دفينة فيه، فمنذ أيام كتابته لحُجُب النساء، وهو يبحث عن نص يكتبه يستطيع أن يطوّر فيه أدوات نصه الحجابي الغامض ليصل إلى نص لا يحتجب فيه عن أحد، وقد أعطته كلية الآداب هذه الفرصة، فعزز علاقته بالقراءة والكتابة وملاحقة الفتيات فتشكلت فيه ثقافة أنهكته وأجحظت روحه وعينيه.

* حاول أول الأمر بالشعر، لكنه فشل فشلاً ذريعاً، فلقد أحس بأنّ

طبيعته الجافية لا تستجيب لإيقاعات الشعر وعوالمه، لذلك جرّب كتابة نصوص قصصية، وقد أفلح أحياناً، وخاب أحياناً أخرى، لكنه في المحصلة استطاع أن يجذب إليه الانتباه.

* أول الأمر عرض نصوصه على كاتب مرموق في مدينته، وكان هذا الكاتب لامع الإطلالة ويتكئ في صناعة عوالمه السحرية على دخان الغليون وتراث المدينة العريق.

وقد دفعه إلى ذلك استماعه إلى قصة قرأها الأديب المذكور على مدرّج الجامعة اسمها (التقرير)، وقد أثارت انتباهه واهتمامه، وقرر بعدها أن يطوّر في أساليب الكتابة لديه، ليصل إلى سويّة الكُتاب المرموقين، وبعد أن ركن إلى قصة يستطيع أن يراهن عليها، تأبط القصة وذهب إلى مكتب الأديب الكبير.

* طرق السيوفي الباب بأدب جم وطلب مقابلة الأستاذ الكاتب، بعد أن سمع من المقربين إليه أن الأستاذ يفضل مقابلة المريدين والناشئين من الكتّاب في مكتبه، ولا يرغب أية مقابلة من هذا النوع في البيت على حساب العمل الكتابي الإبداعي، وأنه رجل فيه ود، ويرحب بحماسة بالاطلاع على كتابات الجيل الشاب من المعتزين بأنفسهم ودعارة مخيلاتهم مثل السيوفي وأضرابه من الذين تنتابهم مخاوف شتى عندما ينجزون نصاً، فيتخلون عن اعتزازهم بأنفسهم ويلهثون باتجاه اعتراف بمواهبهم ولو ضئيلاً، وقد فعلها السيوفي ودخل إلى الأستاذ، فرحب به، ثم عاجله السيوفي بالكلام: لقد تحدثت إليكم على مدرج الجامعة وقلتم إنكم ترغبون في الاطلاع على بعض إنتاجي القصصي.

ـ تفضل، تفضل، اسمك على ما أذكر، وصفن الأستاذ ليتذكر

رغم أنه كان يعرف أنه لن يتذكر حتى لو صفن إلى نهاية الدوام.

ـ عبد العزيز السيوفي، من كلية الآداب، عاجله السيوفي بالجواب.

ـ كليه الآداب.. هل تعرف أن أقلَّ الناس اشتغالاً بالأدب في الدول الأخرى هم طلاب الآداب والعلوم الإنسانية.

ـ مجموعي في الثانوية العامة يؤهلني لكلية الطب، لكن الفورمول والجثث دفعاني إلى الآداب.

ـ غريب أن يحصل معك هذا الأمر.

ـ ولماذا؟

ـ لأنه حصل معي ما يشبهه.

وانقطع الكلام، فارتبك السيوفي، وانتظر الأستاذ من ضيفه المبادرة والكلام، غير أن السيوفي ظل صامتاً ومرتبكاً، لذلك تركه الأديب الكبير وانثنى برأسه على الطاولة وتابع قراءة الأوراق أمامه ووضع التواقيع عليها وتبديل غليونه من فم إلى فم، ومن يد إلى يد ومن نار إلى نار، والسيوفي قاعد في الركن كأنه من سلالة الآلهة الغائبين، بعد ساعة أو نيِّف من الانكباب والتدخين رفع الأستاذ رأسه وقال:

ـ هه لم تخبرني.

ـ لقد أحضرت معي نصاً.

ـ هل هو طويل، لأنني حلفت يميناً بالطلاق أن لا أقرأ نصاً يزيد على صفحتين ووافقت زوجتي على ذلك فلا تدفعني لارتكاب ابغض الحلال عند الله، وأحسنه عند المارقين والمبدعين.

ـ هو صفحتان لا أكثر.

ـ الحمد لله لو أنه أكثر لخربت بيتي.

استل السيوفي نصه من تحت إبطه ومده إلى واجهة الأستاذ الزجاجية، فارتعش الرجل وتراجع مروّعاً.

ـ ظننتك تدعوني للمبارزة.

ـ عفواً هو الارتباك.

تناول الأديب المعروف النص، ورفع نظارتيه وقرّبه من عينيه، ثم رفع غليونه ونظر إلى السيوفي، ثم رفع يده، عند ذلك قفز السيوفي من مكانه وصار عند الباب.

ـ ضحك الأستاذ، لماذا قفزت؟

ـ خفت أن تضربني.

ـ اقعد، اقعد، عندما أعجب بشيء تقفز يدي لوحدها، ثم إنني منذ حزيران توقفت عن الضرب.

ـ لماذا توقفت؟

ـ بعد نكسة حزيران شعرت بفداحة الضرب، فتوقفت عنه: السلطة التي تضطهد شعبها لا تستطيع أن تحقق الانتصار على أعدائها.

ـ وجد السيوفي نفسه يتجرأ ويقول، سلطات كثيرة اضطهدت شعوبها وحققت الانتصار على أعدائها كما حصل في الحرب الكونية الثانية.

ـ انتصرت في الحرب، ولكنها خسرت في الحضارة. هل قرأت

قصتي (التقرير).

ـ استمعت إليها، أجاب السيوفي.

ـ قصتك فيها شيء، وفتل كفه وطرف فمه في محاولة للتعبير، وفيها سوداوية جميلة وتشاؤم عظيم، ثم أدخل رأسه في الأوراق ودخل في المتابعة. بعدها تسلل السيوفي إلى الهواء، وهو يسأل نفسه: كيف استطاع أن يقرأ قصتي بهذه السرعة الهائلة، ويكتشف فيها ما اكتشف؟ تلك هي الحضارة، وحرك أمام عينيه شيئاً توهمه كأنما هو نظارة، تشبه نظارة الأستاذ الأديب، ودخل في الإحساس بأنه السيوفي ذاته، كاتب كبير.

كثيرة هي المرات التي كان السيوفي يشاهد فيها عفراء الحبال في مدرجات الجامعة، وفي الأروقة، فيتوقف معها قليلاً ثم يغادرها، عندما يراها لم يكن يرى سوى ما تحت ألبستها، فقط يرى جسدها العاري دون أن يتذكر وجهها الجميل وصوتها الحلو. وحين يقارن ما بين جسدها وجسد فتاة الفورمول يحسهما غارقتين في حوضين مختلفين، لذلك تنتابه رغبتان، أن يبتعد ويقترب، أن يتحدث أو يحتضن. وحين يلمح في وجه عفراء الطالبة في قسم اللغة الإنكليزية في كليته، كلاماً كثيراً وصمتاً كثيراً، يسألها أن تغني له.

ـ هنا.

ـ نعم هنا.

ـ أنت ملعون، ثم تتركه وتمضي. وعيناها تشتعلان بذكريات بعيدة مفرحة.

* السيوفي يحسها ما زالت تحب محمد المغربي فتشتعل أصابعه بالذكريات، محمد المغربي الذي صار طالباً في كلية الهندسة، ولكن عفراء وبسبب من ذكريات بعيدة أيضاً تحس نفسها ما زالت مرتبطة بالسيوفي، لذلك تحاول أن لا تبتعد عنه.

قيس الأشوص الفضلاوي ابتعد عن السيوفي والمغربي، وبعد نيله للشهادة الثانوية بمجموع ضئيل، تقدم بأوراقه إلى كلية الشريعة، وعندما أصبح طالباً نظامياً فيها، سعى بالتعاون مع بعض معارفه للحصول على إذنٍ بتلاوة خطبة الجمعة في جامع المغاير، ثم حصل على إذن آخر بتعيين واحد من ميليشياته خادماً للمسجد، وحين تم له ما أراد، أرسل أمه المستغربة إلى أول الحارة، إلى بيت عفراء الحبال لطلب يدها له، واشترط من أجل أن يتم الزواج شروطاً كثيرة أهونها الانقطاع عن العالم وترك الجامعة، فوافقت عفراء ولكن على ترك الحارة، وهربت وأمها وأختها وحيدة إلى حارة (الجلّوم) واستأجرنَ فيها بيتاً وسكَنَّهُ حتى يبتعدنَ عن الأشوص وحبه وشروطه، وبقي بيتهن في الحارة خاوياً تهب إليه الرياح والتنهدات.

* في البيت الجديد، في حي الجلوم المتاخم لحي الكلاسة من جهة القلعة بدأت أمارات الجنون وعدم الألفة مع البيت الجديد تتبدى على صدر وحيدة الحبال أخت عفراء وعلى ساقيها، وصارت تقف على سطح بيتهن الجديد معرضة جسدها للهواء والشمس، وصار بيتهم قبلة أنظار أولاد حارة الجلوم، وبخاصة عندما تنزل وحيدة عند طلبات بعضهم، فتكشف لهم بنية طيبة عن الأجزاء التي يطلبها الجمهور من جسدها، النهد الأيمن أو الأيسر، الساق اليمنى أو اليسرى، وأجزاء لا يستهان بها من الجسد المضيء، وقد

اكتشفت الأم والأخت هذا التحوّل في البنت، واكتشفتا أيضاً أن بيتهنَ صار محجاً للمريدين والجائعين، فقبضتا على وحيدة وقيدتاها في غرفة القبو، ومنعتا عنها الشمس وصرخات الحشد. لكن أولاد الحارة الملاعين ظلوا يطلقون أصواتهم عند اقترابهم من البيت وسكانه الجدد ويصرخون، اكشفي عن صدرك من طرف القلعة، ارفعي عن ساقك من طرف معمل الإسمنت، وكانت وحيدة وهي داخل الحجز في القبو تسمعهم وتستجيب لهم، وتكشف عن الأجزاء التي يطلبون رغم العتمة وأصوات خربشات الفئران.

* في البيت الجديد أصاب عفراء ووحيدة الحبال وأمهما مس من الجنون بسبب الابتعاد عن الحارة وأهلها الذين لا يمكن العيش معهم ولا العيش بعيداً عنهم، لذلك قررت الأسرة العودة للحارةِ ثانيةً، فأهل الحارة أولى بمشاهدة جسد ابنتي وحيدة من الغرباء، هكذا قالت الأم لنفسها وهي تعد الحوائج وتربطها وتحزمها استعداداً للعودة.

* بعد العودة المظفرة لأسرة الحبال بإناثها، أحس قيس الأشوص بالجنين والمعاودة، فلقد فهم أن مغادرة الأسرة ما هو إلا رد بالرفض على طلبه يد عفراء للزواج، وأن العودة قد تكون شكلاً ضمنياً للموافقة، لذلك أعاد إرسال أمه لمعاودة الطلب، مع محاولة مقصودة لتجاهل الشروط السابقة، فالزواج سيحل المشكلة ويرغم البنت، غير أن عفراء ردّت على طلب الأم بكلام واضح وهو رغبتها في إتمام نصف دينها، ليس عن طريق الزواج، بل عن طريق متابعة الدراسة والتفقه في قضايا حركات التحرر والسياسة.

خلال هذا اللقاء، ورغم الدهشة من الرد انتبهت أم قيس الفضلاوي للفتاة الثانية وحيدةْ، القاعدة قرب أختها عفراء،

فشهقت من لحظتها وهي تقول: يا سبحان الله! ومن تكون هذه البنت الجميلة؟

ـ أجابت الأم: هذه ابنتي الثانية وحيدة.

ـ لم أكن أعرف بوجودها.

ـ ابنتي وحيدة ولا أحد يعرف بوجودها.

في الليالي، وبعد أن يتم قيس الفضلاوي فروضه، يذهب للتأمل وتأخذه مواجده إلى بيت عفراء الحبال، فيطوف حوله مثنى وثلاث ورباع حتى يفقد أعصابه، عند ذلك يصرخ صرخته المدوية: سأقصف الحارة بالمنجنيقات حتى ينقلب أسفل كل شيء إلى أعلى. ثم يهرول إلى الماء ليتبرد ويخلّص نفسه من الانفعالات.

في الليل المضيء، ومن خلال الطاقة المطلة على الشارع، انتبهت وحيدة لطواف قيس الفضلاوي ووحدته، وانتبهت أكثر إلى صراخه، فاستجابت نفسها إليه وصعدت إلى السطح وكشفت له عن ساقها آونة الطواف والزفرات، فانتبه إلى الساق، وأحس بنفسه أملس وناعماً، فارتفع بصوته إليها:

ـ أنت عفراء؟

ـ أنا أختها وحيدة.

ـ وحيدة، ولها آلاف السيقان؟! همس في نفسه مستغرباً والتفت بجسده ومضى إلى أمه. بعد أيام من التشاور تقرر موعد زواج وحيدة من قيس الفضلاوي، وقد وافقت أمها سريعاً، قبل أن تستفحل لدى ابنتها عادة الكشف عن جسدها لبقية أبناء الحارة.

أما هو فقد قال: حتى يعينني الله على نفسي، أريد أن أكمل نصف ديني، وبعدها أستطيع أن أتفرغ للحارة لأفعل فيها وفي أهلها العجائب والمعجزات.

أم قيس الفضلاوي الأشوص تفرغت أياماً بطولها لتحضير فراش الزوجية، كل يوم تخرج الصوف وتمده وتنفضه لتصنع منه الفرشات، سبع فرشات متواليات وضعتها الأم فوق بعضها وصار بوسع المستلقي عليهن أن يغوص فلا تظهر منه الشهقات.

ليلة العرس، تقرر إلغاء مظاهر الفرح والغناء والطرب لأنها تضر بالصورة الجليلة للعريس، ومن يضمن أن لا يفعلها أولاد الحارة في التلبيسة وينتحوا جانباً لشرب العرق، وشتم الحكومة، وإطلاق الرصاص؟ ثم إن هذه المظاهر بدعة وشكل من أشكال التحلل والغزو الثقافي، لذلك استعيض عن حفل الطرب والموشحات بالمنشدين والقراء ورش ماء الزهر على الوجوه واللحى والصدور، فأصيب الكثيرون بضيق التنفس والتهاب القصبات بسبب انفعال المنشدين ومتانة أصواتهم وقوة رائحة البخور.

في نهاية المولد، دخل العريس وهجم باتجاه الزوجة، فانحرف كثيراً بسبب عينيه وأصاب برأسه طرف الخزانة، فتصرّعت أبوابها وسقطت على رأسه أكوام الألبسة وألواح صابون الغار الحلبي وأحجار التراب الحلبي المطيب.

حميدة انتبهت إلى زوجها، فخلعت عنها مخاوفها وألبستها واقتربت منه، وعاينت رأسه فانتبهت إلى جرح صغير فيه، فأمسكت قطعة من القماش معدّة لمثل هذا الأمر، وبللتها بقطرات الدم، وفتحت طرف الباب وأعطت قطعة القماش ليد أخرى مترقبة، بعدها رجّت

المكان أصوات التهاليل والزغردات، وتعالت فرقعات القبلات والمباركات، وانهمرت على الأم مشاعر الاعتزاز بفحولة ولدها وسرعة بديهته، رغم أنها أحست بالغرابة، فكيف تسنّى له، رغم تقاطع عينيه، أن يصيب الهدف بهذه السرعة، فأعادت النظر في قطعة القماش في يدها، وشمتها وظلت تفعل ذلك حتى هدأت نفسها، فذهبت من وقتها إلى صحون المامونية والشعيبيات لمتابعة الفرح وإعداد الفطور، ووحيدة تعالج شؤون قيسها وخيباته، وتمسح عنه غمامات التنهد، مزيلة عن جسده الألبسة، مقرّبة جسده إلى مواطن فتنتها، فيزداد منها استغراباً وتهدلاً، فينكسر على حافته ويتكوم، والميليشيات في الخارج تهدر باعتزاز، فعلها سيدنا وأكمل ما ينقصه، وأصبح تاماً مثل عينين تامتين.

. أيام طويلة مرّت، والأم في الليالي والنهارات تتابع نظرات ولدها الضائعة وزفراته، ولا تفهم محنته، لذلك قررت أن تسأله، وعندما فعلت، عاجلها بنظرة غاضبة، وطلب منها أن تطمئن ولا تشغل نفسها بأمور الدنيا وأن تبذل الجهد لأداء الفرائض في أوقاتها.

في كل ليلة كانت وحيدة الحبال، تفعل مع زوجها قيس ما عجزت عنه في الليلة السابقة، تقرّبه منها وتتقرب إليه، وترف إليه بصدرها وجسدها حتى يغضب الجدار. وفي كل يوم كان قيس الفضلاوي يفعل مع وحيدة زوجته أكثر مما فعله معها في الليلة السابقة، فيزداد تهدلاً وخوفاً وعزلة، حتى تبكي لحاله الخزانة، لم يكن يعرف وهو المتفقه في أمور الدنيا والدين، أن المرأة ترغب وأنها تستطيع أن تفعل وأن لها حضوراً، لذلك وعندما بادرته بجسدها، وراودته عن جسده ونفسه أحس بالخوف منها، فانتصبت مقابله وتهدل مقابلها، وازداد نهداها تنهداً وبروزاً

وجسدها توهجاً وبريقاً، وازداد الفضلاوي انكساراً وسوء فهم، فيا للحارات والغرف المغلقة كيف تهزم الرجل وتلوي جمال المرأة واحتمالها.

عندما استفحلت الأمور وطالت مدتها وتكررت الحالة، وقيس يتشاغل عن بيته وسريره منصرفاً لإعداد المريدين، وعندما يعود ليغلق دونه ودون زوجته الباب، يرتعش أمامها مثل مريد فادح الذنب يقف أمام مولاه.

عندما تكرر ذلك وأحست وحيدة بوحدتها التامة، وهي تلامس من طرف فمها ملوحة الدمع التي تراودها، وصلت مع احتمالها وتهدل زوجها وخوفه إلى الطريق المسدود، فتركته يتهاوى على الأرض، ودخلت في الصراخ. عندما ركضت الأم إلى الصوت وسمعت ورأت، بادرتها وحيدة الحبال بالكلام: تعالي إلى ولدك وخذيه، لم أعد أريده، ثم ركضت إلى أمها وأختها وبيتها، وهنا بعد أن انفردت بطبيعتها، أخرجت جسدها من أحزانه وثيابه وبكت أمامه، ثم صرخت: ويا أمي إنني أزداد معك اتحاداً وتشابهاً، كأنك لم تلديني.

ـ ويا أمي......

* بعد أيام هربت وحيدة الحبال من الحارة إلى جهة الأنهار، قريباً من المحافظات الشرقية، وبعد سنوات وصلت أخبارها.

هناك، وعلى ضفاف المدن المجاورة لنهر الفرات، أقامت وحيدة خيمتها، وتقاطر عليها المريدون والجائعون، وجسدها يعطي الناس والرجال، وعند الغروب عندما تكتفي منهم دون أن يكتفوا منها

كانت تنزل إلى ضفاف الماء الفرات بكامل جسدها وكامل النطف المتساقطة منها لتغتسل وتأخذ من الماء ما تحتاجه من الطهارة والبريق.

كثير من الدرك ورجال الشرطة دخلوا إليها لإيقافها عند حدها ومنعها من المزاولة، وعندما اقتربوا إلى جسدها لم يروا شيئاً سواها.

كثير من البدو برملهم وكثبانهم وإبلهم وشقوقهم دخلوا إليها، وعندما خرجوا نبتت المياه من أكفهم، فتقاطروا بخيامهم حول خيمتها وعلّموا زوجاتهم الهزج والرمل والحداء والحنين.

واحد من أولاد حارتها الذين يحملون الحبال والمكانس ويذهبون إلى المحافظات الشرقية لبيعها، وعندما لمحت وحيدة حباله ومكانسه تعرّفته، وتذكّرت الحارة، ثم ركضت إليه وأمسكت به وأدخلته إلى خيمتها وتعرت، وعميقاً عميقاً أدخلته إلى جسدها ثم شهقت بالبكاء. عندما خرج المغايري من جسدها وخيمتها نسي حباله، ومكانسه ومضى فتبعته، وعندما أوقفته وتعرفها أعطته خصلة من شعرها، ليذكرها بخير في الحارة، وأمام الناس.

في طريقه إلى مدينته وحارته، وفي زحمة الشاحنات والناس، كان يخرج الخصلة إلى كفه ويتأملها ويفكر ماذا يمكنه أن يصنع بها، فهذه الخصلة لا تكفي لصنع حبل أو مكنسة، لكنها تكفي لتعيده إلى ذكريات غريبة لم يفهم كيف حصلت ولماذا.

رغم ذلك كانت لوحيدة أحزانها وذكرياتها ووحدتها، رغم الطوابير الطويلة التي تقف قبالة خيمتها، هذه الطوابير التي لم تفلح

في انتزاع حنينها لقيس الفضلاوي زوجها الذي ما زالت تتذكر جرح جبهته وصفرة جسده، وتتمنى أن تكون قريبة من تهدله، ولو أدى ذلك إلى ابتعادها عن النهر المتدفق الطويل.

وفي مواعيد العادة والحيض التي تصيبها، والتي تستمر أطول من المعتاد بسبب برودة المياه وقلّة الأدوية والمضادات، كان المزارعون والبدو يغادرون خيمة وحيدة، ويذهبون إلى الزراعة والرعي، وينتبهون إلى زوجاتهم ويبادلونهن الحب والكلام، وإلى أولادهم ويقومون بعدّهم ومراجعة أسمائهم، وعندما يفاجأون بزيادة عدد الأولاد، يستغربون ويرجعون ذلك لكثرة المشاغل وقلة الانتباه.

والزوجات يعرفن بما فطرن عليه من حس سليم وسيقان غامقة السبب في عودة الأزواج، فيدعون الله متضرعات أن يطيل أمد العادة والحيض الذي يصيب وحيدة حتى لا تبقى عندها قطرة دم واحدة.

الحقيقة أن هرب وحيدة بهذه الطريقة اللافتة أحرج أسرة الفضلاوي وأركانها والتابعين لها من الميليشيات، وقد تبدى هذا الإحراج أوضح ما يكون في تصرفات عامر الفضلاوي والد العريس قيس، فوقف شعر رأسه من شدة الإحراج، وصار يركض إلى ساحة الحارة فيعتلي حنفية الماء الضخمة التي تتوسطها ويظل واقفاً فوقها في وضعية البث والاستقبال للأمواج الكونية التي تشغل بال العالم، وبعد كل توقف يعطي تصريحاً لأهل الحارة يشغل فيه بالهم لمدة طويلة. لكن تصاريحه في الآونة الأخيرة صارت ذات طبيعة غير مفهومة على الإطلاق، لذلك بدأ أهل الحارة بالريبة وهم يسمعونه يصرح أمامهم بمسؤوليته المباشرة عن إلقاء القنبلة الذرية، وعندما قال أحد المتجمهرين بأن القنبلة الذرية ألقيت من زمان،

أجاب: ولو، ولكنني دفعت الثمن.

ـ وماذا دفعت يا حاج؟

ـ ألا ترون أن الغبار الذري قد أثر على ابني، فزاغ بصره وارتخى حالبه.

ـ عندما وصلت أخبار الأب إلى ولده قيس الأشوص، وعرف أن الحديث عن حوالبه أصبح أمراً مشاعاً، بسمل وحوقل ومسح وجهه وذقنه، وقرّر الحجز على والده، وقد صرّح لخلصائه من الميليشيات بأن مخاوف الوالد ليست في محلها، وأن حالبه في وضعية ممتازة، وأنه لا حياء في الدين يحتلم، ثم قال في سره: يوجد في هذه المخلوقة سر، ويقصد (زوجته وحيدة) وهي في النهاية ليست من قسمتي ونصيبي. وهو عندما يتذكرها ويتذكر ضراعتها إليه وارتداده عنها وعن جسدها، يتراقص أسفل ذقنه، وتتهاطل على خديه الدموع ويشعر بالضيق العظيم.

الجامعة

لدى معاينة المدينة من علٍ، يلحظ الناظر وجود كتلتين متناظرتين فيها، والكتلتان غريبتان عن محيطهما ومتنافرتان. الكتلة الأولى القلعة، والكتلة الثانية الجامعة، الكتلة الأولى (القلعة) ثابتة جاثمة متناظرة مهيبة، والكتلة الثانية الجامعة، مشتتة متنافرة ومهيبة أيضاً. الكتلة الأولى (القلعة) تمسك المدينة وتلقي بظلالها عما حولها حتى لا يفلت منها. والكتلة الثانية (الجامعة) ترجُّ المدينة، تزلزل سكونها وتخرّب طمأنينتها. والكتلتان ترمقان بعضهما بعتاب وغرابة، والطلاب والطالبات الذين يرتادون الجامعة، منقسمون بطبيعتهم، وكل واحد منهم منحاز إلى كتلته، بعضهم منحاز للقلعة وآخرون منحازون للجامعة.

وتتبدى هذه الفوارق بعد الخطوة الأولى من اجتياز باب الكلية التي ينتمي إليها الطالب أو الطالبة، وتتوضح أكثر ما يكون لدى الفتيات. كثير من الفتيات ينخرطن في الحياة الصاخبة، من ندوات

وحوارات، ولا يمانعن بعد ذلك من المشاركة بأشياء أخرى يحسونها ضرورية لاستكمال طبائعهن وخياراتهن، وكثيرات أيضاً، يمشين في الظلال وقرب الجدران والكلام والأفكار والثقافات بريبة واندهاش، وما يلبثن أن يتساقطن من الإعياء أمام سطوة وحدتهن.

أما السيوفي فقد قرّر بينه وبين نفسه أن يكون أديباً كبيراً، وعفراء الحبال قرّرت أن تتابع مسيرة السيوفي الأدبية، ومسيرة المغربي السياسية، وإليهما معاً كانت تحس بالحاجة، مثل حاجة أية أنثى، لأن يكون في صدرها نهدان، فنهدها الأول وفي الطفولة البعيدة دفعتِ به إلى أصابع السيوفي في غرفة المؤونة، وصار لزاماً عليها أن تدفع بالثاني إلى أصابع المغربي.

عندما كتب السيوفي قصة من قصصه القصيرة وسمّاها (فتاة الفورمول) لم ينسَ أن يختمها بالنهاية المفاجئة التالية:

خلال وقوف (عمر الفور هندرد) أمام الحوض، لم يكن يعرف لماذا اختار اسم (عمر الفور هندرد) ليكون اسماً لبطل القصة، عندما وقف هذا (العُمَر) أمام الحوض وبدأ يعين الجسد المدهش للفتاة المستلقية، ويداري نفسه عن فضائح مخيلته، تقدمت إليه مفرزة من رجال الأمن وقبضت عليه.

عندما قرأت عفراء الحبال القصة ووصلت إلى النهاية، تسمّرت نظراتها في وجه السيوفي، واجتاحت وجهها الصفرة العجيبة، وبعد أن ارتدّت إليها أنفاسها طلبت منه أن يعرّفها إلى فتاة الفورمول.

ـ لماذا؟

ـ بعد أن قرأت قصتك أحسست بأن فتاة الفورمول هي أختي وحيدة.

عندما قرأ الأديب الكبير وليد باب الجمر (القصة) سأله مستغرباً: كيف استطاعت المخابرات أن تنبت هكذا فجأة في أخر القصة؟ أنني أحسدك على طول بالك وتماسك أعصابك.

ـ ولماذا؟

ـ قال الأديب الكبير: في النصوص التي أكتبها تظهر المخابرات في أول القصة وتستمر حتى آخرها، وأتمنى أن تتركني قليلاً حتى أتمكن من تأخير ظهورها كما فعلت أنت، ولكنني لا أستطيع، لقد فاجأتني بهذا النص، مثلما فاجأت المخابرات بطل قصتك، وأنا أرغب في مشاهدة الحوض، إذا كنت تضمن لي أن فتاة الفورمول ما زالت موجودة فيه. أنت، لا بد، تستغرب مثل هذا الطلب، لقد دفعتني بقصتك هذه لإعادة النظر بماضيَّ كله، والأسى لأنني لم أختر الطب بدلاً من الكيمياء، فربما خلال دراستي تمكنت من مشاهدة فتاة تشبه فتاتك والوقوع في حبها.

* عندما قرأ القصة للدكتور مروان أبو القلبين، الأستاذ في مادة النقد الحديث، نظر إليه طويلاً، ثم نظر إلى أوراق القصة، ثم توقف عن النظر إلى الأشياء وسحب سيجارة (الحمراء) من علبة التبغ على طاولته الصغيرة وغرفته الضيقة حيث الإنسان داخلها يشبه السيجارة داخل علبة التبغ، ثم قال:

* أنا في الواقع قرأت تشيخوف، ودوستوفسكي، وبلزاك،

ورحمانينوف[١]، واخماتوفا، وامرأ القيس، فلم أجد أحداً منهم كتب عن حالة تشابه الحالة التي كتبت عنها، لذلك لا أستطيع اعتبار هذه الكتابة من الأجناس الأدبية المعروفة، ثم إنك تعطي مجالاً واسعاً للغرائز لتغتال القصة من الداخل، معبراً بذلك عن هموم فردية برجوازية صغيرة، يا أخي أين هو الصراع الطبقي؟ ونفث دخان سيجارتهِ الكثيف، فتداخل السيوفي في السعال والدهشة، وأمسك أوراقه وخرج من الغرفة الضيقة.

عندما قرأ السيوفي القصة على أستاذ مادة النحو والصرف، الدكتور (فخر الدين شيخ المحشي) أمسك قلماً ووضع خطوطاً تحت بعض العبارات، ثم قال: أنا بصراحة لا أعترف إلا بجنس أدبي واحد، هو المعلقات. هذا من جهة، أما من جهة أخرى، وهنا (حطنا الجمَّال)، فأنا أستغرب كيف تتحدث عن فتاة عارية في الحوض، هذه أول مرة أسمع فيها أن النساء والفتيات المتوفيات يوضعن عاريات في أحواض ما سميته أنت (بالفورمول) والعياذ بالله. أنا في الحقيقة مشغول بهذه الناحية، وأريد الذهاب معك للتأكد والمشاهدة، والعمل على وضع النساء في أحواض (الفورمول) وهن بكامل الألبسة، هناك نقطة ثالثة أحب أن تنتبه إليها.

ـ ما هي يا دكتور؟

ـ المخابرات، أنا مثلك أنتبه للمخابرات، ولكنني أحاول تجاهلها في مادَّتَيْ النحو والصرف، كما فعل الفراهيدي وسيبويه، والشنتمري. صدّق بالله، لو أنهم اهتموا مثلك بالمخابرات، لما استطاعوا كتابة

---

(١) رحمانينوف: موسيقي روسي.

حرف واحد، لذلك أدعوك لتجاهل المخابرات كما فعل السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين. ثم مضى مسرعاً حتى لم يعد يبين.

* عندما خرج السيوفي برفقة قصته إلى الممرات، تمنى أن يذهب إلى فتاة الفورمول ليقرأ لها القصة، فربما كان لها رأي آخر.

* أحزان كثيرة انتابت البدو والفلاحين على ضفاف الفرات وهم يشاهدون الجسد العظيم لوحيدة الحبال وقد طفا إلى الماء ميتاً دون زرقة ودون ندم، وقد تشاجرت عليه الأشجار ورفّت إليه إبَرُ البردي والعليق، ووقفت الضفادع قريباً من حافته صامتة، وقد تهدلت حلوقها من شدة الأسى.

حصل ذلك بعد الانتهاء من بناء سد الفرات، وتحويل مياه الفرات إليه ليحتجزها وتتشكل أمامه البحيرة، ولأن وحيدة الحبال كانت خلف السد، فقد انتبهت إلى صفرة النهر وتماوته، وتشقق حوافه، وشاهدت وجوه الفلاحين والبدو وقد تهدلت أعضاؤهم وحلوقهم، لذلك أحست وحيدة الحبال بتطاول العادة والدم، ودخلت في الحنين والالتهابات، ولم تجد بداً من افتداء النهر الذي كان، فألقت بجسدها العظيم فيه.

ودون أن يعلم أحد لماذا، دخل الأسى إلى حارة المغاير من بابها الغربي، فشعر الناس بجفاف أحداقهم وتشقق حلوقهم، لذلك ذهبوا إلى مقدمة الحارة وأشعلوا النار مثل الناس البدائيين، كأنهم خرجوا لتوهم من كهوفها الحوارية المتطاولة في الجهة لمقابلة.

* في فترة الانتباه الحكومي للأوضاع عاش السيوفي في حالة من

الحذر السياسي الشديد، فحاول أن يبتعد عن كل التنظيمات السياسية المتداولة، ودون أن يتساءل عن السبب كان يتذكر ليلة التواقيع حيث أُجبر شبان الحارة وصفوتها من المتشددين السياسيين العظام على الانسحاب من أحزابهم في دار الفضلاوي الكبير، يوم الحبر والتواقيع، لذلك أراد إن يجنب نفسه الكارثة، ويمنعها من الانخراط في العمل السياسي المباشر، ولكن كيف يمكن المرء أن يتجنب الهواء والضحك الذي يزلزل العالمين.

ففي المدينة حاولت جماعات مختلفة، استنكار سباق التسلح الذري والنووي، وذلك بمناسبة اقتراب اليوم المصادف لإلقاء الولايات المتحدة لقنبلتين ذريتن على مدينتي هيروشيما وناغازاكي اليابانيتين، فتحركت الإدارات والمنظمات بعد أن أزيلت المدينتان عن الخريطة لتعبّر عن تضامنها وشجبها والقيام بمسيرة بهذه المناسبة، غير أن الجهات المعنية رفضت الترخيص بإقامة (مسيرة الاستنكار) تلك، فاستنكرت حنان في الجامعة هذا الموقف، وبدأت وجماعتها بكتابة عريضة وجمع التواقيع، وتقدمت بالعريضة إلى السيوفي ليوقع فقرأ المقدمة، وانتبه لأسماء أصحاب التواقيع، وأدار الموضوع في ذهنه ثم أعاد العريضة خالية من توقيعه.

ـ لم توقّع؟ تساءلت حنان بعتب واحتقان.

ـ هل تعيد التواقيع القنبلة الذرية إلى الطائرة التي ألقتها وتعود الحياة للناس الذين فقدوها؟

ـ أرجوك يا عبد العزيز وقّع، قالت حنان.

ـ لن أوقع.

حنان الطالبة الجامعية، الدقيقة النمو والتقاطيع، والتي ورغم عذوبة

كلامها وملامحها تتابع الدراسة في قسم اللغة الفرنسية وتتابع الاهتمام بالسيوفي وقصصه. حنان هذه، أحست بالخيبة، فتوقفت عن الكلام، وفجأة تهاطلت الدموع على وجهها بكثافة رغم تماسكها الأيديولوجي وعدتها النظرية الحاسمة، وقد دفعت دموعها المباغتة رفاقها المشاركين للاستنفار والتساؤل، وقد عبّر أحدهم عن استنكاره فقال: إن البكاء بهذا الشكل يتعارض مع عقيدة الحزب، لذلك نهضت حنان لتداري مياهها، وظل الجميع في حالة تحفز ولديهم كلام كثير.

* يد السيوفي امتدت بعصبية إلى العريضة، جرها إليه وكتب أسفلها: أنا لا أحب القنابل الذرية. ووضع اسمه وتوقيعه، ثم نهض ومضى وهو يتساءل: ترى هل يمكن الحكومة أن تسيء فهمه مثلما تفعل مع أبطال قصصه؟

عبر ممرات الجامعة ودهاليزها الطويلة، وجد عفراء واقفة أمام زجاج نافذة من نوافذ الممر الطويل، تتأمل المنحدر العشبي الجميل الذي يصل بين مبنى كلية الآداب وساحة الإسفلت الواسعة. كانت تتأمل الهواء والخضرة والأشجار البعيدة وطلاب وطالبات الجامعة وقد تدخَّلتِ الطبيعة في محاولة منها لإعادة ترتيب الحياة والانفعالات لديهم، فانفرد الحذرون والخائفون، وانزوى كل اثنين في ظل جدار، أو قرب جذع شجرة. أما الباقون فقعدوا فوق العشب الندي لا يبالون بنظرات أحد، وفي طرف الساحة الثاني كانت سيول الطلاب المتدفقة تسير في خط طويل داخلة خارجة، وقد انتابت الكثير من أفرادها حركات عصبية ظاهرة.

عبد العزيز السيوفي، وعندما لمح عفراء توقف، وبدأ يتأمل تأَملها

ووحدتها، وقد نجح حضورها المفاجئ في إزالة مخاوف السيوفي وتساؤلاته، فانصرف للاهتمام بالجسد الوحيد الذي يشكل مع النافذة الواسعة لوحة صامتة.

* عفراء، كأنما أحست بنظراته تلسع ظهرها، فالتفتت إليه.

ـ أنت، أهلاً، ما هي أحوال الأدب والقصص القصيرة.

ـ تذكرني بالفئران وبأيام غرفة المؤونة.

ـ ما زلت تتذكر؟

ـ لولا الفئران، لكنتِ ظللت صامتة، ولما حدث ما حدث.

ـ حديثك عن الفئران ذكّرني بالشتاء النووي، قرأت مؤخراً في رواية لكاتب ألماني يقول فيها إن الشتاء النووي إذا حلّ على العالم، فإن الفئران، وحدها ستظل حية.

ـ انظري إلى العشب الأخضر والطلاب، يجب أن نمتن علاقتنا بالفئران، لأنها وبعد الحرب النووية القادمة، ستصبح الرمز الأبقى للحياة، ومن يدري ربما تمكنت الفئران من صنع الحضارة القادمة.

* لكنني أتساءل لو لم تكن غرفة المؤونة وأنا وأنتِ، هل كنت تحدثت هذا الحديث عن الفئران.

ـ يا ملعون، وانهالت بقبضتها على صدره، فأمسك يدها.

ـ تشاهدين المغربي.

ـ أحياناً.

ـ هل سألك عن الذي جرى بيننا في غرفة المؤونة؟

ـ أنا أخبرته، ووعدته بأن أضع له يده على النهد الثاني، الذي لم تلمسه أنت.

ـ وأنا بأي شيء تعدينني؟ صاح السيوفي بصوت فيه غصة وغضب، وفيه عينان جاحظتان ومندهشتان، وحوله ممر ذاهل طويل ونوافذ وخضرة مستغربة على المنحدر، وأسئلة في عيون الصبايا والصِبيَةْ، لعلها الصرخة وقد قاطعت انصرافهم إلى بعضهم فنهضوا غاضبين دون وداع، ودون مواعيد، لعلها نهودهن وقد هدلها الخوف فلم تعد تنهض إلى الأصابع المقابلة، لعلها الأصابع وقد انصرفت إلى تعداد اللوازم والمحاذير... لذلك ركضت إليه عفراء الحبال، بعد أن أخرجت نفسها من ذهول صرخته، ركضت إليه في وقت كان فيه قد قذف به خارج الباب، ركضت إليه وهي تتمتم: النهد الأول لك، الأول لك يا مجنون.

في الطريق كان غاضباً وكان يهذي.

عندما عادت إليه نفسه، كتب قصة بعنوان (فئران فئران) تحدث فيها عن القنبلة الذرية الملساء التي تشبه النهود الجميلة وعن الفئران، وتحدث عن العريضة والتواقيع، وذهابه إلى الممرات ومشاهدته لفتاة واقفة إلى النافذة، فتاة متشاغلة بالربيع وليس بالشتاء النووي، ونجاحه في شد انتباهها والحديث إليها، عن الفئران، فانتبهت كثيراً للكلام، وبدأت ترتعش من وطأة الشتاء النووي وبرده، ثم امتدت بأصابعها إلى صدر بطل القصة لتستلهم منه الدفء والعزاء، فاغتنم البطل الفرصة وأمسك أصابع الفتاة المرتعشة وغمسها بالحبر، وضغطها على بيان استنكار للقنبلة الذرية والشتاء النووي، وقبل أن تتمكن الفتاة من الانتباه والتساؤل، انقضّت مجموعة من الرجال على الفتاة المتلبسة، واقتادوها إلى الجحيم.

رغم اعتقاده بأنه يبالغ كل المبالغة، إلا أنه لم يكن يستطيع أن يمسك نفسه عن إتمام قصصه بهذه التتمات، وعندما يميل الناس والكتّاب والأحزاب إلى المبالغة فإن الحكومة تميل.

ـ قبل أيام من موعد المسيرة وُزعَتْ الهتافات والشعارات والشدّيات المكتوبة لكي تقوم الجماهير بحفظها وترددادها خلال المسيرة، وقد تسلّمت الجماهير الأمانة المكتوبة، ونظرت إليها وقرأتها وأحست بالشتاء النووي يطالها. في المسيرة المنظمة المنضبطة، والتي تحيط بها العيون والظنون من الجوانب والشرفات، سار الناس صامتين، كأنما خرجوا لتوّهم من تحت أنقاض انفجار ذري هائل، عراة من الألفة والمودات، سائرين وصامتين، صامتين ومنضبطين، وقد استغرب رجال الرقابة والمتابعة، هذا الصمت والانضباط من قبل الجماهير، فانزعجوا أكثر لأنهم أحسوا أنه في ظل هذا الانضباط والصمت لم تعد لهم هيبة ولا ضرورة، خلال المسيرة، قال المسؤولون بغضب: لقد أخلّت الجماهير بالاتفاق، فالمتظاهرون ـ وهذا أمر لافت للانتباه ـ لم يتطاولوا ويصرخوا بشعارات غير مكتوبة وغير متفق عليها، غير أنهم ويا للعار، تجاهلوا القنبلة الذرية وخطورتها أيضاً، والأنكى من ذلك أنهم صمتوا، فبأي جريرة، وبأي تطاول يمكن أن نقبض عليهم لنسمع رأيهم، ثم بأي وجه وأي لغة سنواجه أصدقاءنا في اليابان.

ـ إنهم ـ قال أحد المسؤولين ـ إنهم يحتقروننا، وليتهم خرجوا علينا وخرجوا على هتافاتنا لكان الأمر أدعى للاطمئنان وأقرب إلى الفهم والمداولة ولكنهم ويا للعار صمتوا ولكننا يا للعار في موقف لا نحسد عليه.

ـ كان السيوفي يحرك نفسه وجسده على أطراف المسيرة وقرب

الأرصفة، ويتابع صمت الناس واستغراب الرجال المرابطين، وقد حاول الفهم، فلم يقدر، حتى أنجدته يده وأخرجت ورقة الهتافات التي تسلّمها دون أن يقرأها، وحاول أن يقرأ، ولم يقدر ولم يستطع إلا أن يضحك، ويقهقه بصوت عال، وكان هذا الضحك الذي أثار انتباه الناس والمسؤولين، سبباً في حرف أعناق المسيرة، فالتفتت الحشود إليه، وانقضّ المنظمون عليه، حتى هو نفسه استنكر أفعاله وانتبه إلى جسده ونفسه وحاول أن يوقف قهقهاته العميقة المزلزلة التي قاطعت صمت الناس والمسيرة، ولوت أعناق الحشود، ويا لها من برهة، هو يحاول أن يمسك نفسه والميليشيات تحاول أن تمسك به، والحشود وقد انتقلت من دهشتها واستغرابها إلى البدء بالضحكات الموحشات، وانفجر الشارع وانفجرت الشرفات واستعرت الضحكات واضطربت الوجوه والتقاطيع، والناس يمسكون خواصرهم ويتلوون، ولم تشهد القنبلة الذرية بكل تاريخها مسيرة استنكار لها مثل هذا النوع من المؤازرة والانفعالات.

ـ في غرفة التحقيق في المبنى ذاته حيث الأدراج الصاعدة والأدراج الهابطة لا توصل إلى الحديقة، وحيث الدهاليز والنوافذ والشرفات والمنتبهون لا يرون العشب الأخضر ولا مؤخرات العشاق وقد تبللت بالندى، وحده التهجم والاستنفار، لا همسات ولا نهود ولا أصابع موعودة بالارتعاش والملامسة، فقط كانت ذراعا السيوفي وممرات طويلة، وقبضتان مدربتان تقبضان بقوة، وتكادان أن ترفعاه عن الأرض من شدة الحرص والحفاوة، وعضلتا ساعديه تقعان تحت الأصابع القابضة، والسيوفي ذاته ماذا يستطيع أن يفعل في مواجهة المفارقات والضحك الغرائزي النبيل.

في غرفة التحقيق، اقتنع ببلاغة الجهة القابضة، وصحة تحليلها

للظواهر، وقد أعجبه الكرسي، وأعجبته الطاولة في مواجهته، وأعجبه السيكار الغليظ الذي يمسكه الرئيس بإصبعين معقوفتين تشبهان أصابع طفل لم يتعود في حياته على الإمساك بقلم، وها هو يمسك بدلاً منه هذا السيكار النفيس.

ـ أنت، بادره الرجل خلف الطاولة بالكلام، وهز رأسه، وكلمة أنت ليس لها جواب، وإذا حدث وأجاب الطرف الثاني فسيقول نعم أنا، وهذه الإجابة تحمل معنيين، التحدي أو السخرية، والسيوفي غير قادر على اقتراف أيهما، لذلك اتسعت حدقتاه كأنما لتجيبا بدلاً عنه، ولم يكن الرجل خلف الطاولة في وضعية متابعة الانفعالات وتفسيرها، كان منتبهاً إلى رجل على يساره يتابع معه موضوعاً.

ـ مجموعة السيكار التي قلت عن اسمها، صندوقها جيد مثل المجموعة الثانية.

ـ المجموعة الثانية أفخم، وصندوقها أرقى.

ـ أحضر لي خمسة صناديق، وإذا كانت بألوان مختلفة يكون أفضل.

ـ هذه الصناديق ماركة عالمية، ولا تتغير ألوانها.

ـ لو أنها تتغير... هل عرفت هذا الشاب؟

ـ لم أعرفه.

ـ هذا هو الشاب المرح الذي حدثتك عنه، وهو طالب جامعة، واختصاصه أدب عربي، وهو من الشبان الذين سيرفعون رؤوسنا في المستقبل. والله هؤلاء الذين يصنعون السيكار، كل شيء

عندهم ممتاز ما عدا شيئاً واحداً، ليتهم يضعون في مؤخرة السيكار قطعة بلاستيك حتى يأخذ المدخن راحته في الشد. أحياناً أنسى نفسي فأعض بقوة، فينكسر السيكار ويبقى عقبه في فمي ولا أنتبه إليه إلا عندما أعلكه وأحس بالمرارة.

ـ معك حق، تكون مشغولاً بموضوع هام أمامك.

ـ طبعاً، طبعاً، لذلك ترى أكوام الرماد في كل مكان عدا منفضة السجائر، لأنني أكون مشغولاً بموضوع هام، أحببت أن أرى خلقتك، أنتم طلاب الجامعة متعبون، لذلك سأرسلك إلى محقق يعجبك، يفهم عليكم وتفهمون عليه. قلت لي كنت تضحك، وهل يجوز الضحك في مثل هذه المناسبة، والناس كلهم صامتون لا هتاف ولا كلمة تأييد واحدة، والأوراق وقد ترطبت في أيديهم ويمشون على الطريق في صفوف منتظمة، وأنت تخرج الورقة من جيبك وتقرأ فيها وتضحك، هذه قلة حياء قال الرجل خلف الطاولة الجملة الأخيرة بعصبية، فوقع السيجار وتناثر رماده على بذلته بسبب اهتزاز قبضته المفاجئ، وتراجع الرجل في طرف اليسار إلى ظهر الكرسي واصفرّت ملامحه.

ـ كنت تضحك؟ هل كان الناس في اليابان يضحكون عندما سقطت عليهم القنبلة الذرية، والله سنجعلك تبحث عن الضحكة حتى آخر الأرض فلا تجدها.

ـ لا أذكر أنني ضحكت قبل هذه المرة، والناس في حارتنا لا يضحكون.

ـ من أية حارة أنت؟

ـ من حارة المغاير.

ـ فلماذا ضحكت، مادام أهل حارتك لا يضحكون؟

ـ لا أدري، جاءني الضحك فجأة، والضحك والبكاء عندما يأتيان لا يطلبان الإذن.

ـ وتتفلسف أيضاً، وضغط زراً، فانفتح الباب ودخل أحد الحجاب وقدّم نفسه بتحية رسمية.

ـ خذه إلى الدكتور.

* كلمة دكتور تثير الكثير من الأسئلة، ألبسة بيضاء وسماعة، لا بد أنهم سيجرون فحصاً أولياً له، ثم سيحولونه إلى الاستجواب بعد أن يطمئنوا إلى قوة جسده. يبدو أن لكل جسد في تقديرهم احتمالاً، ولكل احتمال عقوبة خاصة، هكذا قال السيوفي في نفسه وهو في الطريق إلى الدكتور. بعد مسيرتين وانعطافة واحدة، وقفا معاً أمام باب، دخله المرافق وأبقى على السيوفي في مواجهة الباب المغلق، وقد حاول السيوفي أن يتفرس في الباب وعلى جوانبه علّه يرى اسم الدكتور وينتبه إلى اختصاصه، غير أنه لم يجد أية كتابة، بعد ذلك دخل، وانتبه.

* الغرفة أنيقة، والطاولة مرتبة، وأكوام الرماد لا تملأ الطاولة ولا الأرض، ونظارة طبية مذّهبة الإطار تتقدم الوجه الناعم الدقيق التقاطيع، واللافت للانتباه وجود دولاب سيارة، جديد، وملمع فوق طاولة الوسط في الغرفة، فانتبه إليه السيوفي وفكّر فيه. كان يسمع من أهل الحارة أنهم يضعون المشتبه بهم والمجرمين في الدولاب، لكن كيف؟ لم يكن يقدر أن يتصور، وها هو يرى الدولاب أمامه، وفي وسطه طاسة نحاسية مزركشة تملأ تجويفه،

بين الدولاب والدكتور نقّل السيوفي نظراته، لو أنهم رفعوا طاسة الوسط لظهر الدولاب إليهم مثل فم يضحك، لكنهم وقد أغلقوه بطاسة النحاس، ظل مفتوحاً، ولكن ليصاب بالدهشة.

ـ أعجبك الدولاب؟ سأل الدكتور.

ـ الدولاب؟ عفواً!؟

ـ أستخدمه كصحن للسجائر، أنا لا أدخن، لكنني أحب المدخنين، هل تدخن؟

ـ أحياناً.

ـ لذلك وضعت الدولاب بشكل دائم، علماء الاقتصاد والاجتماع يعتبرون اكتشاف الإنسان للدولاب أكثر أهمية من اكتشافه للنار والخازوق، الدولاب شيء هام، الناس يقولون الدهر دولاب والعمر دولاب، ويمدحون الرجل فيقولون يعمل مثل الدولاب، الدولاب حضارة، لقد أدركنا هذه الحقيقة بشكل مبكر، فأحضرنا الدولاب، وأدخلنا الناس إليه، ليفهموا معنى الحضارة. أنا أخالف الكثيرين في نظرتهم إلى دور الدولاب، لذلك أحضرته وجعلته منفضة للسجائر. لكن بكل أسف، أصدقائي وزملائي في الطابق الأرضي يخالفونني الرأي، وينظرون إلى الدولاب نظرة مغايرة، إنهم يعتبرونه شيئاً مقدّساً، لأنه يخلصهم من اللف والدوران ويوصلهم بسرعة إلى الحقيقة.

* لقد عرفت مؤخراً أنك من هواة الأدب، وتكتب قصصاً مثيرة... وأنا يعجبني الكاتب الذي يلف ويدور مثل الدولاب ليصل إلى النهايات... حيث يتدخل رجال الأمن في آخر كل قصة.

هذه النهايات تعطي بُعداً مثيراً للحدث. إنها عملية تسخين ضروري أحياناً، وابتزاز لمشاعر الغير أحياناً أخرى، ولكن بطريقة فنية. لكن الذي يحصل أن الناس عندما يستمعون لهذه القصص يخافون أكثر، وبذلك ودون قصد تصبح هذه القصص لصالحنا، حتى الذين لا يخافون وتستثيرهم هذه النهايات، فيحاولون النيل منا، يفيدوننا في المحصلة، لأنهم يوقعوننا في المخاوف، وعندما تزداد مخاوفنا نحصل على المزيد من السلطات. أنت تلاحظ أننا لم نتدخل لنقبض عليك وأنت تكتب قصة حتى لا نحقق نبوءتك التي صنعتها في آخر كل قصة كتبتها. لقد صنعنا لك قصة وأدخلناك في نهايتها، ثم تدخلنا وقبضنا عليك وأنت تضحك، والضحك ضروري للإنسان، مثلما هو الثقب ضروري للدولاب، لكن الذي حصل أنك ضحكت في مواجهة حدث جلل اسمه القنبلة الذرية التي شبهتها في إحدى قصصك بالنهد الناعم الجميل، لذلك انفجر الدولاب. لقد أحسست رغم جمال التشبيه، بأنك تبالغ، تصور نفسك وأنت تقرأ القصة على الشعب الياباني الصديق، وانتبه بعضهم لهذا التشبيه، ماذا سيكون موقفه، وقد خبر القنبلة الذرية ودفع ثمنها غالياً؟ ثم وها أنت وفي ذروة الاستنكار الكوني لهذه الجريمة تضحك، إنك بكل صراحة واعذرني إذا قسوت عليك تخلو من اللباقة وحس الجماعة. إن هذا الحس أصبح في هذه الأيام ضرورة كونية، كما هو في الوقت ذاته ضرورة أمنية. حتى الأمريكان يا رجل استنكروا القنبلة واستنكروا موقف حكومتهم وهم يتابعون صناعة القنابل الأخرى، وقد عبّروا بذلك عن حس كوني سليم، وإرادة جماعية في زيادة الإنتاج.

ـ إنني مثل كل الناس، أدين إلقاء القنبلة الذرية، وقد وقعت على إحدى عرائض الاستنكار، أجاب السيوفي موضحاً.

ـ لكنك لم تنتبه.

ـ إلى أي شيء؟

ـ إلى العريضة، وطبيعة الشجب فيها.

ـ كانت لهجة الشجب حماسية وواضحة، رد السيوفي بارتياب.

ـ الذي ينتبه يحس بأن الشجب يطالنا نحن وكأننا من ألقى القنبلتين.

ـ الأمريكان ورد ذكرهم أيضاً.

ـ عظيم، ما دام ذكرهم قد ورد، فلم تعد هناك مشكلة، تفضل واسترح على الكرسي، لقد أخذني الكلام ونسيت، هل تعرف لماذا يسمونني الدكتور؟

ـ أبداً، ربما كنت مختصاً مثل أساتذة الآداب في العلوم الإنسانية.

ـ لدي في الواقع ميول إنسانية، لكنني لا أحمل شهادة كالتي يحملها أساتذة الجامعة، ومع ذلك أستطيع أن أشخص المرض وأكتشف الدواء. هل تسمح بأن أسألك عن السبب الفعلي الذي دفع بك للضحك في المسيرة؟

ـ إنني بصراحة، وجدت في الهتافات المكتوبة والموزعة بعض الأخطاء المضحكة.

ـ إننا مثل جميع البشر نرتكب الأخطاء. كان بوسعك الاتصال بنا وتوجيه ملاحظة حول هذه الأخطاء، وسترى أننا نعمل بالتوجيهات والملاحظات بروح متعاونة طيبة، وفي غالب الأحيان ندفع مكافأت سخية لمن يرشدنا لأخطائنا. ثم ما هي الأخطاء التي

لاحظتها؟ ولماذا لم ترشدنا إليها حتى نصون هيبة التظاهرة ونمنعها من التردي في الضحك الجارف غير المسؤول؟ هل كانت الأخطاء برأيك من النوع الذي يدفع الناس لإساءة الفهم، أعني لخدمة أهداف القنبلة الذرية؟

ـ أبداً، لم تكن الأخطاء في الأهداف والمنطلقات.

ـ بأي شيء كانت إذاً.

ـ الأخطاء كانت إملائية.

ـ نحن نتقبل أية ملاحظات عن الأخطاء اللغوية والإملائية، ونقوم بالتصحيح بإشراف الشخص المبلّغ.

ـ لم أكن أملك الفرصة لإبلاغكم، لقد قرأت ورقة الشدّيات والهتافات في ذات الوقت الذي انفجرت فيه بالضحك.

ـ جميل منك أن تقول انفجرت بالضحك، لأن كلمة انفجرت تتناسب ومعاني إلقاء القنبلة الذرية التي حصلت المسيرة بسببها، هه، لم تقل لي ما هي الأخطاء.

ـ هي أخطاء بسيطة.

ـ أحب أن أعرفها.

ـ وردت في الهتافات المكتوبة عبارة (القنبلة الذرية) عدة مرات وقد كتبت التاء المربوطة في كلمة ذرية تاء مفتوحة، لذلك.

ـ لذلك لم تستطع أن تمسك نفسك.

ـ هذا ما حصل.

ـ وانفجرت بالضحك.

ـ نعم.

ـ أما نحن فقد تقصدنا أن نكتب التاء المربوطة في كلمة، (ذرية) تاءً مفتوحة.

ـ لم أفهم. لماذا تقصدتم كتابتها مفتوحة؟

ـ لو أنها كتبت مفتوحة لمرة واحدة، لكانت كتابتها تندرج في باب الخطأ، ولكنها وقد كتبت ثلاث مرات، فهذا يعني أنها وردت قصداً.

ـ وردت قصداً، لماذا؟

ـ هذا يستدعي شرحاً طويلاً، التاء المربوطة، وبعد إلقاء القنبلة الذرية وانفجارها تحررت من قيودها وانفجرت وصارت تاءً مفتوحة، أنت انفجرت من الضحك والتاء المربوطة انفجرت من الغضب، وشتان بين انفجار وانفجار، لذلك رغبنا في استدعائك لتحل لنا المشكلة.

ـ المشكلة؟

ـ نعم، أنت كما علمت طالب في كلية الآداب، وأقدرُ من يعرف متى تكتب التاء المربوطة والمفتوحة، لذلك أحضرناك لنتعاون. نحن، وهذا أمر غير سري، تصلنا تقارير كثيرة من مواطنين يحبون البلد ويحبون أنفسهم، ولكنهم بشكل عام يخطئون في التعبير عن هذا الحب، وتظهر أخطاؤهم بشكل فاحش، وبخاصة في التاءين المربوطة والمفتوحة، ونحن بصراحة نحب التاء المفتوحة أكثر لأنها تعطي انطباعاً حراً مفتوحاً، يختلف عن الانطباع الذي تعطيه التاء المربوطة المقيدة. لذلك نريد مصححاً

لغوياً يستطيع أن يعرف ويقدّر متى يجب أن نكتبها مفتوحة، ومتى يجب أن نكتبها مقيدة ومربوطة وملعوناً والدها. أحد الظرفاء من أصدقائي، وبعد أن حدثته عن مخاوفي تجاه التاء وتحولاتها، طلب مني أن أذهب إلى تركيا وأعيش فيها، لأنهم هناك كما قال لي، ليست لديهم عقدة التاء، ولا يعرفون التاء المربوطة أبداً، فهم يكتبون (العدالات، والحريات، والمساواة) كلها بالتاء المفتوحة، دون أن يؤاخذهم المجلس الملّي، لذلك فالشعب عندهم لا يضطر لأن يضحك في المسيرات الجادة كما فعلت أنت.

وهكذا وجدنا ضرورة للتعاون مع شاب لامع يجيد كتابة القصص القصيرة مثلك، وقررنا تسليمه قسم التاء المربوطة والمفتوحة في إدارتنا، مع السماح بالتعاقد بمبلغ يصل إلى ألف ليرة، وهو مبلغ لا يحلم به أستاذ في الجامعة في هذه الأيام. كما أنهم في الإدارة رغبوا، وبعد أن أطلعوا على نصوص التقارير التي تصل، أن تتم قراءتها قراءة فنية وإعادة صياغتها بأسلوب قصصي شيق، والتقليل من الطابع الإنشائي المدائحي البغيض، نحن كإدارة فرعية لا نستطيع أن نطلب من المتعاملين معنا أن يقللوا من المديح، لأننا إذا طلبنا منهم ذلك سيستخفون بنا، وسيعتبرونها دعوة للكتابة الموضوعية. وإذا فهمها المتعاملون كذلك، فهذا يعني أن عدداً كبيراً سيحالون على الدواليب، وبعدها ستنتشر المخاوف وتتضاءل التقارير، لذلك نحس بوجود مشكلة تؤرقنا، فنحن وعندما تردنا آلاف التقارير شهرياً، ونقوم برفع جزء منها إلى الجهات المعنية، نصاب بالحرج الشديد بسبب رداءة التقارير وتفكك أساليبها، فتشعر هذه الجهات بتفاهة الأشخاص الذين نتعامل معهم، وبذلك تشعر بتفاهتنا أيضاً، لذلك تلح علينا مسألة إعادة الصياغة، لتكون تقاريرنا ذات قيمة فنية عالية، تدفع الجهات المسؤولة للانشغال

بجمال الأسلوب ورشاقة الصياغة وسلاسة الأوغاد، فما رأيك بالدولاب، أقصد فما رأيك بالفكرة؟

ـ أية فكرة؟

ـ فكرة إعادة الصياغة، لقد قرأنا قصصك، وأقول لك بصراحة. لم تنتبه للنهايات التي أقحمتنا فيها، لقد قدرنا عالياً جمال الأسلوب ورفعته، وحسن استخدامك للتاءين المربوطة والمفتوحة، وهذا امتياز لم نجده في القصص الأخرى لأبرز الأدباء في بلدنا. إن فتاة الفورمول التي تحدثت عنها غاصت من الخجل في قعر الحوض بسبب كثافة المتفرجين الذين رغبوا في مشاهدة استغاثاتها عندما وصلت أخبارها إليهم. بعد قراءة قصتك ارتفعت مداخيل الرجل الأبيض الذي وصفته في القصة والذي يعمل مشرفاً على الأحواض إلى أرقام عالية، بسبب تقاضيه مبلغاً من المال، كرسم دخول لمشاهدة الأحواض، رغم أنه حاول عدة مرات الانتحار بسبب ضغط الأخلاق. لقد اكتشفنا بشكل متأخر أهمية الأسلوب الجميل وسلطته على المتلقي. إن تناولك لعمل جهازنا في نهاية القصة دفعنا لأن نخاف أن تفعل الجماهير بنا كما فعلت بنا مع فتاة الفورمول فتأتي زرافاتٍ ووحدانا لتلقي بنا في الأحواض، فنصاب بما أصيبت به فتاة الفورمول، ونضطر لأن نغوص من الخجل، وهذا بصراحة أمر لا نقدر عليه. الذي أنقذنا من هذه الورطة هو أنك لم تكن في قصتك متعاطفاً معنا، فلو فعلتها وتعاطفت لكنا جميعاً في حالة غوص عميق، كما فعلت فتاة الفورمول مع المريدين.

* في الكلام، في العِبر والخبَر، وما جرى وما صار، كان السيوفي في حالة انتباه واستسلام للتدفق الطويل لكلام الدكتور،

وللمحطات الساخنة والانتقالات المدهشة، التي قطعها في حديثه، غير أن السيوفي عندما وصل الكلام إلى فتاة الفورمول أحس بالذهول والأسى، لأنه، وهذا أمر لا يشك به أبداً، أحب الجسد الطافي على الماء. صحيح أنه حب غامض من طرف واحد، حبٌ لم يفهمه ولا يعرفه، لكنه أحس بأن كل الناس الذين قرأوا القصة أحبوا فتاته تلك، ورغبوا مشاهدة الجسد العظيم، لكنه لم يكن يتوقع أو يفهم لماذا أحبت أجهزة الرصد أيضاً هذا الجسد، وما هي أسباب التحولات التي أصابته ودفعته إلى أسفل الحوض.

أدرك الدكتور وهو يرسل حشود الكلام، أن رهينته أصبحت عصية عليه، شعر بذلك بما لديه من حس مدرب وقدرة على الاستحواذ والمتابعة، فقرر الإنصات للتقاطيع ومحاولة قراءتها، فهي أحياناً تقدم إجابات هامة عندما يعجز الكلام عن الكلام وتعجز الأذن عن الإصغاء، لذلك ترك الدكتور رهينته عبد العزيز السيوفي لاستغراقه وبدأ برصد تحولات الملامح من أجل المتابعة والتأويل.

ـ إنني، إنني لا أصدق أنه....

ـ نعم لقد غاص الجسد العجيب.

ـ هل شاهدته؟

ـ لقد قرأت القصة.

ـ واستطعت أن تمسك نفسك؟

ـ لم استطع، بعد أن قرأت القصة وشاهدت الجسد، شعرت بالتعدد والتشوّش، وما عدت أستطيع الإحاطة والمتابعة، لذلك استدعيتك.

ـ استدعيتني؟

ـ نعم.

ـ كنت أعتقد بأنكم قبضتم علي.

ـ لو أننا قبضنا عليك لما استطعت أن تتعرّف إلى نفسك، انظر إلى هذه التقارير، ما عدت أستطيع احتمالها أو التعامل معها، وخاصة بعد أن قرأت قصصك وتعرّفت إلى أسلوبك في الكتابة. هذه التقارير اللعينة، تحتاج إلى القراءة وإعادة الصياغة، وأنا أضمن لك بأننا سنحقق لك رغباتك، ونقحم أنفسنا وإدارتنا في نهاية كل تقرير، ونتدخل تماماً كما تحاول إثبات ذلك في قصصك. لذلك نرغب منك أن تعيد صياغة هذه التقارير، إنها محاولة عظيمة للارتقاء بالذوق العام، وأنت تلعب دوراً كبيراً فيها، أسلوب في مثل أسلوبك ونحصل على جائزة نوبل في أدب التقارير.

رغبات عديدة تدخلت لتربك السيوفي وخياراته، وكان أقواها ميله لمعرفة عمل هذه الآلة الغريبة من داخلها، كذلك معرفة التقارير وهل تمتلك إرهاصات للتحول إلى فن قصصي عظيم.

ـ لذلك غضبنا، صاح الدكتور بغضب مفاجئ، فارتعش السيوفي من الخوف.

يبدو أنهم جميعاً يصرخون هكذا فجأة ويتطاير من أفواههم الرذاذ الجاف في كل اتجاه.

ورغم مخاوفه خطرت بباله هذه الكلمات بينما كان الدكتور يعيد تثبيت نظارته على زجاج وجهه، ويمسح بظاهر كفه البصاق الذي تناثر على حواف الهواء والزمان، وقد انتبه الدكتور إلى لامعقولية

وفجاجة تصرّفه، فبحث بحركة عصبية عن صندوق المناديل وانتزع منديلاً منه وتابع مسح وجهه وظاهر كفه ثم تابع الكلام: لقد غضبنا لسبب واحد، هو أنك اتهمتنا بالغباء.

ـ أنا اتهمتكم بالغباء؟ معاذ الله.

ـ فلماذا ضحكت، كثيرون يتهموننا بالرداءة والظلم، يقولون عنا كلاماً لا تحتمله الكلاب، ونغض النظر عنهم دون أن ننساهم، لكن أن يتهمنا أحد بالغباء، فتلك لعنة، ولا يوجد في البلاد جسد يستطيع أن يردها ويحتملها، لذلك لا تطمئن كثيراً لقوة جسدك، وارتخاء شفتك العليا وتماسك أسلوبك البلاغي. أنت بكل صراحة تجاوزت كل شيء، ولولا ما نتمتع به من صبر، لتدخَل أصدقاؤنا في الطابق الأرضي، ولشاهدت بأم عينيك وجدتك، عمل الدواليب والحضارات، ولضحكت من الذعر حتى وصلت فتحة فمك إلى أذني أقرب معتقل إليك.

إننا نريد الخلاص، ونريد منك أن تشاركنا قَدَرنا ومعاناتنا، لذلك أرجو أن تساعدني حتى لا نعطي للطابق الأرضي فرصة للمشاركة، في أول الأمر سيكون العمل محدوداً، سأعطيك بطاقة تستطيع أن تدخل بواسطتها في فترة المساء لمدة ساعتين، وغرفتي ستكون بتصرفك، والتقارير ستكون إذا استطعت أن أمسك أعصابي في مكانها الحالي، اقرأ التقارير بعناية، وضع التافهة منها في مكان، واللئيمة في مكان آخر، وعندما تنتهي من التبول عليها، أقصد من فرزها، ابدأ بالتقارير اللئيمة، أخرج كنوزها وقم بتجفيفها وإعادة صياغتها.

كان وجه الدكتور يخرج عن الكلام وينتفض على صاحبه، لذلك

يخرج صوته مرتبكاً وغريباً، يذعر نظارتيه فيتدخل بإصبعه لضبط انفلاتهما، دون أن يتمكن من لجم بؤبؤي عينيه وهما يدوران مثل دولاب هائل بعيد.

عندما خرج عبد العزيز السيوفي من المبنى هرعت يده إلى جيبه مرة عاشرة، لتلامس البطاقة الملساء، التي ستعطيه الحق بالدخول إلى المبنى لقراءة التقارير والتصرّف بأصحابها ومضامينها، بطاقة ملساء مثل نهد لم يعد بوسعه أن يعود إليه ليلامسه من جديد.

المكنسة الذهبية

حين قرر قيس الفضلاوي الأشوص الخروج من ردائه المدني، كانت الحارة تنتظر بترقب خروجه إليها في هيئته الجديدة. كان واقفاً في غرفة نومه التي شاركته فيها ومن أيام بعيدة وحيدة الحبال عروس المياه الغامضة. في هذه المناسبة، وصل يزيد الأشرم إلى حارته، بعد أن غادرها منذ سنين قاصداً ضفاف الفرات لبيع المكانس والحبال. وبسبب من تعوُّد كتفيه على حمل قلائد الحبال والمكانس، فقد صار أقصر من أن تتعرف إليه الحارة، غير أن رائحة جسده الزكية التي تحمل بعضاً من رائحة وحيدة الحبال التي تعرّف إليها هناك لفتت إليه الأنظار، سنوات مرّت وهو يحاول العودة للحارة ويضيع منه القصد والطريق.

* كانتا قدماه تتركانه وتمشيان وحدهما لتعودا لوحيدة الحبال، وحيدة التي دخل إليها فجأة ودخلت إليه واحتكّت قدماه بقدميها ورمانتا صدرها برمانتي كتفيه، وسرته بأسرارها ومياهه بحفاوتها

وسخونة ذكرياتها، فترك الحبال والمكانس في خيمتها واعتصم بخصلة شعرها ورجع حاملاً تحيتها للحارة، وعاد وما وصل، كان في الطريق أمام المعضلة وخصلة من شعرها في قبضته، يمشي ويسأل نفسه: هل يمكن الواحد أن يلاقي حارته بعيداً عن روحه وتوق قدميه.

وقيس الأشوص أمام المرآة يثبت العمامة على رأسه، وقد توازت حافتها البيضاء مع جرح الخزانة الذي أصاب جبهته ليلة زفافه على وحيدة الحبال، وقد اضطر لأن يرفع سبابته ويمررها على الجرح ويتذكر، فكيف له وللرداء الطويل وبؤبؤيه الفزعين والمرآة في مواجهته أن يمنعا عنه رؤية جسد وحيدة العجيب.. وحيدة التي ارتفعت إليه بصدرها فطار بصدره إلى التعاويذ. ها هو ذا الجسد البليغ في المرآة يمتد إليه عارياً وجائعاً، فما الذي سيفعله بطوله وعمته وجبته، سوى أن يركض إلى المريدين، ليعلن بدء العيد.

على الباب كان سرادق من المتحمسين قد رفعوا أكفهم وأصواتهم مثل غابة من التهاليل. ورفَّتْ الأصابع إلى الجسد وألبِسَتِهِ الجديدة لتعتمد بصماتها بالشيء الذي يعبر الطريق، وفي آخر السرادق تلقاه يزيد الأشرم بالحفاوة والعناق، تلقاه بغتة وقفز إليه، فاحتضنه قيس الأشوص، وبادله العناق، أمام انتباه المحتفين والتابعين. وعندما امتدت الأكف إليه لتنزعه، التفت قيس المعمم إلى أيديهم وأبعدها عن الرجل وتابع احتضانه بعد أن تشمم رائحة جسده الغريبة. وعندما ارتطم فم الأشرم بأذن قيس الفضلاوي، همس فيها: أحضرت لك الأمانة، وحيدة الحبال تسلم عليك. ثم وضع في كفه خصلة الشعر الكثيفة النادرة، وقد ربط وسطها بخيط فظهرت مثل مكنسة ذهبية عجيبة لم تر حارة المكانس في تاريخها شيئاً

يضاهيها، ثم تدلى الرجل إلى الأرض، وترك قيس الاشوص والخصلة في يده ومضى، وتدلت المكنسة الذهبية مثل شيء سيكنس عن روحه الطمأنينة والنوم.

عندما وجد الأتباع سيدهم قد تهاوى على الأرض وكفه تقبض على شيء لا يعرفونه، وقد برزت أطرافه اللامعة من طرفي القبضة، تشاغلوا عن الرجل القصير، وانهمروا على الجسد الطويل وحملوه. بعد أن تمت إعادة قيس الفضلاوي إلى غرفته ومُدِّدَ جسده على السرير، انشغل قسم منهم برش ماء الزهر على وجهه، وقسم آخر بمحاولة فك قبضته حتى يسترخي جسده وليعرفوا سر سيدهم الدفين ومضمون الرسالة التي قدمها إليه يزيد الأشرم. لكنهم عجزوا جميعاً عن فك الأصابع وتحريكها، وما وجدوا إلى محنته سيدهم طريقاً سوى التحلّق حول سريره، والبدء بالنشيد وقد ظلوا على ذلك حتى أخذتهم من شدة الإعياء والغناء سنة من النوم، فاستيقظ الفضلاوي على أصوات شخيرهم، وانتبه إلى قبضته وحاول مثل مريديه أن يفكها فلم يقدر. حاول أن يجذب الشعرات الظاهرات من طرفيها، فلم ينجذب إليه شيء. عند ذلك شعر بأن الرجل الذي أتاه وعانقه رجل مبارك وله أسرار، لذلك اعتكف إلى نفسه وإلى أطراف خصلة الشعر في قبضته وبدأ التذكر والاحتقان، فجسد وحيدة الحبال هو الشيء الوحيد من أجساد النسوة الذي شاهد اكتماله وبياضه، وعريه وغموض مفارقه، وهو الجسد الوحيد الذي له سلطة عليه ويستطيع أن ينتزعه من مجلسه وسط أتباعه ليجره إلى الوحدة والبكاء، غير أنه الآن أمام مفترق صعب، وبحضور شيء من أثر الجيب، لذلك انصرف إلى نفسه وعيناه ترمقان الشعرات الذهبية المتدلية من طرف قبضته، وظل على هذا الحال حتى جحظت عيناه وأخذتا

تدوران في مكانيهما دون أن تريا شيئاً، وقد ألهمته هذه الوضعية أفكاراً هامة حاول أن يدعو مريديه ليبلغهم إياها.

في الاجتماع مع الأتباع، وفي حالة الزوغان الشديد، قدّم قيس الفضلاوي لمريديه رؤياه العجيبة، فقال: لقد أجزتم بصبركم ودأبكم وخجل نسائكم، مرحلة الحضور العياني المُجسّد، وأصبحتم كائنات لا ترى بالعين ولا تلمس باليد.

ـ ولكننا نرى بعضنا ونستطيع أن نتلمس أجسادنا، قال أحد الأتباع من الذين لم تنضج نفوسهم، وما زال لعقولهم تأثير.

ـ هذا الأمر يخصك وحدك، فلا تتجاوز حدَك، وإلا أعدناك للعمل في الفرن، إنني لا أراكم (وكان يقول الحقيقة) ولكنني أرى آثاركم، أما غيرنا من الناس، ومن أهل الحارة، فلا يستطيعون مشاهدتكم ولا مشاهدة أفعالكم، لذلك تستطيعون أن تفعلوا بهم ما تستطيعون، فاظهروا ولا تجهروا، وإياكم والاعتداء على نساء الحارة وبناتها، لأن نورانيتكم ستزايلكم، وسيراكم الناس ويرون عريكم وتصبحون من الأرذال المارقين، أما عندما ترون انبثاقات الدم على صدر الرجل الضال ورقبته، فاذهبوا دون استعجال أو تلفت أو ركض، عندها ستبتلعكم الحشود ولن يراكم أحد مثلما أشعر الآن نحوكم وتشعرون نحوي.

التقارير

* كثيرة هي الأفكار التي تقاطعت في رأس عبد العزيز السيوفي وهو يقتلع قدميه من إسفلت الشارع ليغرسها فيه مرة ثانية متقدّماً إلى بوابة المبنى الضخم ويده على البطاقة التي تقدم وأبرزها للرجل خلف كوة الحراسة، فتأملها ثم نهض باستعداد، وقدّمها للسيوفي قائلاً: تفضل سيدي.

* بعد الممرات والسلالم، وصل إلى غرفة التقارير، وهو يستعيد وقفة الاستعداد والتبجيل التي أسبغها عليه الحارس الجهم، والبطاقة بطرف كفه، وقد برز طرفها الآخر إلى الأمام كأنما لتتقدمه وتنير له الطريق. عندما أصبح في مواجهة الباب تقدمت يده بحركة لا شعورية لتفتح الباب بالبطاقة نفسها، فارتطمت البطاقة بالقفل النحاسي وانثنت خائبة. خلال ذلك هرول إليه أحد الحجاب، وأخرج مفتاحاً وفتح الباب بتأهب واستعداد.

ـ تفضل سيدي: قال الحاجب.

تَفَضَّلَ السيوفي دون أن يقول شيئاً وصوت الباب يتردد ثانية ليصبح السيوفي وحده، غير أن الرائحة الواخزة سطت عليه. كانت التقارير في حالة تناثر وفوضى، ورائحة بول قديم تعج في المكان وتغيم عليه، رغم النافذة الواسعة المفتوحة خلف الكرسي، استدار السيوفي رغم الرائحة وفتح الباب، حتى تتمكن التيارات من اجتياح الغرفة وتشتيت شمل الرائحة.

ـ ربما كانوا يختبرون قدرتي على الاحتمال، قال في نفسه وهو ينحني للملمة شتات الأوراق والتقارير المتناثرة، وقد أدهشه أن الأوراق التي تلي الصفحات الظاهرة، ما زالت رطبة وألوانها غامقة أكثر. أما الصفحات الأولى فقد ارتسمت على أطرافها خطوط ملحية بيضاء لأن حظها من الجفاف كان أوفر من حظ مثيلاتها من الأوراق التي تلتها.

بعد وقت ومحاولات شجاعة بذلها لتقليل حصة رئتيه من الرائحة العنيفة، ألقى بنفسه على الكرسي وأخرج من جيب بنطاله منديلاً ورقياً حشا به فتحتي أنفه وأطلق العنان لفمه كبوابة وحيدة لعبور الهواء، ثم نهض بعد أن استعاد قواه وانحنى على الأرض وبدأ بلملمة التقارير.

يبدو أن الدكتور قد أمضى مع هذه التقارير بعضاً من لياليه، وعندما انتهى منها وضعها في منتصف الغرفة وتبول عليها بسبب ضآلة المعلومات ورداءة الأسلوب. وبعد أن فعل انقض على التقارير وبعثرها بعصبية في أركان الغرفة لتأخذ نصيبها من الجفاف، ثم فتح النافذة ليسمح بدخول الهواء لتجفيف التقارير. هذا هو

التحليل الذي وصل إليه السيوفي (رغم انسداد أنفه) فأحس بارتياح لموقف الدكتور وتقلبات مزاجه. يبدو أن هذا الرجل حي الضمير، لذلك تتمرد عليه أزرار بنطاله، فيفعلها ويبلل المبنى والأوراق في محاولة منه لإعادة التوازن، فإن كان فعلها لدوافع من هذا النوع، فهو جدير بأن يكون بطلاً لقصة قصيرة، وربما رواية، غير أن (حي الضمير) لا يصلح عنواناً للقصة أو الرواية التي سيحاول كتابتها بسبب (تقليدية) العنوان ورطوبته.

عندما رتب السيوفي التقارير ووضعها فوق الدولاب اللامع في منتصف الغرفة وجلس ليقرأها ويكتشف طبيعتها، اكتشف نمطاً جديداً من البلاغة والأفعال من مقدم التقرير (س ـ ن)، المكلف بمتابعة (وـ ق)، فأثارت اهتمامه مقدمة التقرير وميل كاتبه الشديد للتكثيف والرمز، وتابع القراءة:

التقرير الأول

* صباح اليوم، خرج المذكور أعلاه من البيت، في حيه حي (الوراقة) ومر على دكان عزيز (الكواء) وكان (يكوي) الألبسة، فاقترب منه وسلم عليه، ثم وقف عنده، وشاركه شرب كأس من الشاي، وضحكا معاً، وهمس عزيز (الكواء) في أذن (و ــ ق) فضحك المذكور ضحكة قوية تطاير معها الرذاذ من فمه على المكواة الحامية فانفجر الرذاذ عليها وتصاعد البخار. ثم إن عزيز (الكواء) أخرج من عبه ورقة، يمكن أن تكون بياناً حزبياً، وأخذ يقرأ الكلام المكتوب ويفرد ذراعيه مثل طلاب المدارس وقد وصل إلى مسمعي بعض الكلام.

إن البلاد وقد تكاثر شعبها... نهضت إلينا من تخوم الفرقد،

جاءت إليها الصاعقات كبطة... قرب الموقد.

هناك كلمات لم أستطع سماعها، وعندما انتهى عزيز الكواء من

الحركات الرياضية، نظر إلى وجه (و ـ ق) وقال له: ما رأيك يا أستاذ؟ فقال له الأستاذ (و ـ ق) موضوع المتابعة: إذا بقيت تكتب مثل هذا الكلام فستحرق نصف ألبسة أهل الحارة. فرد عليه عزيز الكواء بعصبية: يبدو أن المضمون السياسي لم يصلك لتدرك أهمية القصيدة. عند ذلك نظر إليه الأستاذ (و ـ ق) بغضب، ثم شرق كأس الشاي دفعة واحدة، ومضى فتبعته، كانت حركته سريعة، فأسرعت، وعندما خرج من بوابة حارة الوراقة إلى دوار القلعة عبر باص السراي سريعاً، فلحقه الأستاذ رغم ضخامة حجمه فركضت خلفه، عندما وصل صعد من الباب الخلفي وأنا صعدت من الباب الأمامي حتى لا يكشف أمري، لكن الذي حصل أنه عند نزلة الجامع الكبير توقف الباص فجأة وصعد المفتش وبدأ يطلب البطاقات من الركاب، ولم تكن معي بطاقة، فطلب مني الهوية ومبلغ عشر ليرات كمخالفة، فنظرت إلى المفتش وأخبرته أنني مستعد للنزول معه لتوضيح الأمر، فأصر على ضرورة الدفع مباشرة، وإلا فإنه مضطر للذهاب بالباص وسكانه إلى أقرب مخفر للشرطة، وقد وجدت نفسي مضطراً للموافقة، فهناك في المخفر لابد أنهم سيفهمون وضعي ويساعدونني. أتوقف الآن عند هذا الحد، وسأتابع ما جرى وصار معي في مخفر الشرطة في التقرير القادم، وإلى الأمام.

قبل أن يفكر السيوفي بإطلاق أحكامه على النص، ركضت أصابعه إلى كومة الاورق المكدسة لتبحث عن الحلقة الثانية من التقرير، وكأن أصابعه تنفرد دونه بإطلاق الأحكام والحفاوة بالحلقة الأولى وما ورد فيها.

(س ـ ن) أين أنت يا (س ـ ن) أين أنت، أين أنت، ها... ها

هو، كان التقرير في حالة لا يحسد عليها من البلل والتخمر، وقد كانت الرائحة من القوة والحضور بحيث فعلت بالسيوفي ما عجزت عنه كومة التقارير الأخرى، فتدامعت عيناه بغزارة، ربما بسبب محاولته التحديق بمساحة الرطوبة الغامقة التي أضعفت من حدة التباين بين لون الورق ولون الكتابة، ورغم ذلك تابع الحلقة الثانية من التقرير بانتباه، فبعد قراءة المقدمة المعتادة ورموزها، وصل إلى المتن.

* بعد أن حصل ما حصل، تابع الباص طريقه إلى مخفر باب الفرج مستعجلاً، فهلل بعض الركاب فرحاً، وصاح قسم آخر منهم معارضاً تغير الطريق، وقد حاولت أن أنتبه إلى المعارضة أكثر، فعسى أن يكون في رأي أفرادها ما يفيد كتابة تقرير جديد.

* جماعة المعارضة صاحت: ما دام الباص سيذهب إلى المخفر فليذهب إلى مخفر باب النصر، لأنه يقع على طريقنا، ونحن نريد أن نشتري بعض الكتب العتيقة للأولاد. أما الركاب من جماعة مخفر باب الفرج الذين تقتضي مصالحهم الذهاب باتجاهه فقد ردوا بأصوات واضحة على كتلة المعارضة، وطالبوا بتنفيذ إرادة المفتش الذي يمثل بالنسبة إليهم الحكومة، وقد ظلت الأمور على هذا الحال بين أخذ ورد، حتى تكلم السائق وكان كلامه فاصلاً فقال: أنا ذاهب للتبول، حلوا أموركم مع بعضكم حتى أعود، وفتح الباب الخاص به وغادر، فأعاد المفتش إغلاق الباب بهذه المناسبة أحب العودة إلى (عزيز الكواء) الذي تحدثت عنه في الحلقة الأولى من التقرير، وذلك حتى أخلّص ذمتي، وأثبت ولائي وحسن بلائي، أما عن (الكواء)، فقد كتبت تقريراً مفصلاً عنه وأرفقته ببعض القصائد التي يكتبها إلى سيادة الدكتور، فرد على التقرير

بجواب لاحق، بأنه لا خطورة من هذا الرجل لأنه يكتب الشعر العمودي، ولأنه في الوقت نفسه (الكواء) الوحيد في الحارة وهو يقوم (بكي) الألبسة لبيت (المنصور) وهم أهل زوجة المقدم (قائد الشرطة)، غير أن الذي جرى وصار، أن (عزيز الكواء) وكما علمت وفهمت أحس باستهانة جهاز المخابرات به وبشعره، فقرّر أن يكتب الشعر الحديث، وهذا القرار أزعج من جهة ثانية حزبه الذي يلتزم به، فقرّر الحزب فصله من صفوفه بسبب ورود عبارات حديثة خارجة عن القافية والقانون، (هذا ما ذكره أحد الأعضاء داخل التنظيم ومن الذين يعملون على إدخالي في الصفوف) إضافة إلى أنه، أي (الكواء)، قد أحرق عدّة (جاكيتات) لسكرتير اللجنة المنطقية الذي يسكن حارة (السفاحية) المجاورة، وهو أي (الكواء) ما كان له أن يفعل ما فعل لولا كتابته للشعر الحديث، وعلى ذلك أحببت التنويه. ونعود بالسيرة والكلام إلى ما جرى وصار في الباص، خلال هذه المعمعة، وانسداد الأبواب، وضيق فتحات النوافذ بحيث لا يستطيع الواحد من الراكبين أن يُخرج جسده ليتابع طريقه، تقدم أحد الركاب باقتراح، وهو أن يجمع من كل واحد من الركاب ربع ليرة ربع ليرة، وعندما يكتمل مبلغ العشر ليرات الذي رفضت دفعه، يتوقف المفتش عن الجمع ويأخذ المبلغ ويتوكل على الله، فربما قال صاحب الاقتراح الأخ نسي أن يحضر معه (جزدان) النقود، وقد صدق الرجل من هذه الناحية.

وعندما انتهى صاحب الاقتراح من اقتراحه تراجع ركاب الباص جميعاً إلى مؤخرة الباص حتى لا يأتي دورهم في الدفع، فعبّروا بذلك عن استنكار شديد للفكرة وصاحبها، أما أنا فعندما سمعت ما سمعت وشاهدت ما شاهدت، رفضت بإباء أن يجمعوا لي ويتكرموا علي وبالغت بالصراخ والاعتزاز.

فصرخ أحد الركاب المستعجلين صوتاً قوياً وقال: بلا عزة نفس بلا بطيخ، لو كانت فيك عزة نفس لقطعت بطاقة وما ورطتنا هذه الورطة. وأصارحكم، عند هذه النقطة شعرت بالحرج الشديد، وصرخت في وجه الرجل المستنكر، اخرس يا أخ، واكفنا شرك، وإلا والله أفعل بك العجائب، وقد أخذتني الحماسة فلم انتبه إلى ضآلة جسمي وضعف قواي، غير أن الخصم انتبه إلى ذلك فتقدم مثل السهم ولكمني على وجهي لكمة شديدة، فتهاويت، ولولا الأجساد المحيطة بي والتي سندتني لكنت تمددت على الأرض من هول الضربة وقوتها، ولكنني بعد أن صحوت واستعدت وعيي، صرخت: هل تعرف يا ابن الحرام من أنا وماذا أستطيع أن أفعل بك؟ (أنا من المخابرات) وسأريك، وأنا من أجل الأمانة أذكر ما حدث، رغم التحذير الشديد بضرورة أن لانعلن عن عملنا ومهمتنا، لكنني وقد فقدت وعيي، خرجت الكلمة مني دون دراية ولا مسؤولية وعندما أتممت كلمتي ما عدت أعرف من أين تأتيني الضربات، في هذه المرة تضامن الجميع عليّ، ولم يكتفوا بأيديهم بل ساعدتهم أرجلهم على إتمام المهمة، ثم أفسحوا لجسدي الطريق حتى لا أستند إليهم، فتهاويت بطولي على أرض الباص، فَحَمَلَ جسدي من الأوساخ والغبار أكثر مما تحمَّل من الرفسات واللكمات، وقد أردت سرد هذه التفاصيل لأنوّه إلى المشاق التي أتكبدها في الملاحقة والمتابعة والكتابة، وأرجو من الإدارة العامة أن تعيد النظر بالتعويضات المادية التي تقدمها مقابل كل تقرير، لنتمكن من الحياة ودفع المخالفات، ومتابعة العمل بنشاط أكبر.

نعود للموضوع، ويبدو أن بعض الراكبين الحذرين أخذتهم الرأفة بي، فرشوا الماء على وجهي وثيابي، ولا أدري من أين أحضروا الماء، لذلك صحوت وقد تطين الغبار عليّ، فنهضت وانتبهت، ويا

لهول ما رأيت، فلقد تقدم (و ـ ق) موضوع المتابعة من آخر الباص إليّ وصاح في الناس: ماذا أصابكم؟ هل جننتم؟ هذا إجرام، هذا حرام، تفضل يا أخ، وأخرج من جيبه عشر ليرات ورقية جديدة وقدمها للمفتش وقال له: اكتب المخالفة، خلال ذلك، جاء السائق بعد أن انتهى من التبول، فوجد حالة من الحب والوئام تسود الباص، فقرّر أن يذهب إلى باب الفرج عن طريق باب النصر ليوصل كل جماعة إلى أهدافها، وكنت أنا أول النازلين حتى أتمكن من الهرب من أنظار الركاب وعواطفهم.

انتهى... بقلم (س ـ ن)

في أسفل التقرير ورد ما يلي: بعد المطالعة، التقرير رديء، وفيه خلط وعواطف زائدة.. التوقيع (الدكتور)

* ها هو ذا السيوفي وبعد قراءاته للحلقة الثانية من التقرير يحس بالحيف والظلم الذي يصيب هؤلاء الصفوة من البشر (كتّاب التقارير). إنهم كتّاب من طراز ممتاز، غير أنهم ويا للهول، يدفعون بأقلامهم وكلامهم إلى قراء رديئين، منضبطون في كل شيء عدا مثاناتهم، وروائحهم الواخزة.

عبثت كفه في الأوراق أمامه، رفعت قسماً، ولامست حواف قسم آخر، ثم انتزعت تقريراً، كان التقرير قصيراً هذه المرة.

من (ع ـ ج) عن أوضاع حارة (م)

إنني غير متأكد من صحة الكلام، الذي أخبرني به أحد أبناء الحارة، وهو صديق لي في الجامعة، قال إن الأوامر قد صدرت بإطلاق النار على الأهداف الصغيرة المتحركة، وقد سألته من الذي

أصدر الأوامر: قال لا أعرف.

* ولماذا أصدر مثل هذا الأمر؟ قال: حتى تتدرب جماعته على إطلاق النار وإصابة الأهداف، وماذا يعني بالأهداف الصغيرة الشاردة؟ قال: لا أدري، ربما هي القطط والكلاب.

سأحاول متابعة الموضوع لمعرفة المزيد من التفاصيل، لكن حارة بدون قطط وكلاب، أية حارة يمكن أن تكون؟

التعليق: لم تصل إلينا معلومات مماثلة من الحارة (م) رغم وجود عدد من المتعاونين معنا من أهل الحارة.

يبدو في التقرير التسرّع والقفز على الظواهر الكبرى.

بعد المراجعة والتصديق.. (الدكتور)

استعاد السيوفي الجملة الأخيرة في التقرير، مع حرف الاستدراك المؤثر، لكن استوقفته عبارة... حارة بدون قطط وكلاب، أية حارة يمكن أن تكون؟

القطط والكلاب ضرورية لكل الحارات، بدأ الكلام يخرج من السيوفي ويخرج عليه، وبدأ القسم البارز من حنجرته يعلو ويهبط، حتى الفئران الصغيرة والجرذان الكبيرة، والعناكب والصراصير، كلها ضرورية للحارة وللحارات الأخرى، رفاق درب، وعلينا أن لا نخذلهم ونتركهم للرصاص والبرد، لقد ذهبنا بعيداً، طفولتنا كانت مع هذه الضرورات، ثم كبرنا وابتعدنا وكدنا أن ننسى، تمنى أن تكون معه في الغرفة قطة، تلامس بجسدها حواف بنطاله، كأنما لتقدم له تقريراً عن أحوال القطط وأحزانها. ثم إنه وقد تركته

عفراء الحبال إلى أصابع غير أصابعه وإلى وحدة أقسى منه، كيف له أن يتجاهل القطط والكلاب، عند مطالع الحارات، وحواف الجدران والمداخن وسطوح الزبالة وآونة الحب والليل حين تغرغر الأصوات بالمواء الطويل والعواء الذي يمنع الوحشة والبرد عن الناس، عواء يعطي للحارات أسماءها وأفعالها ورسم دروبها وإصغاءاتها، الكلاب والقطط موجودة من أجل الحارات، والحارات موجودة من أجلها، ومن أجل ناسها من شغيلة الحبال والمكانس وكتّاب التقارير، ورجال الحظائر، خراف الله مطلقي رصاص الدينونة والصراط، لذلك لا يمكن أن ترى في الصحاري والغابات كلاباً ولا قططاً ولا حارات.

عندما خرج السيوفي من المبنى، كان يشهق من شدة الانفعال، قرب البوابات وعند حافة الأفق لمح صدر عفراء الحبال في البروز العظيم، يناظر قلعة حلب ويطاولها، وقد تشرب احمرار الغروب ولمعانه وليس من يد مهما كانت ومهما كان صاحبها، قادرة على أن تلامس حلمته. عندما صار في الطريق، انتبه إلى خطوط الأشجار، وعبرت قربه دراجة نارية، وانتبه إلى قطة بعيدة، انعطفت إلى شارع جانبي، ثم تابع الطريق. كانت الأشجار مثل كلاب وقطط واقفة، ومن السهل كثيراً أن يطلق أحد عليها النار، وصدر عفراء الذي ما زال يتبدى عند أطراف القلعة، يغري بالتطاول والضغط على الزناد، والمعلومات التي وردت في التقرير غير موثوقة، وقد علق عليه الدكتور مؤكداً ذلك، فلماذا تنتابه مخاوف مبالغ فيها نحو الحارة وكلابها وقططها؟

* في ليل الحارة الطويل، صدحت أصوات المكبرات وتعالت أصوات المطربين وهم يترنمون بالقدود الحلبية والموشحات والمواويل

احتفالاً بأعراس ثلاثة من أولاد الحارة، وفي مواقع مختلفة منها، في محطات التوقف بين أغنية وأغنية كانت تتصادح النسوة بالهناهين والزغاريد المضمخة بالجوع والعطش والحنين. وكان الشبان المتحمسون في أعراس الرجال ينصتون عميقاً إلى الأصوات، وعندما ينفد صبرهم، يخرجون مسدساتهم من أعبابهم، ويقاطعون الزغاريد بأصوات الطلقات معبّرين عن الشوق الممض الذي لا يمكن أن يكتمه أحد، لذلك يتفجر بأشكال من الحفاوة والجوع الدفين.

في تلك الآونة خرجت جماعة من بيت (قيس الأشوص) وانتشرت في النقاط الغامضة من ليل الحارة، وبدأت تدريباتها على الأهداف الصغيرة المتحركة، وظلّت تتدرب حتى انتهت الأعراس، وتوقفت حماسة المتحمسين، وعاد كل واحد إلى وحدته، وتوقفت الحارة عن الكلاب والقطط، ونام الجميع كما لم يناموا من قبل، دون صوت أو نأمة أو حنين.

في صبيحة اليوم التالي خرج الناس الكبار والصغار مع جهجهة الضوء إلى الأفران لشراء الخبز الساخن، ودون أن يتبينوا تفاصيل الطريق بسبب احتراق أعينهم بالنعاس، كانت ترتطم أقدامهم بأجساد صغيرة طرية دامية، فلا ينتبهون ويتابعون الطريق كأنهم في المنام. وفي طريق عودتهم من الأفران بعد أن حملوا الخبز الساخن واستنشقوا جلال رائحته، داخلهم الصحو بعد أن كنس اللهب المقدس للخبز الطري بقايا عيونهم، فانتبهوا إلى الطريق الذي زايله غبش الصباح وعالجت غموضه أشعة الشمس، فظهرت الأجساد الصغيرة على حقيقتها، ودمها وعتابها، فانتبه العائدون.

كان أمراً مألوفاً أن يرى الواحد في الغابر من الأيام جثة قطة أو

كلب وقد غادرتها زفرة الروح إلى جهة الفضاء لترد للنجوم البعيدة ما أعطتنا إياه في سالف الأيام، غير أن الأرض والمفارق، وعتبات الأبواب، قد سقطت أمامها جثث القطط والكلاب وحول كل جثة بركة من الدم، فبدت الحارة وأرضها كأنها ساحة لحرب عالمية وقعت بين القطط والكلاب وقد انتهت لتوها، ولم يبق في الساحة غير الجثث، وعيون الضحايا وقد انفتحت على آخرها لحظة انفلات الروح من أفراد الفريقين، لذلك كان الواحد من حملة الخبز، وبعد أن ترتطم قدمه بجثة أو جثتين يعاين الطريق، ويقع لتفقد الضحايا، فربما وجد بينها قطة تخصه أو كلباً يعرفه.

عندما انتشر الخبر بين الأولاد، تساءلوا جميعاً: أن تموت القطط والكلاب هذا ممكن، لكن أن يخرج الدم فذلك غريب. لذلك انتبهوا إلى بعضهم وانتبهوا إلى حيرتهم، ثم جرّوا ما استطاعوا جرّه إلى البيوت وقاموا بتغسيله وتكفينه رغم غضب الأمهات واستغراب الآباء. وبعد أن تم لهم ما زاد في حزنهم شحطوا كلابهم وقططهم على الطريق الترابي المتفرع من أعلى الحارة إلى المقبرة دون أن يدروا أن آباء كثيرين وإخوة كباراً ستدهمهم الطلقات دون أعراس ولا هناهين ولا ليل طويل.

وفي حفرة عميقة معدة لقبر، صنعوا مقبرة جماعية للضحايا وأهالوا عليهم التراب، ثم وقفوا أمام القبر والحيرة تملأ طفولتهم. أحد الأطفال عوى في محاولة لتذكر كلبه، فأجاب الأطفال بعواء جماعي صاخب، وقد ارتسمت على ملامحهم فرحة مباغتة أنستهم وحشة الموت، فتراكضوا إلى الحارة والعواء والمواء يصدر عنهم ويعود إليهم.

في المساء وبسبب مباشر من بكاء الأولاد وجعيرهم، ذهب الآباء

إلى المعمم الفضلاوي وشوصه الباهر وسألوه.

ـ ويا شيخنا، الأولاد لا يسكتون، ألفوا كلابهم وقططهم، وألفتهم وصار صعباً عليهم الفراق.

ـ كنت طفلاً وأعرف أشكال القسوة وأسماءها.

ـ فماذا نفعل.

ـ لا يرد الحياة إلا خالقها.

* كان عامر الفضلاوي، كبير الفضاولة، قاعداً في القرنة، في حالة تكوم ورعب، كأنما تحت جلده قط مذعور مهدد بعصاً أو فوهة مسدّس.

وعندما انتهى أهل الحارة من أسئلتهم، بدأ عامر الفضلاوي والد قيس بالعواء والمواء الحزين ثم صاح: عندي الحل. فالتفتت إليه الأنظار، فقال: من أجل الحارة والأطفال، استوردوا قططاً وكلاباً من اليابان أو من جهنم... ثم تداخل في نوبة صَرَع وبدأ يعوي عواء لا هو كالعواء ولا البكاء، وظل على هذه الحالة حتى تدفقت الدموع من عيون الحشد.

لم يكن ممكناً للسيوفي بعد خروجه من باب بيته ألا أن يرى ما رآه أهل الحارة جميعاً، ولكنه وبصورة مختلفة بدأ يسترجع ذكريات التقارير ويقارن بين الكلام والدماء، حتى وصل إلى الاقتناع بضرورة أن يكتب تقريراً، يختلف عن كل القصص التي كتبها، دون أن يمنح للمخيلة أية فرصة لتفعل فعلها، لذلك نزل إلى الحارة ليتقرى التفاصيل والأخبار وردود الأفعال، وعندما عاد، بدأ الكتابة وحكى عن الأولاد، وأسئلة الرجال والمريدين، وردود

(قيس المعمم الفضلاوي) ومداخلة الأب الكوني (عامر الفضلاوي) الذي تستقبل شعرات رأسه المبوزة، أمواجاً وأصواتاً من العوالم الأخرى، والذي يستطيع أن يستعيد في كل آونة ضراوة الانفجار الذري، كأنه رجل مكون من رفات الناس الذين دهمهم دوي الانفجار الذري البعيد.

* عندما انتهى التقرير، تأمله السيوفي وقرأه، وأعاد قراءته، وانتبه إلى التاءات المختلفة فيه، ثم صاح: يا الله، يجب أن يضاف إلى الأجناس الأدبية جنس أدبي آخر أسمه (التقارير) جنس يمحق كل الأجناس ويذويها ويتربع على مصائرها.

* في الطريق إلى الجامعة، شاهد السيوفي فتاته، عفراء الحبال فاقترب منها، وكانت تحمل وردتين، وكان الربيع يحمل الأرض والناس.

ـ مرحباً.

ـ أهلاً.

ـ وردتان؟... لمن؟

ـ احزر.

ـ للمغربي.

ـ يمكن.

ـ أعطيني واحدة.

ـ سأعطيك إذا غنيت لي.

ـ لا أعرف الغناء.

ـ حدثني إذن..

ـ تحبين الحديث معي؟

ـ كثيراً.

ـ فلماذا قُتِلت القطط والكلاب إذاً؟

ـ لقد تألمت كثيراً عندما سمعت ورأيت.

ـ هل يمكن أن تعيش حارة دون قطط وكلاب؟ وهل يمكن أن تكتفي بالمكانس والحبال؟

ـ لا أعرف.

ـ أعطني وردة، وامتدت يد السيوفي بعصبية وانتشل وردة من يد عفراء، وبقضمة واحدة صارت الوردة في فمه، وعودها في يده.

ـ أمر غريب، تأكل وردة.

ـ عندما شاهدت الكلاب والقطط على دروب الحارة، تذكرتك وتذكرت نهدك وضفيرتك وصوتك، وتذكرت خوفك، هل تعتقدين أن الحرب ستقع؟ هل تعرفين؟ أنت مثل الوردة، لك رائحة طيبة وطعم مرّ.

ـ هكذا أنا؟

ـ لو أنني آكل الوردة الثانية.

ـ الثانية؟ ليست لك.

ـ لا أقصد الوردة التي في يدك، بل التي في صدرك.

ـ نحن نحمل الورد وأنتم تأكلونه.

ـ صاح السيوفي بصوت أرعب المكان: يا لله أريد أن أصير كلباً لأعوي من أجل الحارة التي تضيع.

ـ أنت حزين، تعال لنقعد على الأرض.

ـ ليس لدي وقت.

* خلال قراءة (الدكتور) للتقرير الذي أحضره السيوفي للمرة الأولى، انتبه إلى الكلام فيه، وأحس بالغبطة.

* وهو يتابع التفاصيل، ليس بسبب أهميتها، بل لأن السيوفي فعلها وكتب بنفسه، وتلك مسألة هامة، غير أن الموضوع برمته غير هام، (يعني قال الدكتور في نفسه) أن تموت عشرات القطط والكلاب في حارة من الحارات، هذا أمر لا يهم الأمن في قليل أو كثير.

وهو يتابع الدكتور، قال السيوفي في نفسه: ها أنت يا بطل، أصبحت من كُتّاب التقارير، وها هو تقريرك موضع متابعة وانتباه.

وحق الشياطين والمومسات، والدول العظيمة، لو أنني شاهدت جماعة تهم بإلقاء قنبلة ذرية لما أخبرت أحداً، ولما كتبت تقريراً في أحد، ولكنها القطط والكلاب، والطفولة البعيدة، والعواء الذي يقلق الروح والقلب، والمواء الذي يصنع الألفة والمودّات، ثم إن ما حصل ورد تماماً في التقرير المغبش بنداوة البول اللعين.

ـ هل تم فعلاً ما ذكرت؟ سأل الدكتور.

ـ بالتمام والكمال.

ـ أمر غريب.

ـ ماذا يمكننا أن نفعل؟

ـ تجاهُلُ الأمر أجدى وأنفع، أما إذا خشيت على الحارة من غياب القطط والكلاب فإن الطبيعة منصفة، وتحقق التوازن، لذلك لن يمر يوم أو يومان حتى تملأ القطط والكلاب الزائدة على حاجة الحارات المجاورة، الفراغ الذي تعيشه حارتكم.

* بعد أيام، دوى صوت الرصاص، وسقط الحَلاّب (عادل الرمّو) من على صهوة حماره الأشهب مع غبش الصباح، فذعر الحمار وبدأ يرفس في الهواء رفسات رشيقة كأنما يؤدي رقصة السيف في باليه سبارتاكوس، وبعد أن أخذ حاجته من رياضته المفاجئة، وانتهى إلى جسد صاحبه على الأرض، وقد أحاطه الحليب المسفوح من كل حدب وصوب، بدأ ينهق نهيقاً عميقاً، والواحد من فصيلة الحمير لا يفعلها ولا يطلق صوته ودموعه على هذا النحو ألا مرة واحدة في العمر، ربما فرحاً بالحرية المفاجئة أو حزناً على الحليب والدم المسفوحين.

ـ قال قيس المعمم الفضلاوي لمريديه إن بائع الحليب، بالإضافة إلى غشه الفاضح ومحاولات التنبيه الكثيرة التي أرسلت إليه، بضرورة التوقف عن هدر الماء، رغم ذلك تابع الجارح وأحكامه الجائرة، متهماً إيانا بأننا نريد تحويل الحارة إلى بقرة، لذلك خسئ والله، ولن يكون غش للحليب ولا هدر للماء بعد الآن.

بِرمَّتها خرجت الحارة لتشييع بائع الحليب (عادل الرمو) الذي سقط غيلة وغدراً، دون أعداء وخصوم، ومن جهتها الأبقار التي اعتادت كفيه وأصابعه، صارت تعوي من الألم، بسبب امتلاء أثدائها وتحجر حلماتها، وتشقق الحواف المحيطة بها، والحارة تتابع

التشييع والدفن وتتابع الغضب، والحذر والتساؤل والخوف من الطلقات التي بدأت تصيب الحارة في الصميم.

ـ الحق أن عبد العزيز السيوفي لم يعد يحتمل، فالحلاب عادل الرمو في عمره، وهو يعرف عنه وعن طفولته وبستان أعمامه (المتاخم لجسر الحج) الشيء الكثير.

لقد تجاوزت الأمور حدودها، صحيح أن أهل الحارة لم يشحطوا عادل الرمو شحطاً عندما أوصلوه إلى المقبرة لدفنه كما فعل الأطفال بقططهم وكلابهم، بل حملوه حملاً كما تفعل الحارات بأولادها البررة، ورجالتها الكبار، ولكنهم وفي وطأة حملهم لجسده كانوا يتساءلون عن القاتل الحقيقي، ولماذا يختار الليل وغبش الصباح لينفذ أفعاله وهم ـ يعني أهل الحارة ـ عندما يحملون جثة واحد منهم بعد أن أراده الرصاص ألا يكونوا ودون دراية أو قصد قد اختاروا معاداة القاتل والتحالف مع القتيل، وعندما يكونون كذلك متى سيكون دور الواحد منهم؟ ومتى سيفاجئهم الرصاص والمصير؟

* صحيح أنهم في غبش الصبح وفي غمرة التقلّب بين الصحو واليقظة سمعوا أصوات الطلقات، لكنهم لم يخمنوا أبداً أن عادل الرمو الذي يتربع على عرش أكتافهم وهم في الطريق إلى المقبرة، هو الطرف الملوم، فما الذي فعله الحلاب؟ وهل كان يستحق؟ وما هي الذنوب التي نستحق عليها أن يدهمنا الرصاص لنعتلي أكتاف غيرنا؟ وما هو ذنب الأكتاف لتحمل ما تحمل؟ فيا له من رجل، وهم يستذكرون صوته مع غبش الصباح وصوت طرقاته كل يوم على الأبواب، صحيح أنه كان يكثر الحديث مع نساء الحارة وَهُنَّ خلف الأبواب، ولكن نداءه وهو يذكر الحارة بالحليب كان يزيد

صباح الحارة بياضاً، ثم يتدفق الحليب ليملأ الآنية التي تحملها أذرع النسوة الممدودات، من فتحات الأبواب. كثيرات كن يبالغن في مد أذرعهن فتظهر مقدمة أثدائهن كأنما يوقظها صوت الحليب والحنين إليه، كأنما أصابعه تجتذب الحلمات إليها، فتنفر إليه وينفر إليها، ولا يصارح أَحد الآخر بنوازع صاحبه.

* كثير من الجارات سمعن همسات صوته البيضاء وهي تلامس أسماع جاراتهن، فأكلهن الغيظ وركضن إلى أزواجهن وتحدثن عن الحليب الفاسد والمياه الصفراء الطافية بعد الغليان المقيم في الطناجر والصدور.

وها هم وهم يحملونه يتذكرون يوم طرده من الحارة ومنعه من بيع الحليب بعد أن تعالت وشايات النسوة عليه. ولكنهن وبعد أن طال غيابه أحسن بالإثم، فهرعت بعض الجارات الغاضبات إلى أزواجهن وطلبن الصفح عن أكاذيبهن وحاولن تبرئة الرجل، فعاد صوته إلى الحارة وعاد إليها الحليب.

وها هم يحملونه بخطوات موحدة، وقلوب موزعة، مثل فصيل من الجند كأنما لم تكن لهم في أي يوم حارة، ولم يكن لهم في أي يوم أهل، وهم يتساءلون عن الرصاص القادم، ومَن صاحب الدور وكلهم يخرجون من صدور زوجاتهم وعيون أطفالهم العمشاء مع غبش الصباح إلى غبش الحاجات والعمل، والذي عندهم من الدم، أقل من الحليب الذي سفحته المفاجأة على حجارة الطريق وأمام عيني الحمار المستغرب ورفسات قدميه الوفيتين. فمن الذي يضمن للجماعة الموحدة الأهداف والموحدة الخطوات وقد اقتسمت على أكتافها تجاوزات الجسد، من الذي يضمن لهم أن لا يصيبهم ما أصاب الجثة التي يحملون؟ وها هم وهم يضعون النعش على

أطراف أكتافهم ويلقون الخشب المحزز بحواف آذانهم، ها هم يسمعون معاً أصوات الطلقات التي انتابت الجسد كأنما تخرج إليهم، إليهم، إليهم.

لذلك ومثل رصاص طائش فرّوا جميعاً إلى جهات الحارة والجدران وتركوا النعش الخشبي القديم المحزز يتهاوى على الأرض بعد أن أنهكته حمولة الجسد. وها هو صوت الارتطام يطاردهم ويدوّي في آذانهم رغم تواريهم عن الأنظار، كأنما لم يعد الواحد منهم يرى نفسه.

ـ عندما تقدم السيوفي بتقريره الثاني للدكتور... قرأه بتمعن وقال: ليست لدينا دلائل وإثباتات تؤكد أن وراء القتل أحداً.

ـ ومتى كنتم تبحثون عن الإثبات؟ صاح السيوفي في وجه الدكتور، ثم انتبه إلى صراخه وإلى دهشة الدكتور وتمتم، كان المقتول صديقي، وليتك شاهدت ذكر الناس وخوفهم عندما ألقوا بالنعش على الأرض خوفاً من رصاص مفاجئ يمكن أن يدهمهم، وبقي الجسد على حجارة الحارة دون أخ أو قريب.

ـ اسمع، من تقريرك الأول أحسست بأن الأوضاع في الحارة لم تعد تعجبك، وأنك يمكن أن تكون مستهدفاً، لذلك حصلت على إجازة لحمل مسدس.

ـ مسدس؟ ولكنني لا أعرف استخدامه.

ـ ليست مشكلة، سندربك عليه، خُذْ. بهذه البطاقة تستطيع أن تذهب إلى مستودع السلاح لتسلم المسدس.

يعني، يعني، رغم أن اللهاث والانفعال الشديد كان يقاطع كلامه، كان السيوفي يغرق نفسه وجسده ومياهه بالأسئلة وهو في طريقه

إلى مستودع السلاح لتسلم المسدس، يعني أنني أصبحت واحداً منهم. صحيح أنني كتبت تقريرين بدافع من الحماسة والحب للحارة، لا رغبة في كسب الثقة وتثبيت المواقع، حتى المسدس لم أكن أفكر أبداً بالحصول عليه، لكن... لكن...

لم تنشغل الحارة طوال تاريخها بميت مثلما انشغلت بموت (عادل الرمو) أو بقتله أو باستشهاده، لقد أقلق بال الجميع. إنهم لم يستطيعوا أن يحددوا كثافة هذا الموت ولا طبيعته، لو أنهم عرفوا لما هربوا لتهافت أرواحهم وخوفهم، وإذا كان عادل الرمو يشتري الأعلاف من مستودعات الحكومة فهل يعني..

ثم إن الرجل وفي حياته، كثيراً ما كان يصرّح بأنه يحب أبقاره أكثر من الحكومة، وكان يتابع بعد كل تصريح موضحاً الأسباب الموجبة لهذا الحب، غير أن أهل الحارة، لم يستطيعوا النوم هذه الليلة رغم نداوة الهواء ولمعان النجوم، فتقلبوا على الوسائد والأرائك المحشوة بالقطن وزفرات الزوجات، دون أن يتسلل النوم إلى أعينهم، فبالرغم من غرابة يومهم وتعبه المقيم، لم يستطيعوا النوم لسبب قاهر، هو أن الشجاعة خانتهم فلم يستطيعوا أن يدفنوا قتيلهم المحاط بغبش الحليب ونداوة الصباح، ورغم دمه الصريح لم يستطيعوا أن يصلوا إلى قرار، هل المقتول من أهل الجنة أم من أهل النار، وعندما أعياهم البحث، وغدرت بهم الأحكام، نهضوا بأجسادهم إلى الألبسة فارتدوها مستعجلين ثم لفوا رؤوسهم بالمناديل ومضوا إلى الجثة وعيونهم تضيء بالحيرة والغضب، وكان غبش الصباح على الجسد، المكفن بالأبيض وحوله تناثرت أخشاب النعش، متعامدة على بعضها ومتباعدة عن جثته مثل صليب هارب من ضحيته، وكان كل شيء ساكناً في الجسد، غير أن الثقوب ما

زالت تنز بالدم كأنما اخترقها الرصاص مرة ثانية، لذلك اتسعت دوائر الدّم، على الكفن الأبيض، وتدرج اللون الأحمر من الغامض الغامض، إلى الوردي الذابل الذابل. عندما تقاطر رجال الحارة على الجسد مرّة ثانية كانت الأسنان مصطكة على غضبها، وكانت الآذان يقظة، كأنما تستعيد أصوات الطلقات لتعددها من جديد، فعندما انحنوا وكادت شفاههم أن تلامس كتان الكفن، مدوا أذرعهم بقسوة، ونهضوا بالجسد ومضوا صامتين إلى المقبرة، الحارة كلها كانت هناك.

الحارة كلها شاركت بالدفن.

الحارة كلها شاركت بالقتل.

الحارة كلها شاركت بالبكاء.

حتى المعمم الفضلاوي قال وهو يمسح دموعه: بكم جبته؟ لم أكن أتوقع أن الحارة تحب أولادها كما فعلت مع الحلاب، ثم خاطب الميليشيات: اذهبوا إلى ضروع أبقاره المتحجرة وأحضروا لي الحليب، فأهل الحارة أصبحوا مساكين ويحتاجون للمساعدة.

* في طريقه لمستودع الأسلحة، عبر السيوفي الطابق الأول بطوله، والطابق الأرضي، فانتبه للرطوبة ورائحة الزنازين وهو يعبر الأبواب والنوافذ وقضبانها المتقاطعة في أعلاها. كان صوت السعال العميق يدوي بشكل متقطع، يتخلله أحياناً أصوات عواء لبشر وحيدين يعانون الغربة والبرد، ويحاولون عبر أصواتهم أن يخترعوا أشكالاً من اللغة تدل عليهم وعلى بقائهم، وعلى تقاطع أفكارهم وأحوالهم مع القضبان.

في آخر الممر كانت غرفة المستودع، وعندما اقترب منها أحس بالتردد والارتجاف، غير أنه تغلب على أصوات السعال والعواء، وعفونة الرطوبة الصاخبة، وتقدم من الرجل البدين القاعد خلف الطاولة وقدّم له البطاقة، فتأملها الرجل، ونهض متثاقلاً وفتح درجاً وتناول شيئاً ملفحاً بورق سميك فَرَدَهُ على الطاولة، فظهر المسدس القاتم وعليه طبقة من الشحم الكثيف وقد حجبت تعرجات سطحه وتجاويفه.

ـ هذا هو المسدس، قال الرجل، وأعاد تغليفه بالورق المشحم السميك، ثم فتح خزانة وأخرج علبة كرتونية بحجم علبة تبغ وقال: هذه طلقات المسدس، ثم فتح خزانة ثالثة وأخرج منها بيتاً جلدياً، وقطعتين معدنيتين وسيخاً قصيراً، وتقدم إلى الطاولة وفرد القطع عليها، ووضع كل قطعة داخل مغلف الورق وهو يحملها ويطلق على كل قطعة اسمها أمام السيوفي، ثم وضع المسدس في المغلف ورد غطاءه الورقي، ووضع المغلف على طرف الطاولة، وأخرج قائمة مبوبة كتب عليها اسم المستلم، بعد أن تأمل البطاقة، ثم دفع الورقة إلى مقدمة الطاولة التي تفصل حافتها المستودع عن الممر، وقال للسيوفي:

ـ وقّع هنا، وأشار إلى ذيل الورقة حيث توجد كلمة اسم المستلم وتوقيعه.

ـ وبطريقة آلية وقّع السيوفي عند العلامة التي وضعها الرجل البدين، دون أن يقرأ التفاصيل.

ـ اقرأ الأقلام المكتوبة لتتأكد من المادة المسلمة، المسدس من نوع (بريتا) صغير مع مخزنين وثلاث دزينات من الطلقات، وسيخ

للتنظيف وبيت جلدي للوقاية، بعد أن تنتهي من القراءة افتح المغلف وتأكد.

ـ تأكدت، رد السيوفي على الرجل البدين.

ـ (الله يعيننا إذا خلص طحينا) قال الرجل السمين.

ـ نعم؟ سأل السيوفي دون أن يفهم، هل يحتاج الأمر إلى توقيع آخر؟

ـ لا.. لا.. خذ المغلف ومع السلامة.

ما هي نهاية الطحين بتسليم المسدسات؟ سأل السيوفي نفسه وهو يعود ثانية إلى الممر الطويل الرطب والأصوات الجافة المتقاطعة، ومن الذي انتهى طحينه؟ وهل يمكن أن تعني عبارة الرجل السمين شيئاً له علاقة بالموت؟ وصل السيوفي إلى الأدراج وصعدها ودار معها، تجاوز الطابق الأرضي، والطابق الأول، ووصل إلى الثاني، وعبرت الممر إلى غرفة الدكتور، وعندما وصل قرع الباب ودخل.

ـ استلمت المسدس؟

ـ نعم.

ـ انتبه لنفسك، وحاول أن تضع المسدس في مكان بارز ليشاهدك الناس وأنت تحمله.

ـ لا أستطيع.

ـ يجب على أهل الحارة أن يروا المسدس معك حتى يحسب الآخرون لك حساباً ويفكروا ألف مرة قبل أن يطلقوا النار عليك، ومن طرفك أطمئن إلى النتائج ولا تظهر الخوف، فمتى أظهرت

ذلك، تحولت إلى هدف ممكن، إنني أحذرك، الوضع أخطر مما تحاول أن تصوره فانتبه، والتراجع لم يكن ممكناً.

ـ أنني أتراجع، صاح السيوفي بصوت لم يألفه ثم ألقى بالمغلف الثقيل، فسقط على الأرض وانزلق بقوة تحت طاولة الدكتور واستدار بعدها ليمضي.

ـ توقف، صاح الدكتور صوتاً، أفزع السيوفي، وقبل أن تصل يده إلى الباب، كانت يد الدكتور تمسك كتفه وتبرمه إليها، بعدها أحس السيوفي بأن عهداً طويلاً من عمره قد ولى، وجاء الزمان الذي لم يعد فيه للمزاج والنزق الشخصي سلطة، لذلك ودون كلام انحنى إلى الأرض، انحنى بقوة حتى استطاع برأسه أن يلمح الكتلة الورقية الثقيلة المجعلكة، فامتد بيده إليها وأمسك بها وحملها وتراجع إلى الباب دون كلام.

في الطريق إلى الحارة، وعندما عبر مقدمتها ومر أمام بيت عفراء، استدار السيوفي فجأة واقترب من بابها، كما لم يفعل ذلك في حياته، وكما لا يستطيع أي شاب في الحارة أن يفعل ويطرق باب فتاة، طرق الباب وزغب من النداوة يكلل جبهته، ويتمازج قرب انحناءات حنجرته، عندما فتح الباب وأطلت عفراء إليه بوجهها ودهشتها، سألها:

ـ أنت موجودة؟

ـ يا لخفة دمك يا أخي، إذا أرت أن تدخل فاستعجل حتى لا يراك أحد، وإلا فاذهب، فأنا غير موجودة.

ـ أنت موجودة؟ هل تعتقدين أن الحرب ستقع.

ـ أية حرب ادخل.. ادخل، وامتدت بيدها إليه.

ـ لا أنا مستعجل، مستعجل، ثم مضى.

شيء قديم في صدرها قفز إليه كأنما ليمسكه، كأنما ليسأله. كان وضعه مريباً وكانت لا تستطيع أن تركض إليه لتجره، ولا تستطيع أن تصرخ فيه لتستعيده، لذلك تأملت ظهره وهو يلهث بعيداً عنها حتى انعطف إلى مفترق بيته عند الطلعة الترابية، بعدها دخلت وأغلقت الباب.

كان السيوفي يرغب أن يسألها، هل قابلت المغربي، وأعطيته الوردة الثانية، وعندما كشفتِ له عن صدرك وامتدت أصابعه إلى نهدك الثاني، وحلمته الصلبة، ألم تتذكري حلاب الحارة عادل الرمو الذي سقط عند غبش الصباح وتساقط حوله حليب الحارة وصاحبها،

ـ كأنما أحست عفراء الحبال بأسئلته، وأحست بحركة حنجرته التي رطب حوافها الانفعال، واحتباس الكلام، وكانت تود كثيراً أن يصارحها بالكلام الجارح ويسألها عن نهدها الثاني، وصوتها الجميل، وأصابع المغربي، وكانت ستقول له لو أنه سألها: إن نهدها الثاني غارق في وحدته دون أصابع، وإنها خائفة من مصارحة المغربي برغبتها، ولكنها لم تلمحه لتخبره، ولم تلمحه لتعطيه الوردة الثانية، ولكنها قررت أن تصارحه في الغد وتطلب منه أن ينفرد معها في أي مكان، تحت شجرة وحيدة ومعزولة عن الناس والعمران. وربما طلبت منه أن يفعل ذلك في باحة الكلية وأمام الناس، وربما إذا سكنته المخاوف، ستأخذه إلى مكان غامض على السطح أو عند منعطفات الأدراج. كانت تحس كما لم تحس في

حياتها بأنها تحتاج إلى أصابعه لينهض نهدها الثاني ويشرئب كما فعلت أصابع السيوفي بالنهد الأول من جهة أكياس الطحين، لذلك خطر ببالها خاطر انتزعها من دماء مخيلتها ودفع بها إلى الباب، لتواريه وتطلَّ من خلاله على حركة الحارة والناس، فربما لمحت المغربي، ربما لمحته، فهي محتاجة إليه، محتاجة كثيراً لتساررہ، وتطالب بحق نهدها منه.

هل يمكن الرغبات العاتية، والنهود المشرئبة، والنهود المتهدلة والانفعالات والصدور الصاخبة أن تتدخل في حركة الشارع والناس، وأن تمارس سلطتها في ترتيب الحياة واستحضار من ترغب استحضاره في الوقت والساعة التي تحتاج إلى أصابعهم فيها؟ كان صدرها، وقد أغرى به اللهاث، ووجهها وقد أضاءه الانفعال، جديرين بأن يكون لهما مثل هذه السلطة، وأن يحققا ما أرادا من رغبات ويتحكما بالقوانين وحركة الناس.

. أما محمد المغربي، فكان يرغب، وكان يريد، ولكنه وقد انشغل بالهندسة، فقد أطلق ليده العنان لتنشغل بترتيب العالم، البيت الكبير الذي نقطنه، وتناسى بين قلبه الصغير منصرفاً عن روحه ورغباته، فهو وقد افتدى الحارة في أيام مضت، ووضع نفسه رهينة ليخلصها من الحرب مع الحارات المجاورة، قرر أن ينطلق لما هو أوسع وأهم وأجدى.

صحيح أنه ضحى مقابل ذلك بسنوات الجامعة فرسب في بعض الصفوف، ولكنه وقد نذر لنفسه ما نذر ودفع بها إلى حيث أراد ورغب، أحس بأنه الرابح رغم عزلة أصابعه وجفاوة روحه.

في كل الأمكنة بحثت عنه ولم تجده، على المدرجات وفي

المقاصف والممرات، وها هي بعد أن التقت السيوفي وأطعمته وردتها، وبعد أن قرع بابها ثانية ليسألها عن الحرب، صارت تحس بضرورة أن ترى المغربي لتبثه مشاغلها وتحدثه عن صدرها والمخاوف والحارة والحرب.

وها هي تلمحه، وتلمح ارتباكه، واقترابه منها دون أن يحس بها، لذلك صاحت به وبارتباكه، محمد، محمد فانتبه إليها، واقترب منها، كانت لا ترغب أن تتركه، لتسأله الدخول لأنها تخاف من تردده واعتذاره، لذلك أمسكته من يده وجرته إلى البيت، وأغلقت الباب خلفهما، وبلهاث شديد ولغة مرتبكة أمسكت كفه وحاولت أن تدسها في صدرها، لكنه انتزع أصابعه عندما لمح عيني أمها، عندما شعرت عفراء بانكسارات المغربي وتهدل أصابعه زررت بعصبية عروة صدرها ونظرت فيه وقالت بعتاب:

ــ من زمان أريدك أن تفعل ذلك، من أيام الكُتّاب عند حميدة الهلالي.

ــ وأنا من زمان أريد.

ــ فلماذا لم تفعل؟

ــ لا أعرف.

ــ هل تحضر غداً؟

ــ أحضر.

ــ وتضع يدك.

ــ أضعها.

ــ هل رأيت السيوفي؟

ـ لم أره.

ـ أحواله غريبة.

ـ أحوال الناس كلها غريبة.

ـ لو أنهم.. لو أنهم.. صاحت لاهثة.

ـ من مدة لم أره، هل تعتقدين أن الحرب ستقع؟

ـ قال مثلك تماماً.. لو أنك.. لو أنك تذهب لتراه.

ـ سأذهب، لكنني غير قادر على منع الحرب.

ـ أنت متخصص في إشعال الحروب.

ـ غداً سأطفئ كل شيء، وسيعم السلام.

ـ سنرى غداً.

* عندما ابتعد المغربي بجسده، مدت عفراء رأسها دون مخاوف وصاحت: سأنتظرك هنا.. في الغد.

في اليوم ذاته كان الربيع، وغداً سيكون، وفي الربيع تكبر الأشياء وتنضر الأعشاب وتبرق النهود وتتهدل المخاوف، كأنما هاتف يهتف بالأرض لتنهض وبعفراء لتعطي جسدها حقه من الربيع، حتى لا تقوم الفصول المتاخمة بالتهام ربيع الحارة والانقضاض عليه. الشتاء يلتهم نصفه، والصيف يفعل بالنصف الثاني، وتتوزع أشلاء الربيع بين فصلين عاتيين، تتوزع أشلاؤه وتبقى إشارته وخضرته المستغيثة، معلنة عن مروره من هذه الجهات. وللمخاوف في الحارة أسباب، فبعد أن سقط الحلاب على حجارة الطريق، ببياضه الغامض ودمه الصريخ، وحده محمد المغربي، انقض على (قيس المعمم

الفضلاوي) وأخذه من تلابيبه رغم إحاطة ميليشياته به وصاح: أنت تعرف يا فضلاوي من الذي قتل الحلاب، أنت تعرف، وقد ذهبت الكلمة إلى بيوت الحارة بيتاً بيتاً وإلى شعبها صدراً صدراً.

ـ تتهم رجلاً يعرف الله يا مغربي.

ـ الذي يقتل سواه لا يعرف أحداً، يا فضلاوي.

ـ العمل في السياسة أفسد روحك فصرت لا تميز بين الأبيض والأسود، أما الأتباع فقد تأججت صدورهم غضباً بعد أن سمعوا اسم سيدهم يتردد أمامهم دون ألقاب، وهم يغتفرون كل الأشياء والأخطاء عدا هذا الخطأ، لذلك ركضت أكفهم إلى أعبابهم لإشهار الأسلحة، وقد انتبه (قيس المعمم الفضلاوي) إليهم رغم فورة الغضب التي ترعشه، فصاح بهم: إياكم، هذا الرجل صديق، طفولة، وحارة، ومدرسة، وإذا كان يابس الرأس وعلى ضلال، فأنا أحس بأن أيام الهداية قادمة، فاتركونا وانصرفوا، فبيننا حديث طويل.

ـ لم تعد بيننا يا فضلاوي حارة، ولا طفولة، ولا مدرسة، بيننا الحلاب يا فضلاوي، ثم مضى كلٌّ في طريقه، عندها ارتد رجال الميليشيات إلى سيدهم معاتبين.

ـ لقد تجاوز حدوده يا سيدنا.

ـ لو أنك تركتنا لكنا فعلنا فيه العجائب.

ـ إياكم والزيادة في الغضب، إياكم والزيادة في الأسئلة، قولوا يرحمه الله، لقد دفَعنا إليه دَفْعاً، وتطاول في حضرتنا أكثر مما نحتمل ونطيق، لذلك حقت فيه الكلمة الفصل، مصائر الرجال

الحمقى معلقة بألسنتهم، فانتظروا إشارة مني... ويا وحيدة، قال المعمم الفضلاوي في نفسه وهو يمضي إلى زاويته، والزفرات تلهب صدره وعينيه، ويا وحيدة، لقد ذهبت سريعاً أيام الطفولة والشباب، وجاءت سريعاً أيام الغضب، فليتك قربي لتهتفي إليّ، ليته لم يقل الذي قال، ولم يصرح بما صرح، لعفونا عنه وأمهلناه، وأنت تعرفينني وتعرفينه، ليته فعل، ليته فعل.

بعد أن ترك المغربي صدر عفراء ودخل إلى أمه أحست بتقلبات روحه، فاقتربت منه وشعور بالضنى يغالب عينيها، تأخرت قالت الأم.

ـ ليس كثيراً.

ـ سأجهز لك الطعام، لنأكل معاً.

خلال جلوسهما حول طبق الطعام على أرض الغرفة، تقربت الأم بجسدها من ولدها حتى لامسته، ثم التفَت بذراعها حول ظهره وأمالت جسده إليها، فاستجاب كما لم يفعل في حياته، ونزل برأسه على صدرها، فلامست بأصابعها وجهه وأحزانه، وجفاف عينيه ثم نزلت بإصبعها إلى صدره كما لم تفعل.

ـ ليتك تظل حيّاً يا ولدي حتى آخر العمر.

ـ سأظل حياً يا أمي.

ـ أحس كأنك، وشحب صوتها، وغاص في نداوة عينيها ونزق حنجرتها.

ـ بماذا تحسين؟

ـ كأن أيامي لم تعد طويلة، والحارة لم تعد الحارة.

ـ الحارة هي الحارة، وما يحصل فيها قد يكون في مصلحتها، ربما جعلها أقوى.

ـ ليتهم لم يفعلوا مع الحلاب، ليتهم لم يفعلوا مع القطط والكلاب، هل تصدق حتى الفئران غادرت الأقبية والمؤن، خفت كثيراً بعد موت القطط والكلاب أن تتكاثر الفئران لتملأ الحارة، لكن الذي حصل عجيب وغريب، الفئران ما عادت تحتمل الحارة، لذلك صرت أخاف عليك.

في آخر الليل عندما تمددت أم محمد المغربي في الفراش ونامت، في آخر الليل وعندما امتدت يد المغربي لترفع اللحاف، تذكر كلمات عفراء، عن السيوفي وأحواله الغريبة، عندها توقف المغربي برهة، واستدار إلى الضوء وأشعله، والألبسة ارتداها وخرج قاصداً السيوفي لزيارته.

. عندما دخل السيوفي إلى البيت، كانت أمه قاعدة تحت شجرة التوت الأبيض وسط باحة الدار، وحين لمحته نهضت إليه مثل لبوة وأنشبت أصابعها في صدره، ما عدت أطيق هذا البيت، ما عدت أطيق هذه الحارة، لم أفن عمري في تربيتك حتى تموت أمامي، أهل الحارة كلهم يعرفون من الذي يطلق النار، وأنت تعرف، أنت تعمل مع الحكومة، أنا أفهم، وأعرف، ولا أريد بعد هذا العمر أن أضيعك.

ـ لا تخافي، لن أضيع.

ـ ماذا تحمل معك؟

ـ لا أحمل شيئاً، اتركيني بحالي.

* عندما طرق المغربي باب السيوفي، قفزت حميدة الهلالي إلى الباب ووضعت خدها عليه، وسألت: من؟

ـ أنا.

ـ من أنت؟

ـ أنا محمد المغربي.

ـ ماذا تريد؟

ـ كان السيوفي، في الغرفة، وقد أغلق الباب عليه من الداخل، وفتح المغلف وأخرج المحتويات، وبدأ بمسح المسدس، وبدأ بمحاولة فكه وتركيبه، وبينما كانت القطع متناثرة أمامه سمع الطرقات، فنهض إلى الباب، وعندما وصل كانت الأم تسأل: من أنت؟

ـ افتحي الباب.

ـ في آخر الليل؟

ـ صرت تخافين من الأولاد الذين تربوا على يديك، هذا محمد المغربي، ألم تعرفي صوته؟

ـ صرت أخاف من نفسي، وعادت إلى غرفتها مستنفرة.

كانت شجرة التوت الأبيض العالية ترقب الباحة والأبواب المفتوحة، رغم الليل الشاسع الذي ملأ الحارة، عندما قعد الصديقان إلى بعضهما، ولمح محمد المغربي قطع المسدس المتناثرة.

ـ تصور، استطعت فكه ولم أتمكن من إعادة تركيبه.

ــ من أين حصلت عليه؟

ــ بعد حادثة الحلاب، صار ضرورياً أن يكون لكل واحد سلاح.

ــ هل تعرف استعماله؟

ــ الدكتور وعد بتعليمي.

ــ الأمر في غاية السهولة، أنا سأعلمك. في معسكرات الفدائيين حيث أتدرب يعتبرون مثل هذه الأسلحة ألعاباً.

ــ برأيك هل ستقع الحرب؟ سأل المغربي متخابثاً.

ثم كان صمت، وتابعت الأعين الحوار، والأصابع فك وتركيب المسدس وتلقيم وتفريغ الطلقات.

من الذي أوصل هذه الجملة للمغربي؟ يبدو أنه شاهد عفراء، وامتدت يده إلى صدرها وحلمتها، بعد ذلك جاء حاملاً ما يحمل، هل أرسلته عفراء؟ منذ مدة لم يقم بزيارتي، صحيح أنني محتاج لرؤيته والحديث إليه، ولكنه، ولكنها، ولكنه.

* حميدة الهلالي ومن غرفتها شعرت برغبة في اقتحام خلوة ابنها مع المغربي، لذلك نهضت إلى المطبخ وأعدت طعاماً سريعاً وضعته على صينية، وذهبت باتجاه غرفة ولدها، وعندما صارت تماماً تحت شجرة التوت الأبيض، سمعت صوت إطلاق نار يصدر من الغرفة المقابلة، من غرفة ولدها، طلقة واحدة فقط، فألقت بصينية الطعام إلى السماوات وهجمت إلى الغرفة.

* كان صوت الطلقة، ونهضت الحارة برمتها من مراقدها، وامتدت الرؤوس من الأبواب، الأبواب كلها سوى باب حميدة الهلالي،

امتدت لتمسح دروب الحارة وتعاين الجسد الذي سقط، عفراء الحبال فعلت ذلك وأحست بنهديها يسقطان من الرعب، لم يكن غباش الصباح قد أطل على الحارة، لم يكن غبش الحاجات قد بدأ بتحريك الناس، فلماذا صوت الطلقات؟ ومن هو صاحب الجسد الذي سقط؟

قلب الحارة أصيب منذ مدة بوباء الذعر، وصار الناس ينامون وكأن مسدسات غامضة موجهة إلى رؤوسهم وصدورهم، لذلك كانوا يهبون هبة رجل واحد، عند كل صوت أو نأمة.

عندما نهضوا ومسحوا طرقات الحارة بنظرات سريعة مغبشة، عادوا إلى أبوابهم وردوها بعصبية، فتعالت أصوات الارتطامات العالية، مثل سيل متجاوب من الطلقات، ثم عادوا إلى أولادهم وقاموا بتفقد أعدادهم وأجسادهم. بعدها نظرت النسوة إلى الرجال، والرجال إلى النسوة، النسوة فككن أحزان الرجال عروة عروة، والرجال فككن عزلة زوجاتهن زراً زراً، حتى وصلت أصابعهم إلى الحلمات، صوت الرصاص ذكرهم بالموت، وكانت المطارحة وسيلتهم الوحيدة للرد على الموت الذي يجتاح الحارة ويقطع بين الأحلام والأرحام.

أم محمد المغربي نهضت إلى الباب دون أن تنتبه إلى فراش ولدها الفارغ، وعندما لم تلمح شيئاً، عادت مطمئنة دون أن تشعل النور، عادت مطمئنة إلى أن ابنها ما زال ينام قريباً منها.

قبل أن يتم إطلاق النار، كان المسدس في يد السيوفي وكان المخزنان معبأين بالطلقات ومركونين على الطاولة بينهما، امتدت يد محمد المغربي إلى المسدس، أخذه من السيوفي، وضع مشط

الطلقات بسرعة وضغط عليه براحة كفه، بقي أن تلقم وتضغط على الزناد، التلقيم هكذا، تشد القسم العلوي بالكف الأخرى وتعيده، فيذهب القسم، وفي العودة يدخل معه طلقة إلى حجرة النار، ثم تضغط بإصبعك على الزناد فتنطلق النيران، ثم وبحركات سريعة أخرج جميع الطلقات من حجرة النار من طرف المسدس، فتقافزت الطلقات وسقطت على الأرض، بعدها قام المغربي بإعادة تلقيم الطلقات في المخزن ودفعه في حفرته في المسدس وناوله للسيوفي المندهش من سرعة وثقة محمد المغربي بنفسه وأصابعه، ثم طلب المغربي من السيوفي أعادة العملية.

* أحياناً، وربما غالباً، يقفز الجسد بمفرده والأصابع بمفردها، والحلمات بمفردها بعيداً عن الحكومة والمعتقدات، يقفز الجسد منشقاً على روح صاحبه أو متضامناً معها، يقفز إلى طبيعته العاتية منجزاً الضراوة والغرابة محققاً مع وجده وحاجاته وجوعه إلى الحلمات مرة وإلى الطلقات مرّة أخرى، شيئاً يشبه الولادة والموت.

الذي حصل وصار أن السيوفي وعندما تلقت يده المسدس أحسه أكثر ما يكون طراوة وحرارة، مثل جسد فتاة يحبها، وقد تقاطع معه ومع مخيلته ليوحي له بأنه (أي المسدس) شيء بارز متماسك، وهو أقرب ما يكون إلى النهد منه إلى المسدس، لذلك لامسه بحفاوة وخوف، ولقمه بحذر وحفاوة، وأعاد تلقيمه لتنقذف الطلقات مثل شهقات نبيلة جارحة. غير أن إصبع السيوفي، ويا للغرابة، خرجت لوحدها على صاحبها وروحه وجسده، وقد أحست هذه الأصابع وحدها، بضرورة أن تبحث عن الحلمة لتضغط عليها، وعندما وجدت هذه الأصابع الزناد، أحست وكأنها وجدت ضالتها فضغطت على الحلمة التي تخصها وتخص

ذكرياتها البعيدة، وضغطت واستجابت الحلمة، وتدفق من فوهة المسدس الرصاص والحليب، وهرعت الأم الصاخبة، وألقت بصينيتها إلى السماوات وألقت برأسها وجسدها من فتحة الباب.

حتى فتاة الفورمول رفعت رأسها من لزوجة الحوض وتأملت ليلها المحيط بإعياء واضح، وشهقت من الوحدة وبدأت بالتهدل المريع.

ـ ما الذي حصل؟ صاح المغربي، أين ذهبت الطلقة؟ قال بلهجة متقطعة دون أن يدري وأن يحس.

ـ لقد، لقد أصابتك، وانخرط السيوفي بالبكاء وهو يعاين بقعة الدم على صدر المغربي.

ـ أين؟ إني لا أحس بشيء، قال المغربي بلغته المتقطعة الخائرة.

ـ في صدرك، عند الحلمة، لماذا قال السيوفي عند الحلمة وهو لم يكشف الصدر المصاب، ثم امتدت الأم برأسها لتتفقد ابنها، عضواً عضوا وأمومةً أمومة.

ـ اتركيني، صاح السيوفي في أمه، لقد أصبته، انظري إلى صدره.

ـ لا... ك... ن... ني.... لا.. أحس بشيء

قال المغربي معترضاً.

ـ لقد، لقد أصبتك في صدرك، والدم يتدفق، ألا تراه؟

ـ ال.. دم.. أن يتدفق بلطف، ليتك تمنعه، ثم شهق.

ـ عندها أحست عفراء الحبال بأن ثدييها قد سقطا على الأرض، وأن دروب الحارة خاوية، وقد هربت منها الأصابع والأرجل.

ـ ولكنني وعدتها.... ثم شهق.

ـ وعدت من؟ وعدتها بماذا؟

ـ وعدت عفراء (هذه الكلمة قالها دفعة واحدة).

ـ ليتك... تمسح الدم.. لقد... صار... كثيراً وأخاف أن..... تتلوث الأرض...... وتتلوث الحارة.

ويا أمي، صاح السيوفي، إنه ما زال يخاف على الحارة، والدم ينفر من صدره، ويخاف على الأرض، والروح تنفر منه، أحضري ما لديك من الأدعية والأقمشة لنمنعه من الموت.

* عندها أولج الرجال في النساء، وتسمّرت قبضاتهم على أكتافهن وضغطوا جميعاً، النسوة باتجاه القلعة، والرجال باتجاه معمل الإسمنت، والنهود إلى أعلى، إلى أعلى.

كان المعمم الفضلاوي، قاعداً يتأمل الجدار، ووحيداً وحيداً أحس بوحدته، وبصرخات وحيدة الحبال، زوجته الميتة، وخصلة من شعرها في قبضته، ثم نهض وانهال على الجدار.

ـ لقد أصبتك يا مغربي، قال السيوفي وهو يمسح الدم، وأخشى أنني قتلتك، والحارة معتمة، فماذا تريدني أن أفعل.

قال المغربي بلغة مصابة ممطوطة بيضاء من شدة التسرّب والدم.

ـ أحضر عفراء لقد وعدتها.

ـ بماذا وعدتها؟

ـ وعدتها، أن...

* أجابه السيوفي متوسلاً: ابق حياً وسأحضرها لك.

ـ هل.... تعدني؟

ـ أعدك، ثم نهض المغربي برأسه ليرى ما حوله، وعندما لمح يد السيوفي قبض عليها بقوة.... حتى ولو كنت ميتاً ضع.... أصابعي.... على نهدها.... هل ... تعدني.

ـ أعدك.

وكان الرجال والنساء في ذروة الهياج والاشتهاء، وكانوا يرجّون أجسادهم وأجساد من معهم بقوّة حتى يتمكنوا من إزالة أصوات الطلقات من رؤوسهم، وعندما أمعنوا عميقاً في الرج، ووصلوا جميعاً إلى الذروة، مطوا أعناقهم كثيراً حتى يطيلوا أمد الشهقات وهي تخرج بين أسنانهم المكزوزة، بعد أن صار مستحيلاً احتباسها، وصار مستحيلاً على الأقمشة أن تلجم الروح والدم، لذلك خرجت الزفرة الأخيرة من فم المغربي، بعد أن صار صعباً عليه أن يمط رقبته وأن يكز أسنانه، خرجت الشهقة الأخيرة ناعمة ناعمة، ممطوطة، حتى لم يكن بوسع السيوفي أن يحس بها وهي تلامس بإعياء شديد وجهه المستنفر وعضلاته المشدودة، ثم تراجع الرأس إلى الهاوية، إلى الهاوية التي لم يعد بوسع صاحبها أن يقدّرَ قرارها. لكن الذي ظل خارج الهاوية العميقة كف المغربي التي ما زالت تقبض بقوة على معصم السيوفي كأنما تطالبه بإصرار على إحضار عفراء ليفي لها بوعده.

كثيرون من أهل الحارة، سمعوا شهقة مدوية، تختلط بشهقاتهم شهقة جارحة كانت معهم، شهقة شاركتهم ورجتهم وارتجت وارتجت معهم، وعندما قذفوا نطفهم وقذفوا أرواحهم أحسوا

بالشهقة الجارحة كأنما خرجت منهم.

ـ ويا أمي، لقد مات المغربي.

ـ أعرف أنه مات.

ـ ويا أمي، ماذا نفعل؟

ـ لا تفعل شيئاً، أنا سأفعل، خذ المسدس واخرج به إلى مكان لا تراه ولا يحس به إنس ولا جان، وامحقه، وعد إلي لأقول لك ما تفعل.

ـ ولكنه قابض على يدي ولا يريد تركي.

ـ ما دمت لا تستطيع أن تخلص يدك، فكيف ستخلص روحك؟

ـ لم تعد لي روح، وهو لا يريد تركي.

ـ انتزع يدك بقوة، صرخت الأم بقسوة.

ثم نهضت إلى ذراع ولدها وشدته بقوة، فانقذف جسدها إلى الجدار وبقيت اليد في اليد.

ـ أنت ترين، إنه لا يريد.

ـ أنني لا أرى شيئاً، لعنة الله عليك وعلى الرصاص، ثم انحنت على الجسد المسجى.. وقالت نائحة: يا محمد المغربي يا ولدي، اترك يد عبد العزيز، هكذا حميدة الهلالي التي أرعبت طفولة أولاد الحارة كما لا تفعل الحكومات مع الرجال، تبكي وتصيح.

ـ يا محمد المغربي اترك يدي صاح السيوفي متوسلاً، أريد أن أذهب لأحضر لك عفراء، اتركها.

ـ لقد تركها، ألا تلاحظ؟ صرخت الأم في ابنها، فارتد السيوفي إلى يده ورفعها، ثم انحنى على المسدس فجمع أجزاءه وتوابعه الفارغة والمملوءة، وضعها في قطعة قماش ملوثة بالدم وصرها وحملها وهرع إلى الحارة ودروبها، وعندما وصل إلى الكروم المتاخمة بحث عن مكان يستطيع أن يضع فيه ما لديه، فلم يجد ولم يقدر، فتابع الركض واللهاث حتى وجد نفسه فجأة على الجسر، وسمع بأذنيه تدفق النهر وجريانه، ولم يكن الماء ماءً ولا التدفق تدفقاً، كل ما تخرجه المدينة من مخلفات وآثام، ينصب في مجرى النهر ترفده تجمعات الأمطار وسيولها ليتحول لونه إلى الرماد.

حاول السيوفي أن يرفع يده ليلقي بالصرة، لكن يده لم تستجب له، لذلك صاح صوتاً أفزعه، لم يعرف ضرورته، صاح: اترك يدي. كأنما يده ما زالت في قبضة المغربي، ولكنه عندما انتبه إلى يده ووجدها محررة من أية قبضة أحس بروحه وقد أُلقي عليها القبض، عند ذلك رفع يده ووضعها أمامه، ثم مدها وراء الحاجز وترك الصرة لتسقط وتقاطع جريان الماء بثقلها فيخرج صوت الارتطام إليه ويتصاعد الرذاذ ليطال وجهه.

كثيرة هي المرات التي قصد بها السيوفي هذا المكان في الليل، كان صوت الهدير يجذبه، فيصغي إليه رغم الروائح، وكانت هذه الروائح جزءاً من طبيعة المكان وخصائصه، ولم يكن يحس نحوها بالضغينة والقسوة، لعلها ترسبت في وعيه ووجده فتعودها وما عادت غريبة عنه، ولكنه تذكر عدد المرات التي حضر فيها إلى الهدير وتأمل معها تدفق الماء، مرتين طلبت منه أمه أن يأخذ صرة فيها حجر، ليلقيها في ماء النهر، وعندما كان يسألها كانت لا

تجيب، لكنه في المرة الثانية أصر على معرفة ما في الصرة، وإلا فإنه سيفتحها، لذلك اضطرت أن تقول له: في الصرة مشيمة ابن جارتنا أم العبد، الذي ولد البارحة.

ـ ولماذا يريدون إلقاءها في النهر؟

ـ حتى لا تراها الكلاب والقطط وتأكل منها.

ـ وإذا أكلت منها القطط والكلاب ما الذي يحدث؟

ـ عندها يصاب الولد بالصرع والجنون، ويصبح شكله غريباً عندما يكبر.

وها هي الحارة، وقد خسرت كل الكلاب والقطط التي لديها، وها هو السيوفي وقد جاء إلى الهدير ليلقي بالمسدسات عوضاً عن المشائم. صار للحارة أن تطمئن الحارة على أولادها ومشائمهم من القطط والكلاب، وصار أمراً بعيداً على الحارة وأولادها أن يصاب أحدهم بالصرع والجنون.

ويا حارة الحبال والمكانس، من يضمن لي أن مشيمتي لم يأكلها قط أو كلب؟ ومن يضمن للحارة أن المعمم الفضلاوي ظل محافظاً على مشيمته حتى الساعة؟ ويا مغربي لم أتقصد أن أفعل ما فعلت، فاترك يدي.

عندما دخل السيوفي إلى البيت، وجد أمه في حالة غريبة، وجدها وقد عرّت جسد المغربي عن آخره، ووضعت رأسها على جسده وبدأت تمسح الجسد وتعالج صفرته ووحدته بكفيها، كأنما تفعل ذلك بابن لها، وقد تركها منصرفة إلى أفعالها وترك نفسه وهو يتأمل الجسد ويبكيه، وعندما وصلت حميدة الهلالي بوجهها إلى

سرة الجسد أراحت خدها طويلاً كأنما لتنام، وقد أحس بها وبالأمومة الهائلة التي تزخر منها، لذلك صاح: يا أمي، فالتفتت برأسها إليه كأنما باغتها صوته، واستدارت إلى عينيها لتمسح الدموع، والأمومة العالقة، ونهضت بقوة وقالت: استعد.

ـ لأي شيء؟

ـ لنحمل الجسد.

ـ إلى أين؟

ـ إلى ساحة الحارة، عند قسطل الماء.

ـ ونحمله هكذا؟

ـ سنحمله هكذا، فعندما نرد الابن إلى أمه، نرده كما ولد.

ـ كأننا نحن من أكلنا مشيمته وليست القطط وليست الكلاب.

ـ احمل واسكت.

ـ أستطيع أن أحمله وحدي.

ـ لا أضمن أن تكمل الطريق.

ـ إنني أستطيع، انتهر السيوفي أمه غاضباً.

ـ لو لم يكن صديقك لاستطعت، لو لم تكن يدك التي أطلقت النار لاستطعت، وكيف تستطيع أن تتابع حمله إذا تذكرت؟ أما إذا استطعت أن تفعل، فأنت من أولاد الحرام، فاحمل واخرس.

ـ حميدة الهلالي أمسكت الجسد من الركب، والسيوفي أمسكه من ذراعيه ونهضا به. الأم تدفع بالجسد إلى الأمام، والسيوفي

يتراجع إلى الخلف، وعندما عبرا الغرفة وباحة الدار وشجرة التوت الأبيض العالية والباب. وصاروا في الطريق إلى الساحة، في الطريق الطويل، الطويل كأنما لا ساحة له، وحده اللهاث وأصوات انزياح الأقدام وحركات الصدر والحنجرتين يُسمع، والحارة غارقة في نومها وتعبها. وعندما تعثر السيوفي في المرة الأولى وسقط، نهض مرتبكاً وتابع الحمل، وعندما تعثر مرة ثانية، فعل كما في المرة الأولى، ولكنه عندما تهاوى في الثالثة، انحنى على الجسد يبكيه، ما عدت أستطيع، صاح في أمه.

ـ نصف الجسد لم تستطع حمله، فكيف استطعت أن تحمل المسدس، انهض، لو كنت طفلاً لعرفت كيف أربيك، إلا إذا أردت أن أجر جسده على دروب الحارة وحدي هكذا واحتضنت الجسد من ركبتيه بقوة وجرّته على حجارة الطريق. لذلك وخوفاً على صديقه، هرع إلى كتفيه وحمله وتابع الطريق به إلى الساحة، وقرب قسطل الماء الحكومي، تركا الجسد وتراجعت الأم، هيا صاحت بولدها.

ـ إنه لا يترك يدي أجاب السيوفي.

ـ أنت الذي لا تترك يده، ثم ضربت يداها ذراع ولدها بقوة فتراخت وابتعدت عن الجسد، فأمسكت ولدها من ذراعه وجرّته على دروب الحارة، كأنما تستعيد المغربي إلى البيت ثانية.

عندما وصلت إلى باب بيتها أو كادت، تهاوى بطوله على الأرض، فأمسكته من رجليه وسحبته دون أن تنتبه إلى اقترابها من البيت، واستمرت تجره حتى خرجت من الحارة ووصلت إلى الحارات المجاورة، ثم كان غبش الصباح، والصباحات المجاورة،

فتذكرت رغم جسد ولدها الذي تجره مثل عربة، تذكرت عاتكة الجلالي، وتذكرت جلال الجلالي وكلامه قبل أن يموت، عندما جمع أهل الحارة وتذكر أيام ابنته عاتكة الخير والجلال، المحبة لخبز الله ودينه، وكيف تهاطلت على خديه دمعتان لامعتان وركضتا على وجهه مثل ابنتين هاربتين، فقال لمن حوله من الذاهلين عن أرواحهم وأولادهم ومعتقداتهم: ستأتيكم أيام لم يقض الله لعاد وثمود مثلها، وسيضيع منكم أولاد لم تشاهد زوجة العزيز أجمل منهم، وستبحثون عن البصل والثوم والسكاكين، ولن تروا أمامكم غير الأصابع والدم والوشايات، ولن تنجدكم الأحلام، وستخلط البقرات السمان بالبقرات العجاف، ولن يخلصكم أي مستودع للطحين. تذكرت كيف صاح صوته الأبوي: أين أنت يا عاتكة؟ ثم شهق شهقتين وغاب.

وعندما مر أحد المارة وغبش الصباح في عينيه، سأل حميدة الهلالي، دون أن يمسك يدها: إلى أين تريدين الذهاب يا خالة؟

ـ أجابته، وهي تنظر إلى جسد ولدها، ودمعتان تركضان على وجهها مثل ولدين هاربين: اترك يدي أريد أن أنام.

في البيت

آخر الأحلام الجميلة التي شاهدها أفزعته، رغم أنه استعاد الحلم بلذة واسترخاء، غير أن الريبة داخلته في أقرب الأشياء إليه، الريبة في نفسه، لقد اعتبر أن مخيلته في الحلم قد شطت به بعيداً، والشطط في مسألة كهذه شطط غير معقول، ولا يمكن اغتفاره، وبخاصة لرجل في موقعه ومكانته. صحيح أنه في مراهقته البعيدة، مراهقته المضيئة، كثيراً ما حلم أحلاماً فاضحة.

فلقد حلم مرات كثيرة بأنه أصبح شرطياً، وأحياناً حلم بأنه أصبح بائعاً للفلافل، وكثيراً ما راوده حلم بأن يكون مديراً للمدرسة التي يتعلم فيها، وكانت كلها في مراهقته البعيدة مناصب هامة، يندهش معها ويتمناها، ليعيد بناء العالم على هواه.

وها هي مخيلته تغامر به وتقفز على ضروراته، لتزجه في رهانات الأحلام الفاضحة. فلقد حلم في المرة الأخيرة بأنه تبوأ منصب

الرئيس. فكيف تجرأ وحلم.. وكيف اتسعت مخيلته لمثل هذا الحلم المريب.

إنه بصراحة يشغل مهمة (محقق أول)، وهو عبر هذا المنصب ومن خلاله، يفعل الأعاجيب بالأفراد الذين يتجرأون ويحلمون، فكيف يعطي لنفسه الحق في محاسبة الآخرين على أحلامهم، وهو ومن موقعه تغدر به مخيلته مثلهم وتحلم على هواها؟

لقد اعتبر الأمر ومن موقع الإخلاص المهني الذي يحرص عليه خروجاً على أخلاق المهنة. إنه لا ينكر، وذلك طبع فيه، أن مخيلته ذاتها، أصبحت في الآونة الأخيرة تسخر منه، وكان يحتمل ذلك كله بصبر، ولكن الذي يقلقه أن شفته العليا في الحلم بدأت تتهدل بعيداً عنه كأنما تعيش محنة تخصها.

فكيف تجرأت عليه مخيلته وبدأت تتقمص ملامح وأوجاع المتهمين الذين يقعون تحت رحمته، لتصرخ في وجهه على طريقتها الخاصة، مستنفرة استجاباتها وحموضاتها لتتمرد عليه وتقذف بهوائها في وجهه واضعة إياه في مكان المتهم ملقية في وجهه شتائم ومفردات سوقية تذكره بأصوله وطفولته؟

فكيف تسنى لمخيلته أن تفعل ذلك؟ وكيف استطاعت ذاكرته أن تستعيد طوفان العبارات السوقية لتلقيها في هدأة أحلامه، وهو في حالة الاكتمال والانضباط والتوازن التي توحي بالقوة والثقة والرهبة أمام الآخرين من المرؤوسين والأتباع من الأقرباء والموالين والمندهشين؟ لكن أن تفعلها مخيلته ذاتها وتقفز قفزتها المحيّرة في الاتجاه الآخر لتعيد لأحلام المراهقة حضورها الكاسح، متناسية المناصب الممكنة الأخرى.. منتشية بمنصب الرئيس، هذا الأمر

وحده كاف لإدخاله في الذهول.
في الذهول والاستنكار.

لذلك وقف أمام مرآة الصباح، مرآة الحلاقة اليومية، وبدأ قبل أن يفتح الصنبور ليتدفق منه الماء الناصع، بدأ قبل ذلك وبعينين منهكتين من فرط الأحلام الجريئة. بدأ يكيل لنفسه وأحلامه وروحه الشتائم في محاولة محسوبة منه للقصاص من نفسه وبرهته.. وقد بدأ فاصل النقمة بعد تريث وتمهيد، ومن جملة ما قال: أيتها المخيلة الفاسدة، لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ ثم كوّر قبضته وانهال بها على المرآة التي احتضنت وجهه المملوء بالتباريح.

* زوجته، أفزعها صوته وهو يصرخ لماذا.. عدة مرات، ولكنها وقد سمعت صوت سقوط المرآة على الأرض نهضت بكامل جسدها وتقدمت نحوه بحالة اندهاش وهي تستطلع ظاهر قبضته وأسفلها لتتبين مبلغ الإصابة فيه. ثم أقعت على الأرض وثوب نومها يكشف مقدمة فخذيها الشابين وبدأت بلم شمل المرآة المجزأة التي أطاحت بها قبضة الزوج الجريح.

ــ هل حلمت ثانية؟ سألت الزوجة..

ــ نعم.. أجابها وهو يتأمل قطرات الدم أسفل قبضته.

ــ حلم أم كابوس؟

ــ ليته كان كابوساً، كنت عرفت كيف أتعامل معه.

ــ حلم جميل إذاً.

ــ أجمل حلم على الأرض.

ــ امرأة جميلة؟

ــ امرأة جميلة؟... كيف؟

ــ أخت لأحد الموقوفين مثلاً.

ــ ما زلت تتذكرين؟

ــ كيف أنسى وأنا واحدة منهن؟

ــ معكِ حق.

ــ معي مرآة مكسورة، ردّت الزوجة الشابة وهي تلملم نثار الزجاج عن الأرض.

* من أجل أن يفتتح يومه، وصباحه، لملم نفسه من شظايا الحلم العنيف وذهب إلى المطبخ، مرّ قريباً من ظهر زوجته الشابة المشغولة، صنع فنجان القهوة، فتح خزانة وأخذ منها صحناً عميقاً ثم عاد إلى المغسلة، ملأ الصحن بالماء الساخن وحمل أدوات الحلاقة وذهب إلى غرفة النوم ليبدأ حلاقة ذقنه أمام مرآة جديدة... ليشرب بعد ذلك فنجان القهوة، وقد حرص بعد أن بلل رأس الفرشاة بالماء الساخن وضغط أنبوبة المعجون، أن يحرك الفرشاة على ذقنه بهدوء وعمق، في محاولة لاختراق جذور الشعرات وإنهاكها حتى تنهار أمام آلة الحلاقة، وقد تم له ما أراد وأتم حلاقة ذقنه بدون منغصات، ودون جروح. ولكنه بعد أن بدأ بحلاقة شفته العليا الواسعة خانته أصابعه ونزلت مقدمة الشفرة على مقدمة أنفه فجرحته جرحاً خفيفاً وتشكلت على حوافه قطرات صغيرة من الدم ما لبثت أن اتصلت ببعضها لتشكل خطاً دقيقاً، حاول أن يمسحه بنزق، فتشكل خط آخر، مسحه ثالثة ورابعة، وعندما أعياه المسح، قرر تركه، فتوقف الخط على حاله كأنما يعانده، لذلك تابع حلاقة شفته العليا، شفته الشاسعة، التي تمتد من أسفل أنفه امتداداً

هائلاً يكاد يصل إلى سرواله ليغلق الهواء أمام فمه ورئتيه.

عندما أنجز حلاقة شفته العليا الشاسعة، حمل أدواته عائداً إلى المغسلة ليغسل وجهه، وشفته وخط الدم على مقدمة أنفه، ثم ليذهب منتصب القامة إلى الصالة، ليقعد في مكانه الأثير على كرسيه الخاص الملفوف الذي يحتضنه احتضاناً كما تفعل المؤسسات المختلفة في بلده، وقربه فنجان القهوة، وعلبة الدخان والولاعة.

حمل فنجان القهوة وقرّبه إلى شفتيه فوجده فاتراً، فأعاده بنزق وصاح:

ــ انتصار، انتصار.

هرولت زوجته الشابة إليه، ودون كلام، حملت الفنجان الفاتر وعادت به إلى المطبخ لتعيد تسخينه من جديد، فاضطر، وعلى غير عادته، أن يبدأ صباحه بإشعال السيجارة قبل أن يبلل شفتيه بماء القهوة الساخن، كضريبة يدفعها لتطاول أحلامه عليه.

عندما عادت زوجته ومعها فنجان القهوة واللهب يتصاعد من ركبتيها، انحنت على الطاولة الواطئة وانتبهت إلى خط الدم الدقيق الذي تشكّل على مقدمة أنف زوجها، فوضعت الفنجان ونهضت وابتعدت، وقبل أن تنعطف إلى غرفة نومها قالت: لقد جرحت نفسك، وعندما انتبه إلى الكلام، لمح نهاية ثوبها الشفاف وهو يغيب في الغرفة، ثم تابع شرب القهوة بارتباك ملحوظ، وأشعل من أجل ذلك عدة لفافات، حتى أغرق الصالة التي اجتاحتها أشعة الشمس بسحب الدخان التي تقاطعت مع حزم الضوء المنسابة من الزجاج لتتكسر عليها بسبب أنفاسه المنفعلة.

ابنته الشابة، خرجت من غرفتها وعبرت الصالة مستعجلة.. وهي تسأل:

ــ هل تريد فنجاناً ثانياً؟

ــ أريد.

ــ لقد جرحت نفسك، قالت الابنة، وقد وصلت إلى باب المطبخ.

للمرة الثانية يسمع كلمة (لقد جرحت نفسك) تساءل عن معنى ذلك، لماذا لا يقولون جرحت أنفك، أو وجهك؟ هل يسخرون منه؟ هل عروا خباياه وأدركوا العلاقة المتوترة بينه وبين نفسه التي تخونه وتربكه، نفسه التي تحاول الخروج عليه وعلى انضباطه الشديد وشخصه المهيمن لتحلم على هواها؟

رفع الفنجان إلى فمه بعصبية وأماله بقوة، ثم أعاده. كان الفنجان فارغاً، وقد رفعه دون أن ينتبه، كان تجتاحه رغبة شديدة في أن يجرح نفسه، والنفس عندما تُجرح تتكتم على جراحاتها وتخفي دماءها في أماكن غامضة عميقة لا يلمحها أحد حتى صاحبها، جراح يمكن الالتفاف عليها بالكلام والابتسام ويمكن تأجيل تضميدها إلى أوقات مناسبة، ويمكن تجاهلها ونسيانها مثل أشياء تالفة.

لكنه لم يجرح نفسه، والدليل أنه لم يستطع التكتم على جرحه ولا الالتفاف عليه، كانت نفسه تمارس عدوانها عليه، لتربكه، وهو وعوضاً عن أن يكيل لها الصاع صاعين، بجسده الفاره وشفته العليا الشاسعة. ها هو ينهك جسده بجرح صغير مفاجئ، يلفت

انتباه زوجته الشابة وابنته الشابة. هذا الجسد الذي يعتبره عُدَّته في حربه، يتعرض للإذلال، بسبب نفسه التي أدخلت هذا الجسد القوي في الارتباك وأرعشت أصابعه فانهالت آلة الحلاقة بصورة صاعقة على مقدمة أنفه لتجرحها.

* (وعد السيوفي)، الابنة، والطالبة في دبلوم التربية في جامعة حلب، التي تحس بأن جسدها أصبح يميل إلى السمنة قليلاً، وهي رغم عينيها الواسعتين المشربتين بخضرة، وشفة عليا لا تشبه شفة والدها الشاسعة، كانت تتحرك بانفعال لتعيد ترتيب غرفتها وكتبها، لم تكن حماستها في الذهاب إلى الجامعة في الماضي توازي حماستها هذه الأيام، لذلك بدت منفعلة، فالأستاذ الجديد الذي عرّف نفسه في المحاضرة الأولى بلقب الدكتور عمر الذهبي، أثار انتباهها، ليس بسبب بروده الشديد في إعطاء (مادة علم النفس والتربية) التي تخصص فيها، ولكن بسبب طوله المتوسط وشعر ذقنه الذهبي المرتد إلى عنقه مثل فرسان القرون الوسطى. الذي أثار انتباهها نحوه هو ارتباكه الشديد، والتفاتته الدائمة نحو الباب، كأنما يحس بأن شيئاً سيدهمه، لذلك انتبهت إليه أول الأمر، ثم بدأت تحس نحوه برغبة شديدة بالضحك بصوت مرتفع، ثم تحوّل الانتباه والميل للسخرية إلى حالة من التأمل الدقيق.

هو أستاذ فاشل ما في ذلك شك، قياساً بالأساتذة الآخرين الذين يصولون ويجولون بحناجر هائلة ترجُّ المدرَّج رجَّاً وتدخل الطلاب جميعاً رغم أعمارهم المتفاوتة في الخوف والصداع.

الدكتور الجديد، يكاد يخاف من صوته، يحسّه خارجاً عنه دون إرادته، ولأنه عاش طويلاً في بلاد الغربة حتى تسنى له أن يحصل

على شهادته تلك، فقد عاد إلى أهله ولغته كالعائد من الغربة إلى غربة تضاهيها، لذلك كانت علاقته بلغته الأم فاضحة، لكأنه مستشرق قادم إلى بلاد لم يرها ولم يعرفها.

* بعد أن كوّنت (وعد السيوفي) هذه الملاحظات عن أستاذها الجديد، بدأت تنتبه إليه، ثم تحول الانتباه الدائم إلى اهتمام دائم، دائم، لا تعرف اسماً له، ولم تكن تريد.

عندما خرجت من غرفتها منفلتة إلى الصالة، وجدت والدها في وضعية الغارق في دخان وحدته، ولمحت فضاء الصالة وقد تكاثف فيه الضوء والدخان.

ــ لو كنت أعرف الرسم لكنت رسمت لك صورة، قالت متخابثة.

حطت على وجه الوالد ذبابة، فأزاحها بيده، فانفلتت طائرة ودخلت في حزم الضوء المتسرب من النافذة فالتمع جناحاها وجسدها بضوء أثار انتباه الفتاة.

ــ وهل سترسمين الذبابة أيضاً؟ تساءل الأب.

ــ أفضل رسم لوحة دون ذباب، لوحة تظهر فيها في مكان عال وحولك الضوء والدخان، مثل آلهة اليونانيين على قمة الأولمب.

ــ بالبيجاما والروب؟

ــ بدون ألبسة، أقصد نصفك عار من الأعلى وبدون علبة دخان وقداحة، ثم انقضت على علبة الدخان والقداحة ووضعتهما في محفظتها.

ـــ أصبحت تحتاجين للدخان مثل آلهة اليونان.

ـــ ونصفي عارٍ من الأعلى؟ يا للعار، أعطني مصروفاً.

ـــ هل تحتاج الآلهة للنقود؟

ـــ حتى تستر نفسها وأحلامها عن العيون.

ـــ أنت فتاة مُتعِبة.

ـــ أنا ابنة مُتعَبَة.

في المكتب

في غرفته بالمكتب، حيث يأتيه المتهمون في مراحلهم الأخيرة ليصوغ التقرير النهائي بنفسه ويصبح هذا التقرير معتمداً لدى دائرة الأمن التي يعمل مسؤولاً فيها، بعد أن يستكمل بنفسه مرحلة التحقيق الأخيرة، وبسبب من أهمية منصبه وموقعه، فإن المتهم الذي يأتيه يكون متهماً هاماً، فالتحقيق في إدارته يمر بمراحل مختلفة يتم خلالها إطلاق سراح أغلب المتهمين بعد أن تتأكد إدارته أن المخبرين الذين يعملون سراً لديها قد بالغوا كثيراً في توصيف حالة المتهم، ولفقوا وأضافوا، وأحياناً تكون غالبية التقارير تستهدف مواطنين لا علاقة لهم بالسياسة، وإنما يحاول المخبرون أن يلفقوا من أجلهم تهماً سياسية بغية الابتزاز أو تصفية حسابات شخصية.

في غرفته تلك، استرخى بطوله على الكرسي الذي تحيط جوانبه به حتى تكاد أن تلتهمه، وبعد أن شرب فنجان القهوة الثالث، ضغط

زر الجرس، وعندما دخل الحاجب إلى غرفته ووقف باستعداد مبالغ به، طلب المقدم عبد العزيز السيوفي من الحاجب أن يدخل الموقوف الذي تم تأجيل دخوله عليه عدة مرات، ثم استرخى بطوله المنهك على الكرسي ووضع طرفي قدميه على وجه الطاولة المكتظ بالتقارير، ثم امتدت يده وأمسك بالتقرير الذي أثار ضحكه وانتباهه، ثم استعاد جلسته في انتظار دخول الموقوف إليه.

التقارير الأولية للمخبرين والمحققين تحدثت عن رجل يخطب في الساحات والمقاهي وأماكن الحشود العامة، مدعياً أنه ملك العالم، والرئيس العام، وسوى ذلك من الألقاب، وقد وردت في التقارير تفاصيل مضحكة، ثم طُرق الباب وأُدخل الرجل، وكان اللافت للانتباه في مظهره رغم حرارة الصيف أنه يرتدي بذلة شتوية مجعلكة وربطة عنق عريضة مشوشة، وفي جيوب الرجل أوراق كثيرة، ولنظارته عين زجاجية سوداء، وعين أخرى بدون زجاج، وعندما سأله السيوفي عن أسباب كسر عين النظارة وهل استعمل معه عناصر التحقيق العنف، أجاب:

ــ أبداً لقد كسرتها بنفسي.

ــ ولماذا كسرتها؟

ــ حتى أرى جيداً.

ــ لماذا لم تكسر الثانية؟

ــ الثانية لها عمل آخر.

ــ كيف؟

ــ العين الأولى لأشاهدك، والعين الثانية لأبحث عن نفسي.

ــ ما هو اسمك؟

ــ أنا الملك.

ــ ملك أم رئيس؟

ــ أغيّر الألقاب بحسب المكان الذي أرتاده.

ــ والآن أي رئيس أو ملك تحب أن تكون؟

ــ ملك الأمن.. وملك التقارير إن شئت.

ــ لم أفهم قصدك... أقصد ما رأيك بفنجان قهوة؟ استدرك السيوفي متسائلاً.

ــ إذا كانت قهوة ملوكية، لا أمانع، قال الموقوف.

ــ قهوتنا ملوكية دائماً، وقد استدعى ذلك كما يحصل في كل مكان أن يضغط السيوفي الجرس ويطلب القهوة من الحاجب، وقد أكّد له بعد دخوله: يجب أن تكون قهوة ملوكية لضيفنا العزيز.

هذه الحفاوة التي لم يتعودها الرجل الموقوف أطلقت لسانه فتدفق بالكلام على هواه.

ــ الذين يجلسون في المقاهي ويشربون قهوة ملوكية مثلي لا يفهمون ضرورات الأمن، لذلك يأخذون راحتهم في الحديث عن زوجاتهم، والزوجات الغاضبات ونكاية بأزواجهن يأخذن راحتهن في الحديث عن الحكومة، والمخبرون في المقاهي، نعم المخبرون، لماذا أتحدث أنا عن المقاهي برأيك؟

ـ ربما لأنني طلبت لك فنجان قهوة.

ـ هذا تطاول مني وقلة حياء، ما ذنب المخبرين؟ ما ذنبهم؟ ثم بعد ثلاثة أشهر في ضيافتكم هل يستطيع أحد الحديث إلا بحب شديد واحترام؟

ـ ألست ملك الأمن وملك التقارير؟ لذلك من حقك أن تتحدث عن المخبرين كما تشاء.

ـ المخبرون المساكين، في ضجيج المقاهي يجلسون وعيونهم تغزل غزلاً، والذي تغزل عيناه يصاب بالصداع، وتجف المياه على بؤبؤ عينيه وتصبح العروق والشرايين الناعمة في عينيه حمراء من شدة التحديق والاحتقان، وهم ينتبهون إلى الكلام، وكلام الناس يتداخل في بعضه ويضيع داخل الزفرات والدخان.. هل تعلمونهم أن ينتبهوا إلى الكلام عن بعد، ويفهموا حركة الشفاه والأصوات فيعزلوا الأشياء عن بعضها؟ أغلب الظن أنهم لا يتعبون أنفسهم في مثل هذا العزل ما دامت الزوجات أكثر معرفة من الأزواج بمقتضيات الحكومة والسياسات. أعتقد أن المخبرين الذين يعملون عندكم يطلبون من زوجاتهم أن يكتبوا لهم التقارير، حتى ولو كانت الزوجة لا تجيد القراءة ولا الكتابة، فالزوج المخبر يطلب منها ذلك، بعد أن يقع على قدميه أمامها راجياً منها المؤازرة والتعاون... ليستتب الأمن في المقاهي والدوائر والساحات. ألم يقل الجنرال كليبر قولته المشهورة قبل أن يقتل بساعات: «إذا أردت معرفة الحقائق فابحث عن الزوجات»؟

ـ نابليون قال كلمة مشابهة.

ـ نابليون لم يكن دقيقاً عندما قال: ابحث عن المرأة. كليبر كان

أكثر تحديداً عندما ذكر الزوجات، لذلك دفع الثمن الباهظ وكان ما كان.

ــ كيف حدث ذلك؟ هل تستطيع أن توضِّح؟

ــ اسأل المخبرين، المخبر لديه خبرة في هذا المجال، يسأل زوجته ما رأيك بالقرار كذا الذي اتخذته الحكومة، فتبدأ الزوجة بشتم الحكومة وشتم القرار، وشتم الجيران، وشتم أم الزوج، عند ذلك يخرج المخبر ورقة وقلماً ويكتب كلام زوجته، وينسبه إلى الرجل المطلوب متابعته ومتابعة أفكاره. لذلك تصبح الزوجات عوناً لأزواجهن، ويزداد الاحترام بين المخبر وزوجته فتتماسك الأسرة وتستمر بالتماسك حتى يتدخل الجيران لفك الارتباط بين المخبرين وزوجاتهم، ويرفرف الحب على الرؤوس مثل تقرير كبير وتصاب الحكومة بالبهجة والفرح الشديد وبالقليل من الحنكة. لذلك يهرب الأزواج الذين لا يعملون مخبرين لديكم إلى المقهى لأنهم يعتقدون أن كلام الزوجات ليست له فائدة، وفي المقهى إضافة إلى القهوة والكراسي والطاولات، في المقهى كلام كثير، اسألني، أنا كنت من رواد المقاهي في أيام الشباب، لكن بعد أن انتابتني الرغبة في أن أكون ملكاً بدأت أحتقر المقهى والذين يسكنون فيه.

* رغم دخول الحاجب ووضعه لفنجان القهوة الذي طغى عليه الزبد مثل عيون صغيرة مندهشة، رغم ذلك أحب السيوفي المحقق أن لا يقاطع متهمه في استرساله الجميل، وكان الرجل المتهم بدوره منهمكاً في الكلام وكأنه وحده، لا أمن ولا سيوفي ولا من يحزنون.

ــ كنت أحب المقاهي، ولكن بعد أن، بعد أن، هل تعرف لماذا تتشكل العيون الصغيرة على سطح فنجان القهوة؟

ــ لا أعرف.

ــ لذلك أحببت أن أكون ملكاً.

ــ وبعد أن أحببت أن تكون، ماذا جرى؟

ــ نعم بعد ذلك مباشرة، تغيّر الحال معي، صرت أدخل إلى المقهى لسبب آخر غير شرب القهوة، وإياك أن تسألني عن السبب لأنني لا أحب أن أقوله لأحد.

ــ لو أنك تخبرني عن السبب قبل أن تبرد القهوة.

ــ من عادتي أن أمشي في الشوارع كثيراً، أمشي أكثر مما يمشي النادل في المقهى، ولأنني لم أعد أدخل إلى المقاهي، لأنه لم يعد معي ثمن فنجان القهوة، لذلك تحوّلت وغيرت علاقتي بالمقهى، صرت أدخل إلى المقهى لسبب واحد بل لسببين، السبب الأول: أدخل إلى المقهى لأتبول.

ــ والسبب الثاني (تابع السيوفي التساؤل كي لا تنقطع أفكار الرجل).

ــ وهل تحدثت عن سبب ثان (سأل الرجل مستنكراً)؟

ــ نعم، السبب الأول لكي تتبول بعد أن تتعب من المشي، فما هو السبب الثاني؟

ــ السبب الثاني: لأغسل يدي ووجهي بعد أن أتبول، هل يعجبك السبب الثاني؟

ــ ظننته سبباً مهماً!

ـ هو في الواقع سبب مهم، لكنني لا أستطيع أن أخبرك به إلا على انفراد.

ـ نحن في الغرفة وحدنا.

ـ أنا وحدي، لكن هل أنت وحدك؟

ـ طبعاً وحدي.

ـ ولا يوجد من يفهم الأمور بشكل مغلوط؟ أنا مثلاً قد أفهم الأمور بشكل مغلوط ويمكن أن أجعلك تدفع ثمناً باهظاً.

ـ من هذه الناحية لا تخف، أنا مطمئن من ناحيتك. رد السيوفي على الرجل وهو يبتسم.

ـ أما أنا فغير مطمئن... غير مطمئن أبداً... لكنني رغم ذلك سأخبرك، فأنت مخبر جيد، وأحب أن أسأل ما دامت عندك فناجين وقهوة ونار، لماذا لا تفتح مقهى؟ الأرباح ستأتيك مثل السيل، كل فنجان يذهب تأخذ ثمنه، بالمناسبة لا يوجد معي ثمن هذا الفنجان.

ـ هذا الفنجان لك ضيافة.

ـ أصحاب المقاهي لا يضيفون أحداً.

ـ هل تعتقد أننا في مقهى حتى آخذ منك ثمن الفنجان؟

ـ تريد معرفة السبب الثاني؟ لقد فهمتك.

ـ معك حق، أريد معرفة السبب الثاني.

ـ أنا فهمتك، وأنت فهمتني، ولا يوجد فنجان قهوة على الأرض ليس له ثمن.

ــ بدأنا نفهم بعضنا... تقريباً.

ــ زوجتي أيضاً تفهمني، رغم أنها لا تعمل في المخابرات مثلك.

ــ متزوج أنت.

ــ أبداً، لكن لي بعض الأصدقاء تزوجوا وفهمتهم زوجاتهم، وأصبحوا يتبولون في المقاهي مثلي، لذلك اعتبرت نفسي من المتزوجين، لكن مع وجود فارق أنت تفهمه، إنهم يتبولون ويشربون القهوة ويجلسون في المقهى، أما أنا فأتبول فقط ولا أستطيع الجلوس، لأن النادل يحتقرني...

ــ كنت تتحدث عن السبب الثاني.

ــ السبب الثاني أذهب إلى المقهى لألقي خطاباً.

ــ عن أي شيء تتحدث في الخطاب؟

ــ عن قضايا تشغل بالي وبال الناس، لذلك أحذّر الناس وأطلب منهم الانتباه.

ــ إلى أي شيء؟ سأل السيوفي المحقق.

ــ إلى الحفر والمجارير المكشوفة، وأحياناً أطالبهم بالتضامن ليمدوا أجسادهم جسراً لتعبر من تحته بقية المخلوقات من الدواب والبهائم والتماسيح وباعة اليانصيب وماسحو الأحذية الذين يقلقون زبائن المقهى بالصراخ، وأحياناً أحياناً كثيرة أتمنى أن ألقي بنفسي تحت عجلات سيارة مسرعة لأنني أشتهي أن أشرب مثل خلق الله فنجان قهوة ولكن... ولكنني لا أستطيع، أنت تفهمني، القهوة وفنجان القهوة، واللهب يتصاعد، أحس نفسي وقتها كأنني في الحمّام، وقد احمر جلدي من الخجل لأنني لا أستطيع أن أحول

الماء البارد في الحمام إلى قهوة ساخنة لأشرب منها وأتذكر الأيام التي كنت أقعد فيها على كرسي وأمامي طاولة وفنجان وصديق منتبه إلى النافذة وبين أصابعه لفافة تبغ لها رأس مثل مثل ماذا، مثل ماذا، مثل أي شيء لا أعرفه، وعندما لا أستطيع أن ألقي بنفسي تحت عجلات سيارة مسرعة، وعندما لا أستطيع أن أشرب القهوة، عند ذلك تكون نفسي جاهزة لإلقاء الخطاب العظيم. هل تعتقد أن إلقاء الخطاب أمر سهل؟ أبداً، خاصة أمام جمهور من الناس جالسين في المقهى ورؤوسهم مملوءة بخطابات لا يفهمونها، لذلك عندما أخطب فيهم يتأملون الكلام، ولا يفهمونه، وأنا أتأمل الفناجين ولا أفهمهم، ويأخذ الخطاب الواحد معي مدة شرب فنجان من القهوة وتدخين سيكارتين لهما رأسان مثل عينين حمراوين، هل تعتقد بأن إلقاء الخطاب أمر سهل، والناس ينظرون إليك ويضحكون مثل، شيء لا أعرفه، لا أحب أن أقول مثل العاهرات، لأن العاهرات ينتبهن للكلام أكثر، ويرفعن أثوابهن بشكل أفضل، وأنا ألقي الخطاب، بكلام جميل مصفى، أستعرض فيه حوادث الزمان والمكان، الشرق والغرب، وحركة الجمع والضرب، وحركة الناس والبورصة، وأسعار العملات وأحزان النسوة الوحيدات، والفتيات المجعدات الشعر. أبدأ الصباح بالانتباه للأخبار، بدلاً من شرب فنجان قهوة... تفوح منه الرائحة... وتطفو على وجهه الفقاقيع، وعندما يدوخ جهاز الراديو من شدة ولعي بالأخبار وتصاريح السياسيين وغبائهم أرفع كفيّ إلى الله متضرعاً طالباً منه توفير مادة القهوة لكل الناس... وبعد أن أتمّ التضرع والدعاء، أبدأ بجمع مادة الخطاب من هنا وهناك. يا أخي إلقاء الخطاب أمر غير سهل، ولا يشبه شرب فنجان قهوة بارد مثل هذا الفنجان، الذي أستطيع أن أشربه دفعة واحدة كما أفعل

بالدواء، لذلك أخطب بالناس، وأنا أستغرب برودتهم، وانشغالهم بأنفسهم، دون أن يعطوا للقهوة معناها وللطاولات حقها من التأمل والانحناء أمام هذه الناطحات، أقصد ناطحات السحاب... فليس من حق شيء في العالم أن ينطح السحاب. لذلك أخطب في الناس، دون أن أبدأ الكلام بالصراخ، يا ناس يا هو، الحاضر يعلم الغائب، كما تفعل زوجة جارنا الذي يعمل في شرطة السير، أنا أجمع الخطاب من وكالات الأنباء العالمية، وأنسب الأخبار إلى مصادرها، وعندما أنتهي من الأخبار أقدم فاصلاً قصيراً للتعليق على الأنباء، قد يستمر الفاصل القصير أسبوعاً، لذلك أحس بالجميع لا يفهمونني. مرة واحدة فهمني أحد الزبائن في المقهى ودعاني لشرب فنجان قهوة مثل هذا الفنجان الذي شربته أمامك على الصافي، فاحترمت الرجل وكبر في عيني، وبعد أن أحضر لي الفنجان، طلب مني أن أعيد له التعليق على الأنباء، فأعدته له بالتفصيل، وبروح طيبة، وقد اضطر من أجل متابعة التعليق حتى نهايته أن يضحي بنصف راتبه ثمناً لفناجين القهوة التي تطلبها إعادة التعليق، وبعد أن انتهيت شكرني الرجل بمودة، فأكبرت فعلته وقهوته في عيني ودعوته للاستماع إلى التعليق الثاني، لكنه اعتذر وطلب مني أن أذهب معه، فذهبت وقد فوجئت عندما أخبرني بأن تعليقاتي المتواصلة على الأنباء كادت أن تخرب له بيته، وطلب مني والدموع تبلل وجهه أن أسلم نفسي لجهاز الأمن الذي يعمل فيه من أجل مستقبل أولاده، وعندما تدخل رفاقه في المهنة وجروني إلى السيارة، عند ذلك، وذلك وحده، طار احترامي له كما طارت القهوة من الفناجين التي دفع ثمنها وهو ينصت لي. وقد خمنت أنه من حزب المحافظين وأنه استاء كثيراً من التحامل الشديد عندما أفردت خطاباً كاملاً عن المحافظين الجدد وانهيار

الناطحات وما أثاره الانهيار السريع من غبار كثيف... ملأ العيون والظنون وغطى خطوط العرض والطول في القارات.

* عندما لمحت بعضاً من الغبار وسوء الفهم على وجه المخبر النبيل، طلبت منه من أجل حلحلة الموضوع أن يرتب لي لقاءً مع أحد المقاولين المهتمين بمبدأ إعادة البناء.. لأعتذر له عن التجاوزات التي بدرت مني بحق الناطحات، لكنه تجاهل الموضوع، أقول لك بعد الذي حصل بدأت الشكوك تراودني، ها هي المقاهي تقدم القهوة ولا تحسب حسابي، وها هي ناطحات السحاب ترسل رجلاً للقبض علي، لذلك قررت بيني وبين نفسي أن أتوقف عن التعليق على الأنباء، وإذا اضطررت إلى التعليق اضطراراً، أنسبه إلى وكالة أنباء عالمية، حتى إذا شك أحد المتحمسين في أمري، أحوله إلى وكالة الأنباء ليقبض عليها ويحل عن سمائي، هذا عند الضرورة، أما عندما لا أجد خبراً مهماً يستاهل التعليق، أكتفي بنشرة الأخبار اليومية.. ولكنني بدأت أحرص على إذاعتها في المقاهي الفارغة قبل ساعة الإقفال، أدخل إلى المقهى، إلى الكراسي الفارغة والطاولات، ومكنسة الجرسون الذي بقي وحيداً وأتقدم لتلاوة النشرة بروح متضامنة وعيون دامعة، فالكراسي تعرفني، كلها تعرفني، والكراسي تسمعني، كلها تسمعني، فيها رائحة الناس، فيها رائحة انتظارهم، ورائحة زمانهم الذي يهرب من عيونهم ومؤخراتهم دون انتباه، ورغم ذلك فالكراسي تنتبه وتسمعني، الكراسي لا تستطيع أن ترفع يدها لتكتب تقريراً، لأنها إذا رفعت تقع على الأرض فأنتبه، والطاولات كذلك، ونادل المقهى لا يستطيع أن يرفع يده الثانية حتى لا تقع المكنسة ويطير الغبار إلى ثيابه فيسقط وتتناثر قطع العملة المعدنية والناطحات على الأرض فيقضي ليله كله في لمِّها، في هذه اللحظة وفي منتصف الخطاب، وفي منتصف نشرة

الأخبار، أحس بالتضامن مع النادل، ومع ظهره المحني على الأرض، فأتقدم إليه وآخذ المكنسة منه وأتابع تكنيس الأرض، وعندما أنتهي، يحضر الرجل فنجانين كثيفين من القهوة، واحداً له وواحداً لي فنقعد معاً على الطاولة مثل ملكين ظامئين ونشرب القهوة معاً دون أن يطالبني النادل بالتعليق على الأخبار التي ألقيتها على مسامع الكراسي الفارغة والطاولات... هل تعرف مارغريت تاتشر، وبوش وبلير؟

ــ أتابع أخبارهم.

ــ هل تعتقد أنني تحاملت عليهم في الخطاب الأخير؟

ــ أبداً، الكتّاب في بلدانهم أطلقوا عليهم أوصافاً قاسية لا يحتملها الشيطان.

ــ يبدو الكتّاب في بلادهم يحبون القهوة مثلي.

ــ الإنكليز يفضلون الشاي.

ــ أمر غريب... وهل الإنكليز أصلهم هندي؟

ــ أبداً.

ــ وسمحوا للكتّاب بأن يظلوا أحياء بعد أن اتهموهم بأوصاف لا يحتملها الشيطان؟

ــ طبعاً.

ــ ليتنا نتعلم منهم كيف يكون شرب القهوة والشاي.

ــ بدأت تشعر بالحزن.

ــ هل قرأت التقارير؟

ــ قرأتها.

ــ فيها هنود حمر يتعرضون للإبادة وهم يشربون الشاي. وفيها كلام عن ملك، عن ملك العالم، هل قلت هذا الكلام في خطاباتك في أحد الأيام؟

ــ أحياناً أحتمل الحياة دون قهوة، وأحياناً أحتملها دون طعام، ولكنني أعجز عن احتمال الجوع عدة أيام... فتضطرب الرؤية في عيني وتتقاطع الشرايين الحمراء بالصفراء... عند ذلك أحس بنفسي ملكاً من شدة الجوع... هذا ما خطر ببالي في أحد الأوقات فذهبت إلى بائع الدجاج المشوي، لأرى الدجاجات وهي تدور وقد اخترقها السفّود فأصبحت حمراء مثل الهنود الحمر، وبسبب الجوع الشديد تقدمت إلى واجهة الدكان، ونظرت إلى الأعلى، وانتبهت للكتابة، وقرأت (ملك الدجاج المشوي) وقلت لنفسي: يا للمصادفة الجميلة، سنتفاهم معاً، ملكاً لملك، ودخلت إلى صاحب المحل وقلت له: يا جلالة الملك، أريد نصفاً، قال: تفضل، قلت: ولكنني لا أملك ثمن نصف الدجاجة. قال: تفضل وأشار إلى خارج الدكان، قلت أعطني ربعاً، فخذاً، رأساً، قال بعصبية لا أفهمها، قلت: لك تفضل، فقلت له: يا أخ، يا ملك الفروج أريد جناحاً، أريد ريشاً، لأصنع منه تاجاً، أنت ملك الفروج، وأنا ملك العالم، وصعدت إلى إحدى طاولات المحل، وبدأت أصرخ مطالباً بذيل أو جناح أو بكومة ريش حتى أصبح ملكاً حقيقياً، وعندما لم أتمكن من الحصول على حصة كافية من الهواء لأطير عند ذلك شعرت بأن الفراريج الحمر قد دخلت في الخجل العميق وبدأت ترف بأجنحتها حولي ثم طارت. لذلك وبمعدة فارغة ليس فيها سوى فنجان قهوة بارد، يستطيع الناس جميعاً أن يكونوا ملوكاً

وقادة ورؤساء وهنوداً حمر. هكذا التمعت في رأسي الأفكار مثل تاج من الريش، فوقعت من شدة الزهو على الأرض، وكان ضرورياً في تلك اللحظة أن أشعر بألم الجوع العظيم، الجوع الملوكي الهائل حتى أنسى ألم ارتطام رأسي بالأرض. رأس ملوكي وأرض، وبقليل من الريش كان بوسعي أن أتكوم تحت الطاولة، مثل دجاجة مذبوحة، وبمعدة فارغة إلا من فنجان قهوة بارد، وبثلاثة أيام من الأسئلة والجوع، ألا يحق للواحد أن يضل الطريق؟ في آخر خطاب ألقيته أمام الكراسي الفارغة، تمنيت أن أكون كرسياً لأمشي على أربع. وأقف على أربع، هل شاهدت ملكاً يقف طوال مدة حكمه دون أن يكون إلى جواره أو تحته كرسي أو عرش؟ العرش قبل الرجل، والعرش هو من فصيلة الأربع، رجل للعدل، ورجل للطامعين، ورجل للمعرفة، ورجل للجائعين. أربعة أرجل، رجل مقابل رجل، لكن الملوك والرؤساء تركوا هذه الأمور للكراسي، لذلك أحب الناس المقاهي وعاشوا فيها، في آخر خطاب لي تحدثت فيه إلى الكراسي الفارغة، وأرجلها الحكيمة العادلة، قلت فيه: لقد خانتنا الكراسي، وباعة الفروج، ولم تعد للعروش أرجل، ورجلاي تعبتا من الوقوف والكلام الطويل.

لماذا عندما ذهب السيوفي إلى البيت استعاد بذاكرته العجيبة تفاصيل الكلام وكأنه مدوّن على أسطوانة؟ لقد أوقعه الرجل (المتهم) في الحيرة، فهو كائن من نوع خاص، ليس لديه ما يملكه، لذلك لا يمكنه أن يخسر شيئاً، ورغم علاقات الكلام المفككة، إلا أن الروح الداخلية للكلام مجدولة بتضافر غريب، محير وجذاب، لذلك أجّل بَتَّ في الأمر، بعد أن عقد مقارنات هائلة بين الأحلام التي أصابته، وكلام الرجل، بين شفته العريضة المستغربة وقهوة الرجل الباردة، وقد وجد مناسباً أن يحكي الحالة بتفاصيلها الجارحة

لابنته الشابة وعد، وزوجته الشابة انتصار، وقد أدهشه عندما دخل عميقاً في وصف الحالة، سلطة المشاعر التي اجتاحت ملامح الاثنتين، الابنة والزوجة.

عند نهاية الحديث نهضت الزوجة وذهبت، كأنها ذهبت إلى نفسها لتبكي بعيداً عنه. أما الابنة، فقد ظلت صامتة، واستمرت على هذه الحالة أكثر من اللازم. وعندما سألها عن جواب، ليخرج نفسه من الانفعال الذي وجد نفسه فيه، عندما سألها، نظرت في وجه والدها باندهاش غريب، وقالت:

ــ أتمنى أن يكون هذا المتهم أبي، ثم ذهبت إلى غرفتها وأغلقت الباب بقوة.

وظل السيوفي وحيداً وبعيداً مثل كرسي وحيد معلق في البرد والهواء.

حين نهض في اليوم الثاني وذهب إلى عمله، وقد اتخذ قراراً على مسؤوليته بإخلاء سبيل المتهم، وفي توصيفه لحالة الرجل، كتب حالة من العصاب وجنون العظمة، والحالة من اختصاص الطب النفسي، وهي حالة غير خطرة أمنياً. وليس لها علاقة بأشكال المعارضة السياسية في أيامنا، وقد رسم في خاتمة التقرير، اسمه وتوقيعه، وقد أحس وهو يضع توقيعه، كأنما يصف كائناً يشبهه.

وها هو في استرخائه الطويل يتذكر التفاصيل، ويعيد ربط الأمور ببعضها، وها هي حالته تستجيب لحالات متهميه، فتزجه مخيلته في أحلام لا طاقة له بها، أحلام تتموضع على مقدمة أنفه، مثل خيط من الدم شاسع وطويل.

كان السيوفي يعتقد ـ وهذا بعض من الشطط الذي تورِّطه به مخيلته ـ أن شفته العليا الواسعةُ هي المكان الوحيد الذي يمكن أن تتحقق فيه الديموقراطية، لذلك كان يداعم شفته تلك بآلة الحلاقة حتى يمنع الشعر الأسود الكثيف من اجتياحها، لتظل في وضعية الانتظار، فالشعر الأسود الكثيف يدخل وجهه كله في الكآبة والعتمة، فتغيب التماعة عينيه ويتحول بتفاصيله إلى كائن وعر، لذلك كان يجزها جزاً من محيط الأنف، إلى خليج الفم، تاركاً للاحتمالات المتباينة أن تغزو وجهه وتقاطيعه، وكان يضع نفسه وجسده وعموده الفقري في وضعية الانتظار والترقب، وكانت شفته تنظر إليه، وتتهدل بعيداً عنه.

في العيادة

* كانت الأرض واسعة والعيادة فارغة.

أيام طويلة مرت، لم يقتحم فيها باب العيادة مخلوق، والدكتور عمر الذهبي المختص بالعلاج النفسي، يحدق في الهواء والأشياء ويتساءل:

هل يمكن أن تطير العيادة؟

فالمريض شيء ضروري للعيادات والأطباء واللعنات، ضروري حين يقف باضطراب، وضروري حين يستلقي على المقعد ليدلي بتاريخه وأمراض روحه وأيامه في حضرة الطبيب.

عندها يحس الطبيب بالأهمية، وضرورة الكلام، وفداحة الفراغ وغياب المرضى، وأن العيادة بعيدة ومتطرفة، والمرض ممكن وقريب، لذلك لم يكن بوسع هذا الكائن الوحيد المسمى طبيباً، سوى أن

يعالج نفسه، محاولاً مداهمتها وتحليل وحدتها وخوفها وكأنها كائن مريض.

وقد قرر أن يقوم بتمثيل دورين دفعة واحدة، دور الطبيب مرة ودور المريض مرة أخرى.

ليحس بالحركة ويحس بالاكتمال.

وقد قرر كخطوة أولى، أن يقعد في مكانين محددين بصورة متناوبة. مكان يقوم به فيه بطرح الأسئلة كطبيب، ومكان يستلقي فيه، ويجيب عن الأسئلة كمريض، وذلك في محاولة منه ليملأ الفراغ والزمان، حتى لا ينجحا في الإجهاز عليه.

فالاختصاص الذي يحمله، مثل الحيوانات والنباتات العريقة، إذا لم يقم بممارسته وتعريضه للحركة والهواء، يذبل ويموت.

لذلك مدّد جسده على طاولة الكشف وأمره بالاسترخاء مثل شيء مريض ثم انسلّ من جسده ووقف قريباً ومتأملاً مثل طبيب، وبدأ يستمع إلى جهاز تسجيل مجاور يصدر موسيقى هادئة أحياناً، وصاخبة أحياناً أخرى، موسيقا ركّبها بنفسه لتتحقق فيها محاولات وانتقالات تترك أثراً بليغاً في النفس المسترخية لتعين الطبيب على المتابعة وتأمل التحولات.

ثم أخذ يدخن، وبدأ يحاول أن يدفع مخيلته لتنطلق على سجاياها لتبدأ معه اللعبة الطريفة الدامية.

غير أن نفسه ومخيلته التي راهن طويلاً على استفزازها ودفعها للمكاشفة لم تستجب له، وظلت صامتة في حضرته مثل عمود،

لذلك نهض إلى جهاز التسجيل بعصبية وأوقفه بضغطة عنيفة من إصبعه، ووقف يتأمل ما حوله.

بعد ذلك انتقل فجأة إلى خزانة المكتبة وفتح درجاً سفلياً وأخرج شريط تسجيل فارغاً، وانتزع شريط الموسيقى ووضع الشريط الفارغ عوضاً عنه وركب الجهاز على وضعية التسجيل وقعد على كرسيه قرب الجهاز، وقد انتابته رغبة مفاجئة للقيام بتسجيل يومياته مثلما يفعل القادة والمفكرون العظام عندما يكونون أمام هزيمة ماحقة أو انتصار وشيك.

فما دام قد عجز عن استثارة نفسه ككائن مريض، فليحاول أن يحرض عناصرها وذكرياتها ككيان عظيم، كيان مملوء بالتحولات والأحداث والأيام. وما دامت العيادة الفارغة تنهك روحه وتنغصه فليقم بمواجهة الشريط الفارغ وتحديه ليمتلئ بحضوره وحركته وتقلباته.

بالآخرين الذين يعبرون روحه ويربكونها... فربما تمكن من الوصول إلى شيء يعينه على الخروج من وحدته وخوفه، فالكائن الوحيد، مركز انفعال العالم، وبؤرة توتره، ولأنه لا يقدر أن يقبض على شيء، فهو الأقدر على امتلاك كل شيء.

وحتى لا يخسر مساحات من الشريط تمر في الجهاز دون أن تلتقط لهاثه أو كلامه، فقد بدأ بالكلام متردداً ومستعجلاً وكان الشريط يدور.

ــ يوم الثلاثاء الفائت، أعطيت محاضرة على مدرج جامعة حلب عن المدرسة السلوكية. المدرج كان يغص بالطلاب والطالبات. في

الواقع لم يكن المدرج يغص تماماً. كان في القسم الأعلى من المدرج عدد ضئيل من الطالبات المحجبات... لذلك لم يكن يغص.

وقد أحس الطبيب بجفاف في حلقه وكاد أن ينهض لإحضار كأس ماء، لكنه لم يفعل وتابع الكلام.

ـ كان الطلاب الحاضرون يشغلون نصف المدرج تقريباً، ورغم ذلك أحسست بأن شيئاً ما يغص. بعض الطلاب المتأخرين يدخلون مستعجلين وينسون إغلاق باب المدرّج، وكنت أنزعج كثيراً من هذا الأمر. في الواقع لم أكن أنزعج كثيراً، لكنني كنت، وبصورة لا أفهمها، أذهب إلى الباب وأغلقه بيدي وأعود إلى طاولة الأستاذ لأتابع إعطاء المحاضرة، وقد فعلت ذلك عدة مرات، إلى الحد الذي تجرأ فيه أحد الطلاب وطلب مني أن أكمل إعطاء المحاضرة وأنا قرب الباب، فانزعجت منه كثيراً.

ـ أنا في الواقع لم أنزعج منه كثيراً، ورغم ذلك تابعت إعطاء المحاضرة وأنا قرب الباب.

(بعد ذكره لكلمة باب، انتابه عجز عن المتابعة، فحمل الكرسي ووضعه أمام باب غرفته في العيادة حفاظاً على السرية وخوفاً من أن يقوم أحدهم باقتحام الباب. خلال ذلك عبرت أمتار من الشريط الفارغ في الجهاز لم تتخللها سوى أصوات زحزحة الكرسي وحمله ووضع جسده عليه، ثم تابع الحديث مع جهاز التسجيل ليتمم ما جرى معه على المدرجات).

ـ بعد أن تابعت المحاضرة وأنا قرب باب المدرج، تابعت التحديق بها، الطالبة التي شغلتني كثيراً منذ بداية العام... إنها في الواقع،

أقصد في هذه المرة شغلتني كثيراً، نعم وأكثر مما أحتمل، وربما أكثر مما يحتمل الباب.

طوال العام وهي تنظر إليّ، فكيف لا أنشغل بها وأنا شاب أعزب وأشبه بطلاً خرج لتوه من روايات تشيخوف الذي اطلعت عليه وأنا أتابع الدراسة في موطنه موسكو، حين كان مواطنوه ينظرون إليه بارتياب وتبجيل، وهم يؤسسون نظريات جديدة، وقد كانت الفتاة التي شغلتني تقعد في مكان محدد على المدرج طوال العام، وكانت بالإضافة إلى نظراتها سمينة.

هي في الواقع ليست شديدة السمنة، إنها تميل إلى السمنة من جهة الجدار، وفي ملامحها أبواب كثيرة، ووجهها حلو، وتقاطيعه جميلة وعيناها خضراوان، لكنني عندما أكون قرب الباب لا أحس بخضرتهما كما ينبغي، رغم أن الباب ينتمي للأشجار، ورغم ذلك شغلتني كثيراً، وإلا فما هو المبرر لأن أراها في الحلم عدة مرات؟ نعم يجب أن أعترف، لقد رأيتها في الحلم، في مكان لا أبواب فيه ولا جدران، مياه وأشجار وعصافير، مكان فرح وجميل لكأنه الجنة، وكنت وحيداً أول الأمر، الواقع لم أكن وحيداً بما فيه الكفاية، كنت خائفاً، ولم أكن أرتدي ثيابي المعتادة، أقصد اللباس الذي أرتديه في الجامعة.

كنت في الحلم مثل رجال العصور الحجرية، لا ألبسة رسمية ولا أبواب ولا عيادات، وكنت خائفاً، وكان لخوفي مبررات، فعندما يكون الكائن في الجنة، وعارياً وحوله كمية لا بأس بها من العصور الحجرية فلا بد وقتها من وجود ديناصور، لكن من يدري؟ ربما كان الديناصور موجوداً ويقدر على أن يرانا ولا نقدر على أن نراه. المهم أنني بعد مدة من التجول في الجنة التقيت بها. أقصد

التقيت بها وأنا في الحلم، هي نفسها الطالبة السمينة التي تحدثت عنها سابقاً وكانت مثلي، أقصد مثل أهل العصور الحجرية، ولم تكن تحمل كتباً، ولم تكن ترتدي ألبسة كافية.

وكنا جائعين، ولم أكن أقدر على تحديد هل كنت من طرفي جائعاً للجهات العارية من جسدها، أم كنت جائعاً للطعام.

ثم تجولنا قليلاً وأخذنا نأكل الأعشاب والحشائش الطرية والفواكه الموجودة في الجنة، ثم تجرأت الفتاة وطلبت مني أن أحضر بعض المعلبات، وقد أجبتها مستغرباً: معلبات في الجنة؟! فقالت لي:

ـ حاول أن تبحث، فما دامت الديناصورات موجودة، فلا بد من وجود المعلبات.

ورغم أنني في الحلم، غير أنني كنت مستغرباً، لكن الفتاة صرخت في وجهي صوتاً أدهشني، ثم أوضحت لي أن الاستغراب والدهشة أشياء تحصل على مدرجات الجامعة ولا يحق لها أن تحصل في الجنة، ثم طلبت مني أن أتابع البحث عن المعلبات لأنها شديدة الجوع، وحاولت أن ترسم لي ملامح الطريق الذي يؤدي للديناصورات.

ـ لو أنك بحثت قليلاً لوجدت خلف الأشجار والأنهار والأوراق والثمار والعصافير والمدرجات سوبر ماركت لبيع المعلبات، إذ من المستغرب أن تكون الجنة أقل تطوراً من الأرض ومدرجات الجامعة، وعندما ستصل إلى السوبر ماركت سيقدم لك الديناصور صاحب السوبر ماركت كل ما تطلب بذَنَبٍ طويل ونفس رضية.

بعدما سمعت كلام الفتاة بدأت ألوم نفسي.. لقد تعلمت على

مقاعد الدرس أن الديناصورات كائنات لطيفة منقرضة، وأنها قد اندثرت لأسباب تتعلق بعدم القدرة على التكيف وفهم المتغيرات.

ولأنني أمتلك طاقة محدودة على التكيف، فقد شعرت بأنني مهدد بالانقراض وسوء الفهم، ولن يتمكن هيكلي العظمي من الصمود لمفاجآت الباب ومداهمات الأيام القادمة.

غير أنني بدأت ألوم نفسي. نعم بدأت ألومها وأنا في الحلم، لأنها قصّرت، أعني لأنني قصّرت في إحضار المعلبات للفتاة التي أحبها، لذلك تطورت الأمور تطوراً غريباً، فبعد أن أكلنا من الحشائش والفواكه المتوافرة، وشبعت من طرفي والفتاة لم تشبع من طرفها عند ذلك بدأت المشاكل في الحلم، ثم تطورت بسرعة شديدة كما يحصل في الأحلام، حتى وصلت إلى حد الاشتباك بالأيدي وشد الشعر، وقد حصل ذلك بسبب الوحدة الشديدة والجوع، الجوع للسلام والسكينة من طرفي، والجوع للطعام والمعلبات من الفتاة الوحيدة وأطرافها المختلفة. ولأن الفتاة سمينة، لذلك كانت المعركة لصالحها، أقصد لم تكن لصالحها تماماً... لقد استطاعت مناخات الحرية المتاحة في الحلم أن تحولني إلى بطل من أبطال الكاراتيه، هذه اللعبة التي لم أجرؤ ولم يجرؤ عمودي الفقري على ارتكابها، غير أنني كنت أشاهد بعض الأفلام عنها وأنتبه لبعض حركات أبطالها وبطلاتها، وقد تمكنت رغم ذلك من حسم المعركة، واستطعت بحركاتي الضئيلة أن أحقق المعجزات. فالفتاة كانت شديدة الثقة بنفسها، ولم تكن تتوقع مني أن أفعلها وأهاجم، ولم أكن من طرفي أتوقع ذلك أيضاً، غير أنني في غياب الأبواب والجدران أصبح أكثر جرأة، وتنصاع إليّ جملتي العصبية وأطرافي فأقدر على تحريكهما بالصورة الأكمل. لذلك حسمت

المعركة لصالحي وربما لصالح الفتاة التي كانت ترغب أن تقع على الأرض لتكون في وضعية الاستسلام لجسدي وذراعيّ، المهم أن الفتاة وقعت، وأحسست باستسلامها لي، لذلك نهضت عنها معتزاً برجولتي وحركاتي وبالشهادات الثقيلة التي أحملها وهربت دون أن أحقق للفتاة المستلقية على أرض الحلم بغيتها.

ولم يكن الموقف الذي وقفته يدعو للاعتزاز، فلقد ظلت الفتاة في مكانها مستلقية وقد فتحت فمها وساقيها وبدأت بالتنهد والبكاء... لذلك لم أقدر على متابعة الهرب، فعدت إليها.. نعم عدت، وعندما وصلت إلى الفتاة وتأملت أوضاعها وأصوات بكائها، لم أقدر على التجاوب، وتسمرت وقد أغلقت الدهشة مفارقي وسجاياي. عند ذلك نهضت الفتاة غاضبة، وألقت بورقة التوت في وجهي وذهبت لتبحث عن ألبستها ويقظتها، وظلت تركض حتى تلامحت في الأفق ارتعاشات ساقيها.

وبعد ذلك انتبهت إلى ورقة التوت التي ألقتها في وجهي فحملتها وتأملتها، ويا لغرابة ما رأيت! كانت ورقة التوت ورقة نقدية عالية القيمة، وعند ذلك أحسست بأني تسرعت. لم يكن ضرورياً أن أدخل في معركة ضدها... فما دامت قد أحضرت معها ثمن المعلبات فلماذا التسرع؟ ولماذا الغضب؟ كان من الضروري أن أتحلى برصانة علمية وأقوم بالبحث والاستكشاف، فربما كان في الجوار موقع لسوبر ماركت حديث وديناصورات، وما دامت تتلامح في الآفاق وفي الطرف القصي لمفاتن الفتاة الهاربة مدرجات الجامعة، وأصداء لانصفاقات الأبواب، فلا بد من وجود أشياء مرصوصة ومعبأة تغري ببقاء الديناصورات.

ثم انتابتني رغبة جارفة للبحث عن الشجرة، شجرة المعرفة التي

قطفت الفتاة منها ورقتها ثم بللتها بمواجدها، وألقتها في وجهي، وبعد مدة من البحث التبست في ذهني الأمور، هل كنت أود البحث عن شجرة المعرفة..؟ أم عن شجرة النقود؟ وكيف تجرؤ الأشجار على التحول والانتقال؟ وهل تتحول المدرجات مثل هذا التحول؟ وأين تقف تلك المسماة شجرة النقود؟ وأين تقبع غابات الخطيئة، حيث لم تقدر الديناصورات على الصبر والتلاؤم؟

فجأة توقفت آلة التسجيل عن المتابعة دون أن تحفظ الجملة الأخيرة، وانتهى الوجه الآخر للشريط، غير أن الحلم لم ينتهِ، وكانت العورات النبيلة للفتاة تتلامح وتبرق في الحلم رغم الأبواب والجدران.

بعد ذلك نهض الطبيب وحمل الكرسي وأبعده عن الباب المغلق وأعاده إلى موضعه، وضغط على زر المسجلة ليعيد دوران الشريط حتى أوله. ثم قعد في هيئة الفلاسفة والمبشرين وعمداء الكليات، وفي رأسه تتراكض العوالم والديناصورات والعيادات، والفتيات الوحيدات، وعندما أصغى طويلاً، وأصغى عميقاً، أحس بالاكتمال رغم الأزيز المتناوب الذي تصدره الآلة والشريط، وهما في وضعية التراجع والدوران.

كان وضعه في الحلم ممتازاً، وقد لفت انتباهه منطقية تصرفه وأحكامه وحركاته داخل الحلم، ورغم أوضاعه الفاضحة لم يكن يحس بالعري البليغ، غير أنه وقد أنجز الحلم، ظلت في ذاكرته صورة الفتاة شريكته في الحلم، وهي مستلقيه ومندهشة والدموع تملأ روحها والدهشة تملأ ساقيها وهو يكيل لها الشتائم والضربات.

وقد أحس بأنه بالغ بالاعتداد بذكورته، وهو يستخدم خبرته في الكاراتيه، لكنه من جانب آخر لم يحاول. نعم لم يحاول

الاعتراف بجوعه ووحشته، رغم أن جسد وعد السيوفي كان مستجيباً وحاراً ويكاد أن يختنق من وطأة الجوع والتنهدات، ورغم ذلك لم يكن الحق معها عندما احتضنتني بساقيها وذراعيها، تابع الدكتور الذهبي الكلام كأنما يخاطب رجلاً سواه.

ـ لقد شعرت لحظتها بأن الفتاة كانت تعتبرني نوعاً من المعلبات. لذلك فعلت ما فعلت حتى لا تبلغ الفتاة وطرها وتتخلص من جوعها الذي لا تقدر على التخلص منه إلا في الأحلام.

* بعد ذلك شعرت بميل جارف نحو الأبواب والديناصورات، فنهضت إلى الثلاجة وفتحتها... فانتشر الضوء وتذكرت حين تأملت فراغ البراد أنني نسيت شراء المعلبات، وأني بسبب أحلامي العنيفة أكاد أقع من الجوع والاحتقان.

الأم الأولى

*** في مكتبه الخاص، في منزله.**

قعد عبد العزيز السيوفي وأمواج من غيوم الأيام السالفة تعبر روحه ومخيلته، وكان الجرح الذي تربع على مقدمة أنفه يغري بالتلفت والحكة، فلو لم يكن السيجار الذي يدخنه طويلاً وغليظاً لكان ملأ منفضة السجائر باللعنات.

كان الحنين إلى زوجته السابقة عفراء الحبال يشغل طرفاً «قصياً» وطويلاً من عمره، لماذا خطر بباله أن يصارحها؟

بعد عمر طويل قضاه معها، كان يعرف أنها تحب محمد المغربي ابن الحارة، ولكن محمد المغربي قتل، وضاعت روحه وسيرته، وظلت أم السيوفي حميدة الهلالي وعيناها الحادتان تخترقان رجولة ولدها ومنصبه مثل سيف من نار.

لماذا خطر بباله في أحد الأيام أن يصارح زوجته بأنه هو من قتل محمد المغربي صديق روحه وطفولته وتقلباته وصباه، ورغم أن أمه قد تكتمت على السر. غير أن نظراتها إليه لم تكن متكتمة.

كان يحس بأن أمه قد أصابتها التحولات بعد أن تسلم منصبه الكبير، وهي رغم صمتها تطلق نحوه كلاماً لا طاقة لمنصبه وأيامه به، وكان يحس بأن محمد المغربي الذي قتله خطأً، هو ولدها الحقيقي وأنه هو الذي كان ابنها لم يعد كذلك، ومن يومها بدأت شفته العليا بالتطاول والاسترخاء وأحلامه الغريبة بالتمرد والعواء.

لقد طلب من أمه مرات كثيرة أن تترك بيتها القديم وشجرة توتها البيضاء وكوخ مؤونتها في طرف الدار وتسكن معه في المنزل الجديد، غير أنها رفضت وظلت متكومة داخل جلدها وأعوامها ونظراتها الجارحة، كأنما ترفض أن تغفر له، لذلك حاول أن يسارر زوجته ليعرف موقعه لديها، فأخبرها عن الكيفية التي قتل فيها محمد المغربي، وحدثها عن المسدس، وكيف أنه لم يكن يعرف استعماله، وبينما كان يتدرب على تفكيكه وتركيبه انطلقت طلقة من جهته إلى جهة المغربي فأردته، ولم يكن له يد ولا إصبع في الأمر، بل كان القدر بسطوته وأصابعه هو من يحرك الزناد ليجره إلى جهة الدم وفقدان الأصدقاء.

ثم بكى أمام تجاعيد أمه وهو يتذكر المغربي ولهاثه ولغته الممطوطة وحفرة الدم النبيلة في صدره، ويتذكر صفرته وذبول عينيه، والوعد الذي قطعه أمامه بأن يحضر نهد عفراء الجبال إلى أصابعه رغم موته، ولكنه لم يقدر على الوفاء، ويتذكر أمه التي احتضنت جسد المغربي بعد أن عرته كأنما تحتضن رجلاً غائباً أودت به الأيام.

وحكى لها كيف حملا الجثة معاً، أمه حملت صديقه المغربي من ركبتيه، وهو حمل الجسد من ذراعيه، ولكنه عجز عن المتابعة، فوقع على الأرض، ووحدها الأم تابعت أمومتها وهي تجر الجثة في غبش الصباح مثل عربة مملوءة باللهاث.

وعندما صارح زوجته قال لها:

ــ أعرف بأنك تحبين المغربي وأعرف بأنني أحبه، غير أنني لم أعد أحتمل بعد الذي أصاب الأرض والناس، لم أعد أحتمل المزيد من الكتمان.

وفي اليوم الثاني حملت الزوجة بعض متاعها وذهبت إلى بيتها القديم، ثم ذهبت إلى بيت أم السيوفي، وقعدت أمام عينيها الجارحتين، وطلبت منها أن تحكي لها حكاية المغربي في ساعاته الأخيرة قبل أن يموت.

ــ لماذا لم تخبريني يا خالة؟ لماذا تكتمت على الأمر وأنت تعرفين روحي وموقع محمد المغربي مني؟

ــ لم يكن يقصد، كان يحب المغربي مثل روحه، لكنني في القتل لا أغفر لأحد.

* عندما قُتل محمد المغربي، كان بين يدي في هيئة طفل أنجبته من نفسي، وكانت صفرته أقرب إلى أمومتي وأيامي. وكان الثقب في صدره يسع الحارة والناس. عندما سمعت صوت المسدس ركضت إلى الدم، وكان قد تسرب إلى الشجرة ولم أعد بعدها أقدر على النظر إلى ثمر التوت الأبيض. وعندما دخل ولدي في الوظيفة وأحضر مسدسه الثاني إلى البيت، ما عدت أقدر على أن أراه،

فعندما تصاب الحارة بالدم يفسد الحليب، وتضيق الأمهات بالأولاد، وتضيق الزوجات بالأزواج ولا تقدر الأدعية ولا الحجب ولا التعاويذ على إدراك الطريق الموصل إلى الحياة.

كانت الأيام أياماً، وكانت الواحدة من بنات الحارة تستطيع أن تحب شابين في وقت واحد، تنام مع واحد، وتحلم بواحد، وعندما تنجب ولداً أو ابنة تحس بأنها قد أنجبت حارة جديدة، لذلك تمعن في محبة وليدها حتى لا تقدر على مشاهدة شيء سواه، وكنت أقول:

«ينبغي على ابني وزوجته أن يقدرا على التعايش والإنجاب».

لكن ابني عبد العزيز، وعندما أحضر مسدسه الثاني، ما عدت أقدر أن أراه.

ــ لماذا لم يحاول أن يصارحني بما جرى؟

ــ لأنه يخاف أن ترفضي الزواج منه، ثم ماذا تنفع المصارحة بعد الذي جرى؟

ــ المصارحة تنفع. لقد حاولت أول ما حاولت معه وتزوجته أن أنتزع صورة محمد المغربي من رأسي لأكون له وحده، وقد نجحت. وها هي الأيام والسنوات قد تكيد لي وتباعد بيني وبين حلمي. وعندما صار من حقي أن أستحضر صورة المغربي لم أعد أقدر على ذلك.

ــ أنت محتاجة لأن تستحضري نفسك، فحاولي، وإذا لم يكن يتعبك أن تكوني معي، فالغرفة التي قتل فيها محمد المغربي لا

تزال على حالها، وغرفة المؤونة التي حاول ولدي أن يعتدي فيها عليك، لا تزال على حالها فاذهبي وتذكري.

ــ ولكن ابنك لم يحاول أن يعتدي عليّ، أراد أن يسمع صوتي وأنا أغني، ثم امتد بيده إلى نهدي، وقبض عليه كما يقبض المريد على ضوء لامع في مخيلة السماء.

ــ إذن تستطيعين إحضار ثيابك والحياة معي.

ــ عندما تنقطع ذكرياتي في بيت أمي، سأجمع ثيابي وأحضر إلى ذكرياتك لأستلهم منك العون. إن أكبر خوفي أنني لن أستطيع مشاهدة ابنتي بعد أن تركت ابنك، وهو رجل ذو سلطة ونفوذ ويقدر على المستحيل.

ــ ما دمت قد اخترت أن تكوني وحدك، فليس بوسع أحد أن يمنع الوحدة عنك. وأما ابنتك فالأيام أقوى من الآباء والحكومات، ولا بد من يوم تصير فيه ابنتك لك، ويصير الرجل إلى التردي والخراب. هكذا كنت وهذا ما سيكون عليه كل الرجال.

كان عبد العزيز السيوفي يعرف أن المنصب الذي خَذَلَهُ في امتلاك زوجته قادر على إعادتها إذا تحكم في مصير ابنته ومنعها عن أمها، لذلك كبرت وعد السيوفي في ظلال والدها ووحدته العاتية. وعندما لم تنفع كل الوسائل في استعادة الأم، قرر أن يتزوج، وقد تزوج من انتصار، زوجته الشابة، بعد أن شاهدها تتردد على زيارة أخيها وكان واحداً من الموقوفين، وقد استخدم نفوذه في أكثر من مرة، وأحضر الموقوف إلى غرفته لتلتقي أخته به، وكان يترك لهما الغرفة ليتبادلا الحديث والزفرات، وبعد ذلك حدثته نفسه بأن

يذهب إلى بيتها ويطلبها للزواج، فاستغرب الأب الطلب، وصمت، ثم حاول وصمت. ثم تجرأ على الكلام، وسأل السيوفي إن كان رفضه لهذا الزواج يعرضه للاعتقال، فنفى السيوفي الأمر تماماً وهو يزدرد المرارة ويتصنع الابتسام. ثم خرج وهو يلعن الأشياء التي تنعكس عليها ظلاله في الطريق، غير أن المفاجأة التي أعادته إلى نفسه كانت في قدوم انتصار أخت الموقوف إلى مكتبه ثانية وإبلاغها له على الموافقة من الزواج منه، وأن والدها قد تسرع في اتخاذ القرار، وهو الآن بعد أن تمت دراسة الأمر من كل جوانبه قد وصل إلى الرضا والبهجة العارمة، وطلبت من السيوفي أن يقوم بزيارة ثانية ليعدّ العدة للزواج.

ـ أليس للخوف دور في تغير المواقف؟

ـ قد يكون للخوف دور في تغير موقف أبي، أما من طرفي، فأنا راغبة في التحدي.

ـ إن كان الأمر على هذه الصورة، فأنا أقبل التحدي، وغداً سأقوم بالزيارة.

بعد أسبوع تم الزواج، ودخلت انتصار إلى عش الزوجية، وتقبلت الوضع القائم، وحاولت أن تصنع حواراً مع ابنة زوجها التي كانت في عمرها، فوجدتها شيئاً غريباً، ويقدر الإنسان على التعايش مع غرابته والانتباه إليه.

وقد عاش السيوفي مع زوجته الجديدة أياماً فرحة، غير أن جثة المغربي وأيام زوجته السابقة، كانا يقتحمان عليه خلواته ويحولان بينه وبين اختراق الجسد الشفيف لزوجته الجديدة، والوصول إلى

شغافه، لذلك تجرأت انتصار على سؤاله عن أسباب ارتخاء شفته العليا واتساعها، وقد أربكه السؤال، غير أنه وجد الفرصة للالتفاف على السؤال، فأجاب:

ـ بسبب الدهشة والاستغراب.

ـ أنا مثلك أعيش في حالة دهشة مستمرة واستغراب، دون أن تتأثر شفتاي بذلك.

ـ هذا من حقك، لأنك لم تقرئي النُفّري ومواقفه، وابن عربي وفتوحاته.

ـ وماذا يقولان؟

تساءلت انتصار لتحول بين زوجها والهرب من الجواب.

ـ يهمك أن تعرفي؟

ـ إذا لم تكن تمانع.

ـ يقول النفري[١]: عندما تضيق الروح.. تتسع الشفة العليا وتتهدل: لذلك تصبح أسئلة الزوجات والأمهات والحكومات صعبة وعاتية كما يؤكد ابن عربي في موضع آخر فيه انقطاع عن الوجود وعلته.

ـ وهل هما موقوفان عندك في الحجز؟ أقصد النفري وابن عربي.

ـ لو أنهما من رجال هذا الزمان... لكانا...!

كانت الرغبة التي امتلكت انتصار ودفعتها للقبول بالزواج من

---

(١) الكلام محاولة لتحريف كلام النفّري لضرورات روائية.

السيوفي تتمثل في تحديه وتنغيص عيشه وأيامه، ولكنها، وقد وجدته على هذه الحالة، وفي هذه الصورة من الأسى والتمزق، فقد تحولت إلى محبته والإشفاق عليه، غير أن السرير عندما يتدخل في الأمر، ويُخرج الجسد من معتقداته وألبسته تتحول المعضلة وتسوى بطريقة غريبة وغير لائقة، وقد أدرك السيوفي المعضلة، وقرر بإصرار أن لا يتفوض في مواجهتها، فبينه وبين كل زوجة من زوجتيه وقعت ضحية. وعندما تكون الضحية بالغة البراءة والنبل، تصبح بعد الموت أو الوقوع في الأسر بالغة النفوذ والقوة، بحيث تشاطر خصمها الدم والشهقات.

* زوجته الأولى كان المغربي فيها هو الضحية، وزوجته الثانية كان الأخ نزيل السجن الضحية الثانية، لذلك يرتدي اللقاء مع جسد الأنثى حالة مبهمة من التكفير والاجتياح، حالة من النزف والارتعاش التي تدفع الواحد لأن يقبض على ذروته ولذته وهو يقبض على موت الآخر الضحية وشهقاته الأخيرة، لذلك يصبح جسد الأنثى ملاذه وهاويته، وليت الأمر يظل على هذه الصورة من التعايش الغريب بين الضحية والجلاد.

ها هي الابنة تعيش تحولات من نوع آخر كأنما هو نوع مستمر من القصاص الذي يدفع ثمنه الأبناء.

* في صباح اليوم التالي ينهض السيوفي في غير هيئته، ينهض منتصباً وحائراً وتتقلص شفته العليا كأنما لم تكن له، ويذهب إلى عمله كما تذهب الفأس إلى شجرة تعاندها، ورغم ذلك كانت تحولات ابنته تقلقه.

فبعد أن ذهبت ابنته إلى أمها، وأسرت لها عن الذي يصيبها من أفكار

وتحولات، حكت لها أمها الكلام، وأخبرتها بقصة مقتل محمد المغربي وأعادت على مسامعها بعضاً من كلام الجدة، وشظايا عينيها، ثم أنهت حديثها بالجملة الفادحة التي استخدمتها الجدة.

ـ أما أنا ففي القتل لا أغفر لأحد.

* كان من عادة السيوفي أن يسارر ابنته بأخبار الموقوفين في مديريته، وكانت الابنة عميقة الإصغاء، عميقة التلون، فالقصص التي يسردها عن نزلاء معتقله شديدة الإيحاء، شديدة التأثير، وأبطالها شبان يقلقون الروح ويتوغلون في المخيلة، وكانت الابنة تسأل والدها عن أعمارهم وملامحهم، وعندما تنفرد بنفسها تحاول أن تشكل من التفاصيل والملامح التي حكاها والدها كائناً من حُلُمٍ ودم، وكانت ترهق نفسها ومخيلتها في استجراره إلى الحلم ومطارحته والتداخل فيه حتى تكفر عن وحدتها وأخطاء والدها، وينتابها إحساس لحظة الوصول، أن بعضاً من أفعالها وحفاوتها قد وصل إلى زنزانة الموقوف شريكها في الحلم، فانفعل معها وأصابته شظاياها وحرارة مواجدها، وقد جعلت من هذه الحالة لعبة دائمة تشغلها، لذلك كانت تلح على الأب أن يحكي وتلح عليه أن يدخل في التفاصيل، وعندما تنفرد بنفسها تدفع مخيلتها لتستحضر جسد الموقوف لتمنح ما شاء لها المنح. فتنفعل وتستجيب.

آخر الموقوفين الذي حدثها والدها عنه، بدا لها في هيئة زلزال، وعندما حدثها عن أسباب اعتقاله، تحسست جسدها ومعصميها، وعندما حدثها عن ملامحه وجدت تطابقاً كبيراً بين هيئته وهيئة الدكتور عمر الذهبي، مدرِّسها في الجامعة، وعندما أوصلت مخيلتها إلى هذا التطابق وجدت من السهولة أن تستحضره في الحلم لتنتزع الأبواب والقضبان من هيئته وتقوم معه بالأفعال.

ولكنها دخلت مرة ثانية في المعضلة، فها هي تشاهد أستاذها في الحلم بوصفه واحداً من الموقوفين عند والدها، وعندما ينجدها الحلم بالشروط الملائمة وتجد جسدها في أقصى التجاوب والانفعال وحين تقترب من الوصول إلى ذروتها، تنصفق الأبواب وينقطع الحلم وتنقطع اللهفة والارتهان وتستيقظ فلا تجد حولها سوى العتمة والأغطية، لتنهض بعد ذلك حزينة وكسيرة لا شيء يضاهي وحدتها وجفاف حدقتيها. وعندما تنهض إلى زر النور لتملأ الغرفة بالضوء تحس بأن النور قد استلب منها حلمها ومخيلتها وحاجاتها وأقرب الناس إلى قلبها، وألقاهم في هاوية من ضياء.

وعندما تطفئ النور وتعود إلى السرير، تجد أن حلمها لم يعد في متناول أسرارها وسرّتها ونهديها. وعندما تحاول، تخونها القدرة وتجد نفسها عاجزة عن استكمال حلمها واستعادته ولم يعد في متناولها سوى الهاوية وزر النور، والجوع العظيم.

لذلك تذهب إلى المطبخ لتملأ جوعها بالمعلبات وهي تركض شبه عارية بين باب الثلاجة وأغطية السرير والصور الهاربة لبقايا حلمها الأثير.

وفي اليوم التالي تذهب إلى المدرجات لمشاهدة الأستاذ والإصغاء إلى محاضراته في علم النفس التربوي، وعندما تنتبه طويلاً وعميقاً تنتابها رغبة مدوية في الضحك العميق، الضحك الذي يوازي مدرجاً عميقاً لا قعر له ولا نهاية وليس له أساتذة ولا جدران... وحين تغادر المدرجات عائدة إلى بيت والدها، ترجوه أن يعيد لها قصته مع المعتقل الأخير، لتستكمل أدوات حلمها وتقوم بإجراء التطابق ومن ثم تعد العدة لليلتها الثانية، ليعود لها الحلم مرة ثانية، كما فعل والدها ذات مرة حين دهمته الجرذان في بيت المؤونة العجيب.

وقد أحست وعد السيوفي بأنّ الشاب الذي يدهمها في الحلم أكثر حرية منها، وأنه يتصل ويصل، لذلك وصلت بعد هذا التأويل إلى مفترق صعب، وباتت تحس بأن هذا النوع من الاتصال قد يثمر جنيناً، هكذا أحست، وهكذا أحبت، ثم بدأت تشعر بالانتفاخ، الانتفاخ الذي يشي بالأمومة والحنان، وحين حاولت أن تلامس جدار بطنها بكفها وأصابعها، شعرت بهيئة هذا الشيء الذي يتكوم فيها، لذلك وجدت نفسها في الطريق إلى أمها وجدتها لتسألها عن ملامح محمد المغربي الذي أرداه رصاص المحبين. لتقارنها مع ملامح الفتى الذي ينسل من غفوتها.

* فعندما يحب شابان فتاة واحدة، ويقتل أحدهما الآخر قبل أن يستكمل حلمه، فلا بد أن تتساءل الابنة عن ملامح الضحية لتدخلها في ملامح الجنين الذي يؤرقها... لذلك ذهبت وسألت، ولذلك وقعت في التشتت والانتفاخ.

فلقد نشأت وعد السيوفي مثل فتاة متحررة، وكان حولها أكوام من الشباب الجائعين، غير أن هؤلاء الشبان لا يجرؤون على الاقتراب منها ومصارحتها لأنهم ــ وهذا أمر تحسه في تحولاتهم وترددهم ــ يعرفون أخبار والدها وسطوته، والسطوة مع الحب تربك الطرف الضعيف وتغير في تركيب المعادلة، لذلك لم يكن الشبان المنتبهون إلى فتوتها وجمالها يقدرون على شيء سوى التخوف والحذر منها، وهي لا تريد واحداً خائفاً وحذراً، لذلك تردد في نفسها:

ــ من الذي يجرؤ على التعلق بزنزانة؟ آه يا والدي، ليتك كنت أقل نفوذاً لأصير في نظر الآخرين أكثر أنوثة.

ثم تمتد بكفها إلى صدرها وسرّتها لتتفقد مواطن الحنين، ومثلما كان الأب يصارح ابنته بأحوال معتقليه، كانت الابنة تصارح والدها بأحوال جسدها وأحلامها وانتفاخ بطنها... وكانت تتقصد ذلك حتى تفزعه وتنال من منصبه وملامحه.

لذلك حاول الأب أن لا ينصاع للمعضلة، وقرر أن يذهب إلى طبيب متخصص ليصارحه في أمر ابنته، وانتفاخ بطنها المزعوم وأحلامها الجائرة.

عندما دخل عبد العزيز السيوفي إلى العيادة وجدها خاوية، وعندما لمحه الطبيب المختص قفز من جهته ليحتمي بالطاولة، رغم أنه لم يسبق له أن عرف طبيعة الرجل ونوع وظيفته وعناصر نفوذه ومحنته، غير أنه عندما حدق في شفته العليا، شعر بأن عصراً زاهياً من الديناصورات يقترب إليه، لذلك رحب بالرجل القادم برهبة وعدم استقامة.

كان السيوفي، وبسبب اعتياده على مهنته، يفهم دوافع مثل هذا الترحيب، لذلك تفرس في وجه الطبيب، ومهنته فتذكر فيه بعضاً من ملامح معتقليه، ورغم ذلك تجرأ وقال وهو يقف قرب الطاولة ويتأمل أشياءها:

ــ لأول مرة أجد فيها نفسي مضطراً لمراجعة طبيب له مثل اختصاصكم.

وقد أحس الطبيب بأن البداية التي جاءت من طرف الرجل المريض مشجعة، لذلك رغب أن يقول مقدمته التي يقولها لكل مريض والتي حفظها عن ظهر قلب.

ــ لا تشغل بالك، مراجعة الطبيب المختص بقضايا علم النفس والتحليل النفسي ليست بالصعوبة التي يظنها الكثيرون، فنحن كما تعرف مثل الفنانين والأدباء، نتعامل بالكلمة والإشارة، وأحياناً نضطر إلى التعامل بالضوء واللون، وليست عندنا سكاكين ولا مشارط، ولا إبر كما عند الأطباء العاديين، لذلك لا نخيف أحداً.

ــ هذا أمر أعرفه قبل قدومي إليك، وأنا لا أخاف على نفسي منك.

ــ مهما يكن، يجب أن تكون لديك مخاوف من نوع ما وسنتعاون معاً لإزالتها، قال الطبيب.

بعد برهة من الصمت والتأمل.

قعد السيوفي على الكرسي المجاور للطاولة وطلب من الطبيب أن يجلس ويسترخي حتى يتمكنا معاً من فهم المسألة، وقد استغرب الطبيب عمر الذهبي أن يطلب منه المريض القعود والاسترخاء وفكر... إنه يعاملني كمريض، ورغم ذلك قعد الطبيب وانتبه.

ــ إنني في الواقع لا أعيش أية مخاوف ولا مشكلات.

قال السيوفي بعد أن أشعل سيجاره الطويل ودسه تحت شفته العريضة.

قال الطبيب الذهبي في نفسه:

ــ ما دام الرجل لا يعيش أية مخاوف ولا مشكلات ويدخن بهدوء ودراية فلماذا أتى إلى العيادة؟

ورغم ذلك حاول الطبيب أن يخرج نفسه من دهشته ويقول ممازحاً:

ــ لا تبالغ... لا بد من وجود بعض المشكلات.

فانتفض السيوفي.. ثم تراجع واعتدل:

ــ بعض المشكلات، ممكن.. من منا لا توجد في حياته بعض المشكلات، أنت مثلاً كإنسان وطبيب لا بد وأنك تعيش بعض المشكلات إن لم تكن اجتماعية فهي مشكلات ذات طبيعة مهنية، فنحن، أردنا أو لم نرد، نعيش في مجتمع حذر. أنت مثلاً، ألم تتعرض للتوقيف في أحد الأيام؟

ــ أنا.. أبداً... ما الذي دفعك إلى مثل هذا السؤال؟

فأجابه السيوفي:

ــ لا تشغل بالك، الأمر لا يهم كثيراً... وبما أننا أبناء مجتمع شديد الارتياب كما اتفقنا، فالطب النفساني عندنا غير محترم، وهو لا يحظى بالاهتمام المطلوب... رغم أن قسماً كبيراً منا يعاني من الحصر والهستيريا، واسترخاء العضلات والشفاه، وربما وُجدت أمراض أخرى لا يعرفها الشيطان، أمراض أكثر إضراراً وتعقيداً مما يعتقد الآخرون، لذلك يخشى الناس في بلادنا مراجعة العيادة النفسية خوفاً من الفضائح، فالمراجعات التي لها هذا الطابع تدفع الناس لاتهام المترددين على العيادات النفسية بالجنون، وأنا شخصياً لا أرغب أن أتهم بذلك. قد تخطر ببالك أشياء كثيرة، كأن تقول بأنني مريض نموذجي، أو كائن عاقل ومفكر، ومثل هذه الصفات لا أحبها، وقد تصيبك الحيرة مما أقول لتسألني. وهل يمكن للتفكير

أن يكون تهمة؟ عندها أضطر لأن أقول لك إن التفكير عندنا نعتبره تهمة. نعم أؤكد لك ذلك، وبسبب ذلك قد تصاب حضرتكم بالانفعال، فتقفز من مكانك لتسألني ومن تكونون حضرتكم؟ وما هو المكان الذي يوجد عندكم حتى يصبح فيه التفكير تهمة، قد تخطر ببالك مثل هذه الأسئلة، عند ذلك أضطر لأن أعرفكم عن شخصي ومكانتي.

ــ ومن تكونون؟ أقصد هل يمكن أن تتفضلوا بتعريفي على حضرتكم (سأل الطبيب).

ــ بكل سرور، فأنتم تطلبون شيئاً مشروعاً. فنحن، أقصد الجهاز الذي أعمل فيه، مهتمون كثيراً بالطب النفساني.

ــ مهتمون؟ وهل تعملون حضرتكم طبيباً نفسياً؟

ــ لا تتسرع. قلت لك نحن مهتمون، ولم أقل نحن مختصون، وليس في نيتنا أن نفتتح عيادات لمعالجة الأمراض النفسية، لمزاحمتكم وقطع أرزاقكم، رغم أننا نحس بأننا نقف في الطرف الآخر لاختصاصكم، فأنتم مثلاً تهتمون بالأمراض النفسية للأفراد وهذا من حقكم، ونحن من جهة أخرى، وبحكم الوظيفة والاختصاص مهتمون بالأمراض النفسية للجماعات، أعني المجتمع برمته، هذا إذا ظلت للمجتمع رمةْ. ولكي أقرب المسألة من اختصاصك، يهمني أن أقول إننا مهتمون بالرأي العام للجماعات، وهذا الأمر لا يعني أن لا نضطر إلى التعامل مع بعض العينات من الأفراد لنسبر من خلالهم مجاهل الرأي العام لبقية الكائنات.

ــ مهمة نبيلة.

ـــ لا تقاطعني. هذا أمر نعرفه، وأنا لا اطلب منك اعتذاراً، إن مهمتنا تتطلب منا أن ندرس الرأي العام، طبيعته، أفكاره، وميول أفراده، وهل الناس في مجتمعنا إيجابيون، وعندما يكون ذلك نحس بالراحة، وعندما لا يكون، نشعر بالسلبية والانزعاج الشديد، ونضطر لأن نتحرك، بعد أن نضع خططاً وبرامج لإزالة الانزعاج وإبادته. أما كيف نزيل الانزعاج فتلك هي المشكلة، ولا بد أن شخصاً مثلك وفي موقعك كطبيب يفهمنا. إننا ولكي نزيل الانزعاج، نضطر لأن نلجأ لطرق يعتبرها بعضهم غير مشروعة، ونعتبرها نحن مشروعة، مما يؤدي للفهم الخاطئ والالتباس، وعندما يكون ذلك، تتعالى القضبان ولا يمكن أن يحدد أحد موضعه إن كان خلف القضبان أم أمامها. لذلك نعاني، ولذلك أجد نفسي مضطراً لأن أضعك في الصورة حتى لا أقع في المزيد من الارتباك، ولأنكم من أصحاب الاختصاص، فأنتم تقدرون على الكشف عن الطرف الآخر عندما تتضح لكم الأبعاد، وعندما تتمكن من ذلك وتشعرني بعمق فهمك واستجابتك، أستطيع أن أقول لك بأنك تتلمس مشكلتي وتتفهمها، وبأنك بعد مدة من العلاج سترتاح معي كثيراً.

ـــ أخشى أن يخيب ظنك.

ـــ لا تحدثني عن الخيبات، ألم أقل لك إن أحوالنا صعبة، فعندما تضطر جهة مسؤولة لإصدار قرار أو قانون تظهر المشكلة وينقسم المجتمع برمته إلى قسمين، أو طرفين، طرف مرتاح، وطرف منزعج، ونحن ندرك طبيعة الأمور والأشياء، لذلك نتابع الأمر دون أن ننزعج كثيراً. قد يخطر ببالك أن تسألني... لماذا لا تستبقون الأمور لتنزعجوا بقوة... حتى يتوقف المنزعجون عن انزعاجهم ويتحول الجميع إلى أطراف مرتاحة ومتعاونة؟!... أقول لك إننا

محبون لبعض الحرية... لذلك لا ننزعج عندما يكون طابع انزعاج الجماهير منا ومن سلطاننا فردياً، غير أننا ننزعج كثيراً عندما تنزعج فئة من الناس بصورة جماعية منظمة. عند ذلك ننهض في هيئة رجل واحد، ونتأهب وننطلق لنبحث عن المنزعجين ونحضرهم إلينا، أقصد إلى مكان عملنا، وعندما يصلون إلينا نستقبلهم بصورة رضية مؤثرة، حتى لا ينزفوا كثيراً من الدماء، فإن توقفوا عن الانزعاج نوقف حوارنا معهم، ثم نضعهم تحت الاختبار بعد أن نعدهم بإطلاق سراحهم. أما إذا استمروا في الانزعاج، فلا بد أن ندخل معهم في المرحلة الثانية ويأخذ حوارنا معهم شكلاً آخر بعد أن نكون قد جهزنا قسم العناية المركزة حتى لا نتهم بالسادية والانفعال.

بعد هذا الحوار من طرف السيوفي والإصغاء من طرف الطبيب، قفز الطبيب إلى جهة الباب ليتأكد من خلو الشارع من سيارات الإطفاء، وعندما خانته قبضته ولم يستجب له الباب عاد إلى السيوفي خائباً وسأله:

ــ ومتى سيصل انزعاج حضرتكم مني إلى المرحلة الثانية.

رد السيوفي بود:

ــ لا تبالغ يا رجل.. فأنت لم تزل بعد في خانة الأصدقاء، وأنا لم أزل في مراحل المصارحة الأولى، ولكنكم بسبب انفعالكم وقفزكم بهذه الصورة غير المبررة تغلقون في وجوهنا الأبواب، وهذا في غير مصلحتكم، فأنتم دون دراية أو قصد تسيطرون على الحوار وتدفعونه في الاتجاه الذي تريدون، لينسى أمثالنا موضوعهم الأساس. فلا تشغل بالك فأنا ألمح في مخيلتك وروحك بوادر

اعتذار لأنك دفعتني إلى اتجاه لا أريد الإفصاح عنه ولا الخوض فيه. إنني عندما أدخل مكتبي الخاص وأتأمل سطح طاولتي الشاسعة، وعليها أكوام التقارير، أحس بالعظمة والملكوت، وتضغط عليّ مثانتي في كل الاتجاهات، وتظل تضغط حتى تتبلل التقارير بالعار، والروائح المريبة، بعد ذلك ينفجر الندم في وجهي وأبدأ بالصراخ المرير: أين أنت يا محمد المغربي؟ وأين أنت يا عفراء الحبال؟ وأظل أصرخ حتى تدهمني صورة أمي ونظراتها الرصاصية الحارقة، ثم تلقي بجملتها الهائلة في وجهي:

«أما في القتل، فأنا لا أغفر لأحد أبداً حتى لو كان محسوباً من الأبناء». لذلك لا تحاول الإنكار. لقد حاولت أن تدفعني عدة مرات في الاتجاهات الغامضة، لكي تفهم طبيعتي وخبايا عينيَّ. وإلا فما هو الداعي لأن أخوض في أحاديث تتعلق بضغط المثانة والأسرار، ولولا أنني تماسكت مستعيناً على ذلك بمنصبي لكانت الأسرار كلها في متناولك وبين يديك، ولكانت الحقائق الكبرى قد وصلتك وملأت الغرفة وتسربت إلى الجوار، لذلك وبعد هذا الدفع والتطاول من طرفك، لا يوجد أمامك سوى خيار واحد، التكفير عن ذنبك والاعتذار.

كان الدكتور عمر الذهبي في وضعية الإصغاء والتلوث، غير أن الخاتمة المدوية التي عبر عنها الرجل الطويل، أوقعته في الضآلة والاضطراب، لذلك أحس بالخيوط المتقاطعة الممتدة على بلاط أرض العيادة وقد تداخلت فيه وتقاطعت في شعاب رئتيه، فتحامل على مكوناته واختصاصه ووثيقة ملكيته للعيادة، وعندما وصل إلى طرف الطاولة تشبث به ليرتقي به إلى الأعالي ليستطيع الوقوف في وجه الرجل الطويل وقوف الند للند، وعندما نهض أو كاد،

تشكلت على أطراف فمه الاعتذارات وغابت اللعنات.

ــ إنني، (قال الطبيب الشاب)، إنني لا أنكر، لقد حاولت دفعكم للمصارحة بحكم وظيفتي، ولم أكن أتوقع هذا الحشد من النتائج والمرارات، لذلك أرجو منكم القيام بالمثل والقبض على كتفي السليم ودفعي في الاتجاهات التي تلهمكم إياها طبيعتكم ومهنتكم، حتى ولو أدى ذلك لأن أرتطم بالباب.

ــ كيف تطلب مني أن أدفعك، وغرفة عيادتكم صغيرة والنوافذ فيها عالية وضيقة، إنها محاولة من طرفكم للهروب أو الانتحار. إنني مستعد لأن أقوم بدفعك إذا توافر لديك الاستعداد للتوقيع على وثيقة تتنازل فيها عن عظامك وذكرياتك وما تحمله تجاهي من كراهية ولعنات.

ــ من أجل التكفير أنا مستعد للكثير من التنازلات، المهم أن تدفع.

ــ من أجل أن ترتاح سأدفعك دفعة خفيفة، حتى لا تشعر بالذنب من جهتي، ولا أشعر بالتطاول من جهتك، لذلك حاول أن تفتح الأبواب كلها وتذهب إلى آخر الممر لتتحسس الجدار. لماذا تصمت؟ كأنك تحاول أن تطلب مني إبقاء الأبواب على حالها، وهذا في غير صالحك، لقد خبرت الأبواب أكثر منك وخبرت الصرخات التي تشكل خطوطها ويباسها وصدأ أقفالها، فاطمئن لأنني لن أقوم بدفعك حتى ترتطم بآخر الأرض لتخرج بعدها من سطوتي وقبضتي، لقد حاولت أن تدفعني للاعتراف بخباياي وأسراري، وأنا من جهة قبضتي سأسامحك وأتغاضى عنك.

ــ لا تؤاخذني، (قال الطبيب الشاب)، لو أنك أحضرت معك

شخصاً آخر ليقوم بدفعي عوضاً عنك لكانت النتائج أكثر حذراً وأقلّ زرقة، فأنا أحس بالرضوض من جهتك رغم انك لم تقم بدفعي كما يتطلب الإنصاف.

ــ إنني لم أعد أحس بالاطمئنان معك، فمن يضمن لي أنك لن تنزعج مني بعد قليل وتعود للمطالبة بدفعي مرة ثانية.

ــ قلت لك إنني ما عدت أنزعج منك.

ــ هل يمكن أن توقّع لي إقراراً بذلك.

ــ أخشى أن أفقد أعصابي وأنا أوقع الإقرار فتضطر لأن تدفع خمس سنوات من عمرك لقاء توقيع ضئيل.

ــ ما دام الأمر على هذه الصورة، حاول أن تقترب من الطاولة دون أن تحس بأن أحداً ما يدفعك إلى جهتها، وعلى هذه الطاولة يمكنك أن تتمدد وتسترخي وتبدأ بعرض أشيائك التي تجهدك.

ــ الاقتراب والتمدد أشياء أقدر عليها، والاسترخاء مسألة لم أجربها بعد، ولم أعتد عليها منذ الطفولة وأيام الكُتَّاب، في بيتنا القديم عندما كانت أمي تزين لي القراءة والكتابة. لقد دفعتني الأثداء لكتابة التعاويذ منذ أن اقتربت بكفي من حلمة عفراء في غرفة المؤونة، بعدها انتقلت لكتابة القصص، ثم توجت ذلك كله بكتابة التقارير، وها أنا في موقع تهطل علي فيه التقارير وتظل تهطل حتى تتبلل روحي بالبلاغة والذكريات. ليت الشعر والقصص والروايات والسير والحكايات، ليتها كلها في بلاغة التقارير وهمساتها وخطوطها الملتفة على الأحداق والأوردة. لقد عاصرت كل أشكال الكتابة وأجناسها، ولم أجد أبلغ من كتابة

التقارير. وعاصرت كل أشكال القراءة، ولم أجد أعمق من قراءة التقارير. التقارير نصوص مؤلفة من الخطيئة والتأويل الغريب، تعجز عنها الأبواب والجدران واللفتات، وتخترق النخاع والدلالات، وعندما أطالعها تضغط عليَّ مثانتي. فللتقارير لذة هائلة تودي بي وتدفعني للتهيج والانتصاب، وها أنت تطلب مني أن أتمدد وأسترخي دون تجربة ودون ضمانات.

ـ حاول أن تنزع الجاكيت وربطة العنق لتكون أكثر أماناً، ولتحسَّ بأنك صرت بعيداً عن المؤسسات، لن أدهمك بالأسئلة كما يفعل المختصون عادة، وسأتركك لوحدتك، وسأترك جهاز التسجيل مفتوحاً إلى جهتك، ستسمع أول الأمر أصوات ضربات طبل حالم أو صرخات بوق طويل، وقد تسمع أصوات استغاثة، فلا تتعجل الأمر وحافظ على استرخائك وبداهتك، وعندما تفعل حاول أن ترجع إلى الوراء، إلى الوراء قليلاً.

ـ ولماذا أرجع إلى الوراء؟ ألا تخاف أن أقع؟

ـ قصدت أن ترجع بذاكرتك إلى الوراء. أحياناً تأخذني حالة المريض بعيداً، فأنسى بعض الكلمات بسبب الاندماج والتهاون. إنني أعتذر. أما إذا أردت أن تلجأ إلى القصاص، فأنا مستعد. المهم أن تكون مرتاحاً وأنت في حالة العودة إلى الوراء، لماذا نهضت؟ هل حدث مني ما أغضبكم؟

ـ أبداً. لكنني لم أجد مبرراً للتمدد على هذه الطاولة، وخاصة أن الموضوع الذي سأبحثه معك لا يخصني، لا من الوراء ولا من الأمام، لذلك خطرت ببالي فكرة، أحضر ذلك الكرسي من خلف الطاولة.

ــ ولماذا الكرسي؟

ــ ستعرف ذلك سريعاً، وبعد أن تحضر لي الكرسي لأتأكد من متانته، أحضر لي حبلاً، وبعد أن يصير الحبل في يدي ستعرف لماذا تصبح للكرسي والحبل ضرورة؟ لقد استطعت خلال عقدين من الزمان الطري أن أألَف طبيعتي ومهنتي، ولكن بصورة مفاجئة خرجت شفتي العليا عليّ، خرجت لوحدها دون ضرورة ودون تمهيد، خرجت عليّ كأنما هي قارة غريبة معلقة تحت انفي، فتصور هيئة الهواء عندما لا يكون متاحاً وحراً، وتصور كثافته عندما يمر على شفة متهدلة ومستغربة وعلى مسامها جذور مستعصية من الشعر القاتم المرير وتتعرض كل صباح للاجتياح والأسئلة وتعبرها الشفرات الحادة لتجز أحلامها جزّاً، ورغم ذلك أتناول الهواء الذي يخصني كما يتناول المريض دواء شديد المرارة، ولذلك أكور قبضتي وأنهال بها على المرآة التي تزين لي شخصاً قوياً يشبهني. إنني أطالبك بالحبل والكرسي ربما كضرورة وربما كمحاولة للتبرير أو لحماية كائن وحيد وضعيف في مثل نباهتك واختصاصك، وربما في مثل وحدتك وضياع أمرك. إنني وعندما فككت المسدس، تداعت أمامي الحارة والبيوت، وركض الناس إلى الضرورات، وعندما لم يجدوا حواجز تقيهم شرّعوا صدورهم وفككوا أزرارهم وتساقطوا في هيئة المواطنين والأتباع. أما الكَتَبَة منهم فقد أحضروا أوراقهم وأقلامهم وبدأوا بكتابة الوشايات بدل الوصايا ليوقعوا بأقرب الناس إليهم، وأرسلوا ذلك إلى الجهات المختصة، إلى الجهات المشغولة بتفكيك الأحلام والمسدسات، لذلك انطلقت الرصاصة وأصابت محمد المغربي، وتحول من اللغة الصريحة المعلنة إلى اللغة الممطوطة النازفة، فبعد أن يتبادر الهواء إلى ثقب آخر غير الحنجرة يضطرب العالم وتتقدم الصفرة

الصريحة الغامضة وتبدأ اللغة باللهاث كأنما قطعت مسافة من الوجد بين جدار الصوت وانبثاقات الدم، لذلك أحسست كأنني وحدي، كأن الصحراء بعض من غرابتي وأوحال قدمي، وبدأت أصرخ في خلوات لا أطيقها، ولكنني عندما أتلمس أطرافها أشعر بالجفاف يعاشر حلقي وأطراف أصابعي، فأنفخ في الجهات حتى تبدأ الزوابع بالصرير، فأنهض إلى شجرة التوت الأبيض لأسأل عن الأخ والصديق، فتعترض الأم مشيئة الابن لتلقي بأمومتها إلى الدم لتحمي الروح القدس من تقلبات الصداقة والزمان المرير.

ــ ليتك لامست روحي لحظة خرجت من روحه، لقد كنا كأننا في ثقب واحد ورصاصة واحدة، ورغم ذلك كان الدم يعبر إلى الجهات من طرف واحد من دهشتي وحتى تقلبات أمي عليّ، لذلك أطالبك بحبل وكرسي حتى أمنع طبيعتي وأصابعي من الخروج عليّ والانقضاض عليك.

ردّ الطبيب فزعاً:

ــ أنت في محنة حقيقية، وتتحدث بلغة تضلل أكبر السحرة والمشعوذين. فأنا رغم ضآلة سلطتي ونفسي وضخامة تخصصي أكاد لا أفهمك... نعم لا أفهمك.

ــ لكنك تقدر على إحضار حبل وكرسي، لتعينني على نفسك ونفسي.

ــ وما دخل نفسي؟

ــ عندما سيحضر الحبل ستعرف.

ــ ليس من الأمر بد.

ــ ليس من الحبل بد.

لذلك انطلق الطبيب ليبحث عن حبل، ولم تكن ذاكرته ملك يمينه ليستطيع أن يحدد موقع الحبل حتى يحضره، لذلك توقف في منتصف الممر وبدأ بالتذكر ربما على السقيفة، هناك في أحد الممرات، وعندما اضطر للبقاء على السقيفة ساعات طوال لمح حبلاً قرب خزان الماء، وكانت بقع من الزيت الملون على وجه الماء وكان خزان الماء مستلقياً وقربه كتب قديمة من أيام الكتّاب وكتب تتعلق بمناهج الجامعة، ألفها أساتذة المواد والأقسام المختلفة، وتنتهي أعمارها بعد نهاية الامتحان، كتب ذات كثافة وحجم وأوراق متقلبة، قرب الكتب حبل. نعم حبل. تذكر ذلك، وتذكر السبب الذي دفعه للصعود إلى السقيفة والبقاء فيها ساعات طوال وهو يصغي للهمسات والكلام غير المباح، تذكر ذلك كله وهو يحضر السلم، ويسنده إلى الجدار، وتذكر من زمان كيف أعطى صديقه مفتاح عيادته ليحضر صديقته إليها، يومها قرر أمراً. سيصعد إلى السقيفة ويتمدد عليها ليصغي إلى الكلام والشهقات، وقد قام بمحاولة تجريبية للتمدد مدة نصف ساعة، غير أن البرودة وصلابة الأرض تسللتا إلى قفصه الصدري ورئتيه، حتى كاد أن يلتصق بالخزان، لذلك نشر الكتب القديمة على الأرض فشكلت سطحاً عازلاً، ثم أحضر بطانية سميكة وغطى بها الكتب وتمدد عليها، وعندما تأكد له أن خزان الماء أصبح بعيداً عن رئتيه وعظامه قرر المتابعة، وذهب إلى صديقه وأعطاه المفتاح، وكانت الفتاة التي سيحضرها صديقه. واحدة من الفتيات اللواتي يعرفهن قبل ذهابه إلى موسكو للاختصاص، وقد أدهشه أنها ما زالت متعلقة بصديقه رغم أنها قد تزوجت من سواه وتزوج من سواها.

لذلك اندفع الطبيب عمر الذهبي إلى السقيفة لدراسة الظاهرة، والتعرف إلى أنماط اللغة التي سيتحدث بها كائنان عجيبان رفضا الاقتران ببعضهما عندما كانت الأيام ملكهما وها هما بعد أن أطاحتهما المسافات والأولاد، يعودان إلى بعضهما مثل مراهقين.

قبل أن يصل العاشقان إلى العيادة، كان الدكتور عمر الذهبي ممدداً على السقيفة، وقد وارب الباب، وكانت العتمة والماء والكتب وحديد الخزان وخربشات فأر صغير مذعور تؤنسه وتجاوره، وكانت أذنه قرب الباب.

عندما دخل الرجل والمرأة وأغلقا الباب أحس بحركة الصوت والهواء، وكانت الأبواب مفتوحة، وكانت طاولة الكشف هي المكان الوحيد المؤهل لوقوع المكاشفة ثم سمع حركة كرسي.

ـ المكان بارد... (قالت الفتاة).

ـ كان من الواجب عليه أن يشعل المدفأة، يبدو أن العيادة جديدة والمدفأة غير موجودة.

ـ يبدو أنه لم يحسب حساباً لمثل هذه الزيارة... (ردت الفتاة).

ـ سأتبرع له بثمن مدفأة على حسابي بعد أن سمح لنا باستخدام عيادته.

ـ لا أعرف... عندما أدخل مكاناً اسمه عيادة، أحس بالانفعال والمرض.

ـ الوقت لا يسمح لنا بالمرض.

ـــ لكنه يسمح بالانفعال.

ـــ حاولي أن.

ـــ لم أحضر من أجل هذا الأمر.

ـــ من أجل أي شيء حضرتِ؟

ـــ حضرت للكلام والمعاتبة، والصراخ.

ـــ وهل هذا وقت مناسب؟

ـــ هذا أفضل وقت لهما، أيها الخائن.

كان الكلام يتسلل من الغرفة إلى الممر وينهض إلى السقيفة ويتسرب من الشقوق والفتحات مبللاً بالانفعال والبرد. وكان عمر الذهبي ينصت ويتلوى.

ـــ سامحك الله، تريدين إغاظتي وتفوير دمي ورفع حرارتي حتى لا يؤثر البرد فيَّ، أعرفك، لا تفكرين إلا في مصلحتي.

وعلى السقيفة كان الدكتور عمر الذهبي يكتم برده وانفعالاته حتى لا تفضحه الوحدة والرغبة في الضحك.

ـــ قلت لك جئت لأتحدث ولم أحضر لشيء آخر (صرخت المرأة غاضبة).

ـــ وأنا حضرت للشيء الآخر ولم أحضر للحديث.

ـــ لأنك جبان ولا تقدر على الدفاع عن نفسك.

ـــ هذا صحيح، والآن ما قولك أن...؟

ــ أن ماذا؟

ــ أن تبدئي بإزالة الألبسة.

ــ أنا لن أزيل شيئاً، وإذا كنت ترغب فأزلها أنت.

ــ هذا كلام سليم.

ثم سمعت حركة، وتبعتها حركات.

ربما قال الدكتور عمر الذهبي في نفسه: قد يقبلان بعضهما.

ثم سمع صوتاً، الفتاة قالت:

ــ أحس بالجوع.

ــ الآن؟ (صاح الصديق مستنكراً).

ــ نعم الآن.

ــ ومن أين سأحضر الطعام؟

ــ لا بد من وجود شيء في الثلاجة، فصديقك يقضي معظم يومه في العيادة ولابد من وجود شيء يؤكل. ولا بد أنه قد أعد أشياء قبل حضورنا، فالأطباء النفسيون يتصرفون بلباقة وفهم. عندما كنا في الجامعة كان ينظر إليّ بجوع شديد، لذلك لا يمكن أن يتركني جائعة.

ــ ما دام الجوع قد وصل إلى أيام الدراسة، فلا بد من البحث عن طعام.

ثم سمع حركة أقدام ودخول إلى المطبخ وفتح لباب الثلاجة وتبع ذلك صوت.

ـ توجد معلبات وزجاجة بيرة، وخبز.

ـ أحضر كل شيء تقع عليه يدك.

ـ تعالي وتصرفي أنت. أنا لا أعرف في أمور ترتيب الطعام.

ـ أنتم متخصصون في الالتهام فقط.

ـ لو لم نكن كذلك لانشغلتم بأشياء أخرى سوانا.

ـ مثل ماذا؟

ـ لا أعرف، ربما انشغلتم بالديناصورات.

ثم تردد صوت ضحكة وحركة أقدام وأصوات فتح وإغلاق لباب الثلاجة. ثم حصل ارتباك، وانشغل الصديقان معاً بالبحث عن مفتاح لفتح المعلبات وزجاجة البيرة، غير أن حركتهما وزفراتهما كانت تدل على فشلهما في الحصول على أداة تعينهما على الوصول لأهدافهما، وعندما عجزا ضحكاً معاً وأعادا الأشياء إلى الثلاجة ورجعا إلى غرفة العيادة.

ـ عندي كلام كثير أرغب أن أقوله لك، وفي أوله أن توصي صديقك الطبيب بأن يشتري مفتاحاً للمعلبات.

ثم سمع صوت ضحكة وحركة ولهاث، وضباب عميق، وحركة من دواليب طاولة الكشف، ومحاولات، وصوت سقوط جسد على الأرض، وصوت أنين.

ـ لو أنك تربط جسدك على الطاولة بحبل، (قالت المرأة ضاحكة).

ــ طاولة الكشف ضيقة، ولا تعين الواحد على ارتكاب الحماقات، هي غير مصممة لمثل هذا الأمر.

قال الدكتور عمر الذهبي لنفسه من موقعه على السقيفة وهو يتابع الأصوات ويقبض بطرف يده على حبل مجاور.

بعد ذلك فكرا بالمتابعة، ثم وقع بصرهما على طاولة المكتب.

كان الدكتور عمر الذهبي يتابع من طرفه التفكير في الاحتمالات.

ــ لا بد من الاعتماد على الجدار.

كأنما ضاقت حولهما الأرض (قال الدكتور لنفسه من موقعه).

ثم بدأ ظهر الفتاة يرطم الجدار رطمات متناوبة وصلت أصداؤها إلى السقيفة وكان الدكتور عمر الذهبي ممدداً على الكتب كأنما يقوم بمجاسدتها. الكتب الكتب. يا لها من لذة.

وانكب برأسه على خيبته فارتطم بطرف الخزان فصدرت ضربة خفيفة وتحركت دوائر الماء. وتكسرت بقع الزيت الطافية وتطاولت وتطامنت ثم استعادت هيئتها، حتى التصق جسد الفتاة ورأسها بالجدار وما عاد بمقدوره الحركة.

فيما كان الدكتور عمر الذهبي على السقيفة يتابع تموج الماء في الخزان، كانت المرأة تسدل ألبستها، ثم التفتت إلى الرجل بعينين مبللتين، وقالت:

ــ دائماً تشبعون وحدكم ونجوع وحدنا.

رد الرجل ممازحاً:

ـ في المرة القادمة سأحضر معي مفتاح المعلبات حتى لا تظلي جائعة.

ثم استعدا للخروج معاً، وعندما وصلا إلى الباب رجع الرجل بصورة مباغتة إلى الممر كأنما خطر بباله خاطر عاصف، وذهب إلى المطبخ وأحضر سلماً ووضعه تحت باب السقيفة وصعد مسرعاً، وعندما وصل إلى الباب شده فلم ينفتح رغم مرونته، وعندما أحس بصحة توقعه شد الباب ثانية إلى جهته فانفتح، فامتد برأسه فرأى صديقه الدكتور عمر الذهبي فنظر في وجهه وابتسم.

في تلك اللحظة تمنى الدكتور أن يعلق رأس صديقه بالحبل الذي يجاوره، ويجره إليه ليحكي له حكايته مع الكتب، وبعدها سيحاول أن يلقي به في ماء الخزان ليطفو مثل بقعة زيت هائلة.

عندما نزل الصديق سألته صديقته:

ـ لماذا صعدت إلى السقيفة؟

ـ خطرت ببالي فكرة سخيفة.

ـ وما هي؟

ـ أردت أن أبحث عن مفتاح المعلبات.

ـ مفتاح المعلبات على السقيفة؟

ـ مفتاح المعلبات على السقيفة.

ـ تصوري.

ــ وهل وجدته؟

ــ لم أجد سوى بعض الكتب وخزان الماء.

بعد ذلك خرج الصديقان، ودوى خلفهما ارتطام الباب.

كان الدكتور عمر الذهبي في وضعية الصعود إلى السلم وهو يتذكر الحدث والتفاصيل، وعندما وصلت به الذاكرة إلى مفتاح المعلبات، اهتز جسده بضحكة داوية كادت أن توقعه أرضاً، ولو لم يمتد بكفه إلى جدار الخزان ويقبض على الحبل لكان ممداً على الأرض.

... فبعد أن نزل الدكتور عمر الذهبي وفي يمينه الحبل توقف أمام السلم، هل يعود إلى العيادة حيث ينتظره رجل الأقدار، أم يتسرب من نافذة المطبخ إلى شرفة بيت الجيران، وهل يمكن الجيران في مثل هذه الحالة أن يكونوا أكثر تفهماً من رجل الأمن القاعد في غرفة الكشف وهو يعد العدة لربطه حتى يشعر من جهته بالأمان.

عندما دخل الدكتور عمر الذهبي إلى غرفة الكشف كان الرجل الطويل متأهباً.

ــ كنت تضحك؟

ــ خطرت ببالي وأنا أقبض على الحبل حادثة وقعت لي بالماضي.

ــ ما أكثر ما نحتاج للضحك في مثل هذه الأيام. أعطني الحبل.

ــ تفضل.

ــ اقعد على الكرسي.

ــ أنا؟!

ــ نعم أنت.

ــ ولماذا؟

ــ لا تستعجل الأمور. سأشرح لك في ما بعد.

بعد أن قعد الدكتور، قام عبد العزيز السيوفي بربطه إلى الكرسي بتهيب وإتقان وهو يتابع انفعالات الطبيب بيد ويتابع باليد الأخرى إحكام شد الحبل، ثم قام بالتأكد من متانة الربط وهز الكرسي إلى جهته مرة وإلى جهة الجدار مرة أخرى، والطبيب غارق بالدهشة والانضباط، تحيط به الغرابة والحبال.

ــ حاول أن لا تفقد صوابك، ما زلنا في أول الطريق. أنت الآن في وضع أفضل، ألا تلاحظ ذلك؟ فالرجل المربوط بحبل أكثر تماسكاً من رجل مطلق السراح.

كان وجه السيوفي مملوءاً بالحزن والانفعالات، وقد شعر الطبيب بمحنة الرجل فقرر الانصياع له.

ــ يبدو أن وضعك صعب.

قال الطبيب مخاطباً الكائن الطويل الواقف.

ــ إنني في وضع لا يسمح لي بأن أكون متهماً.

ــ ولكن لا أحد اتهمك.

ــ حاول أن تتذكر.. لقد طلبت مني أن أتمدد على الطاولة.

ــ هذا إجراء روتيني للقيام بالفحص.

ــ وتعاملت معي كمريض.

ــ لقد حدثت مشكلة، ومن واجبي أن أساعدك في حلها.

ــ لا يوجد واجب على الأرض يدفع واحداً مثلي ليكون مريضاً. المريض إنسان ضعيف، والإنسان الضعيف يضع نفسه أمام الآخرين موضع المتهم، وأنا لا أجرؤ حسب موضعي ومهنتي على أن أكون ضعيفاً ولا متهماً. حاول أن تقدر ظروفي، المتهمون يعانون معاناة فظيعة. اسألني لقد خبرت كل ذلك. الآخرون متهمون أمامي دائماً، وقد اعتدت هذه الحالة، ولم أعد أستطيع الخروج منها، وها أنت تتجاوز الحد وتريد أن تحقق معي. ثم بدأت تطلب أشياء صعبة، إياك أن تنكر، لقد طلبت مني أن أرجع بذاكرتي إلى البعيد. لقد كنت قاسياً علي قسوة لا يحتملها الشيطان، العودة إلى الطفولة تؤلمني. لقد كنت في طفولتي وحيداً وضعيفاً أمام عيني أمي. وكان الآخرون يكرهونني إلى الحد الذي خطر فيه ببالي أن أختبئ في غرفة المؤونة لأتحالف مع الجرذان.

ــ العودة للطفولة شيء قاسٍ.. لذلك خطرت ببالي هذه الفكرة، أقصد فكرة الحبل والكرسي، حتى أحميك وأحمي نفسي، وإنني بصراحة أشعر بالود نحوك، وأشعر بالحاجة لأن أكون ضعيفاً أمامك، لأبوح لك بكل ما ينغص روحي. غير أنني لا أقدر على أن أكون ضعيفاً أمامك إلا بشرط واحد، وهو أن تكون أنت أضعف مني، والحبل والكرسي يساعدانني على تحقيق ذلك.

ــ نسيت شيئاً آخر من شأنه أن يساعدك أكثر.

ــ وما هو؟!! (تساءل الرجل).

رد الطبيب:

ــ إنه العصا. الحبل والكرسي والعصا ثلاثي مقدس. يمسك

الضرورات ويلوي أعناق المحظورات لتكون مباحة.

ــ ها أنت تسخر مني. العصا لا تنفعني في مثل هذه الحالة، لأنها تشعرني بالقوة، والشعور بالقوة يعذبني. قد لا تصدق ما أقول.

ــ إنني مضطر لتصديقك، فحاول أن تكون صادقاً لأحتملك، لأنني بدأت أحس بالخدر في كفي من ضغط الحبل.

ــ حاول أن تتماسك وتصغي. كل المتهمين الذين تحضرهم إلى مقر عملنا، ويضطرون بسبب التسلسل والاختصاص إلى الوقوف بين يدي، كل المتهمين، ينتابني شعور عميق بالازدراء والكراهية نحوهم أول الأمر، ولكنني بعد استكمال مراحل التحقيق الأولى والثانية، وأحياناً الثالثة، يتحول شعوري نحوهم بشكل مفاجئ، فأتوقف عن كراهيتهم وأبدأ بالتعاطف معهم، ثم أتحول إلى محبتهم، ثم لا أستطيع مصارحتهم بهذا الحب. فتصور هذا النوع من العذاب، أن تحب إنساناً وتعجز عن مصارحته، تلك هي اللعنة، أرجو أنك بدأت تفهم ضرورات عملنا.

ــ أنت تتحدث معي كأنني واحد من العاملين في سلككم.

ــ طبعاً.. إن أهم ما يميزكم أنتم المشتغلين بالطب النفسي أنكم أقدر من سواكم على التعايش مع أزمات مرضاكم إلى الدرجة التي تدفعكم للمعاناة والتلوي نيابة عنهم. إنني أكاد أحس بأنك تتلوى نيابة عني. أنتم مثلنا تقعون فريسة إخلاصكم المهني وتدفعون الثمن من مشاعركم، لذلك تعيشون محنة حقيقية، غير أننا من طرفنا نذهب بعيداً مع هذه المحنة، فبعد أن نتحول إلى

محبة المتهمين الذين يقعون في قبضتنا، تتبدى مصيبتنا بصورتها الفادحة لنقع بعدها في الحب من طرف واحد، دون أن نجرؤ على البوح ومصارحة من نحب. وإذا حصلت الكارثة وتجرأنا على مصارحة الموقوفين بمحبتنا لهم تتبدى في عيونهم السخريات وتتدفق قلوبهم بالقسوة والصلابة، فيتوقفون بعدها عن الخوف منّا واحترام اختصاصاتنا.

ــ لذلك تتعذب.

ــ وتتعذب ابنتي معي.

ــ ابنتكم تتعذب معكم؟

ــ طبعاً...

ــ وهل تشارك ابنتكم في التحقيق مع الموقوفين؟!

ــ ابنتي تشاركني في محبة الموقوفين والتعاطف معهم، والذهاب بأحلامها ووحدتها إلى درجة الاستسلام لنزواتهم.

ــ أمر غريب؟!! يبدو أن ابنتكم تتمتع بمخيلة نشطة.

ــ وأنا أتمتع بأسلوب جميل في السرد والتشويق، لقد كنت كاتب قصة، ثم تحولت إلى التقارير كما أسلفت وقلت لك.

ــ هل يمكن أن تحرروا لي يدي حتى أفهمكم أكثر؟

ــ كنت أفكر في أن أحررها لك دون أن تطلب، لكنني لا أفهم كيف يمكن أن تحب ابنتي الرجل الموقوف دون أن تراه.

ــ وهل أحبت أحداً؟

ــ أحد الموقوفين، كنت معجباً به وحدثتها طويلاً عنه، لكن ابنتي ذهبت بعيداً.

ــ هل تسمح لي بالذهاب بعيداً بعد أن تقوم بتحرير يدي الثانية؟

ــ أنت تتجاوز حدودك.

ــ إنني أرغب صادقاً أن أفهمك أكثر، فأنت تستطيع بعد أن تقوم بتحرير يدي الثانية أن تتحدث معي بغموض شديد، وأستطيع رغم ذلك أن أفهمك، وأساعدك على الخلاص من ورطتك.

ــ كانت المسكينة تعيش حالة مفزعة.

ــ ابنتك؟!

ــ طبعاً ابنتي.. يبدو أنك لم تستفد من تحرير يدك الثانية استفادة كافية.

ــ معك حق. لقد فرحت بتحريرهما. لذلك انشغلت عن ابنتك.

ــ في الليالي كانت تصرخ فزعة، فأركض إليها لأجدها في حالة صعبة.

ــ من؟!

ــ ابنتي. ماذا أصابك؟ يبدو لي كأن الحرية تضرُّبك إضراراً بالغاً فتتوقف عن الفهم والتجاوب. إياك أن تقول لي إنك ما زلت فرحاً بالحرية التي حصلت عليها.

ــ إنني الآن فرح بحريتك أنت. لقد تحولت مثل كفي إلى العفوية والمصارحة، ودخلت دخولاً مجيداً في الموضوع.

ــ أي موضوع؟!

ــ موضوع ابنتك. تابع، أنا معك، أخبرني عن حالتها بعد أن سمعت صراخها، وركضت إلى محنتها وفزعها.

ــ عندما وصلت إليها، احتضنتها ومسحت وجهها بالماء لأزيل الدموع التي ملأت روحها، وطلبت منها أن تصارحني بالحقيقة قائلاً: حدثيني يا بنتي عن الكوابيس المفزعة التي ترينها في الحلم، حدثيني عما يزعجك، فأنا أستطيع معاقبة الجن والشياطين إذا تجرأوا عليكِ. بعد ذلك تلتفت إليّ وتنظر في وجهي نظرات غامضة وتقول:

إنني لا أرى الكوابيس. إنني أشاهد أحلاماً جميلة، وهي أجمل الأحلام على الأرض.

* بعد ذلك فهمت. كانت ابنتي تخاف على أحلامها مني، لذلك لا تصارحني. تصور، ابنتي الوحيدة تفعل ذلك معي، فما دامت أحلامهما على هذه الدرجة من الجمال، لماذا تصرخ صراخاً فزعاً؟ هل تفعل ذلك لتضللني؟ والأَمَرُّ من ذلك أن الحالة تكررت معها دون أن أتمكن من مساعدتها، ثم خطر ببالي خاطر ربما كانت تعيش حباً من طرف واحد، لذلك حاولت أن أترصد حركاتها في الذهاب والإياب من البيت إلى الجامعة ومن الجامعة إلى الجحيم.

ــ ابنتك في الجامعة؟

ــ نعم، وما هو الغريب في الأمر؟

ــ الغرابة شيء ضروري. وفي أية كلية هي؟

ــ إنها تحضّر لنيل دبلوم التربية بعد أن أنهت كلية الآداب.

ــ مصادفة عجيبة.

ــ ماذا تقصد؟

ــ لا أقصد شيئاً، ولكن خطر ببالي أن ابنتك تميل إلى السمنة قليلاً.

ــ قليلاً.

ــ وعمرها يقترب من الخامسة والعشرين.

ــ تماماً. كيف عرفت؟

ــ أحياناً بسبب الحالة، نستطيع أن نقدر العمر والوزن، لكننا نخطئ في تحديد الاختصاص، لكن اللافت للانتباه هو العمر. الخامسة والعشرون سن حرجة بالنسبة إلى فتاة وحيدة مثلما هي الساعة الخامسة والعشرون، ساعة مرعبة بالنسبة إلى يوم بعيد.

ــ أنت تتحدث بصورة موجعة.

ــ ألم أقل لك: إذا حررت يديّ أفهمك أكثر.

ــ هل تعرف ابنتي أو هل مرت عليك مثل هذه الحالة؟

ــ أبداً: ربما قرأت عن حالات مشابهة. لكن يظل لكل حالة قانونها الخاص، وحبالها الخاصة. وإذا حررتني تماماً فقد أساعدك وأساعد ابنتك بصورة أفضل.

فجأة قفز الرجل الطويل إلى الجدار وصاح:

ــ لا. لا. إنني أكتفي بما تلهمك إياه وضعيتك الحالية، ولا أريد

مساعدات أكبر. الحرية تؤذيني وتؤذيك.

ــ لقد ذهبت بعيداً. فكيف تريد لابنتك أن تصارحك؟

ــ لقد تركت الأبوة جانباً ولجأت إلى الخبرة التي أمتلكها في المتابعة والرصد، وقررت أن أبقى يقظاً قربها حتى أتابع تصرفاتها بحيث أراها ولا تراني.

ــ مثلما تفعل مع متهم.

ــ لماذا تحاول دائماً أن تذكرني بمهنتي؟ هل تريد أن أمنع يديك عنك وأعود معك إلى الحبل مرّة ثانية.

ــ مشكلتك أنك لا تجد في نفسك شيئاً مهماً سوى مهنتك، حتى وأنت تقوم بدور الأب.

ــ معك حق.

قالها عبد العزيز السيوفي، وقد تبللت روحه وشفته العليا.

ــ لذلك لم يعد الحبل قادراً على تحقيق أهدافك، ولم أعد أقدر على أن أظل متهماً أمامك.

ــ لقد شرحت لك ظروفي، فلا تحاول أن تستدرج غضبي.

ــ أمثالك نخشاهم عندما لا نراهم. نخشاهم وهم خلف الباب. ولكن عندما نقترب منهم، أو يقتربون منا تسقط عنهم ورقة التوت، انظر لقد سقطت الحبال من تلقاء نفسها، وها أنا أستطيع الوقوف أمامك.

ــ أنت تتحدث عن ورقة التوت أيضاً؟

ــ وما المانع؟

ـ لقد تحدثت ابنتي عنها!

ـ وماذا قالت؟

ـ لم أعد أذكر. لم أعد أذكر.

ـ لا تنفعل. تعال إلى هذا الكرسي، واقعد عليه وتابع الكلام كأنك لا ترى شيئاً حتى نفسك. تماسك في جلستك ولا تحاول البكاء، وحاول أن تتذكر.

ـ إنني لا أقدر على التذكر.

ـ حاول، قال الطبيب مشجعاً.

ـ ربما إذا ربطتني إلى هذا الكرسي.

ـ هل تجد ذلك ضرورياً!؟

ـ ربما، وقد يساعدني الحبل على ترتيب ذكرياتي. إنني أحس من اليوم الذي ربطتني فيه أمي إلى شجرة التوت، بأن عمري كله سيكون مربوطاً بحبل.

ـ ولماذا ربطتك؟

ـ لأنني طلبت من عفراء الحبال أن تغني لي، أغنية (مرمر زماني يا زماني مرمر)

* كانت دهشة الطبيب عالية وهو يقبض على الحبل بيد ويمسك زند الرجل المريض ويثبتها على مسند الكرسي، وكاد أن يلتفت وراءه بذعر ليداري جسده من تدفق مياه الخزان الذي أحس لومضة كأنما تحركت مياهه بغضب ثم انفلتت إليه، وعندما استدار واطمأن إلى متانة الباب، تابع ربط الرجل الغريب، ثم تحدث إليه:

ــ آخر مرة، كنت تتحدث عن ورقة التوت.

ــ ابنتي ذكرتها عدة مرات. كانت تقعد في سريرها وتبكي وهي تقول:

«اللعنة على ورقة التوت. كدت أن أصل».

وكانت تكرر الكلمة الواحدة عدة مرات وهي ترتعش، وقد أحسست بوجودها ومحنتها. كأنما كانت تشاهد حلماً جميلاً يفزعها. وكانت تعد نفسها في كل ليلة لاستقبال الحلم واستكماله. وأحياناً كانت تصرخ: أين أنت يا أمي؟

ــ صحيح. أنت لم تذكر أشياء واضحة عن زوجتك.

ــ لقد افترقنا منذ مدة.. وعاشت ابنتي معي.

ــ لا بد وأنك منعت الأم من مشاهد ابنتها.

ــ في السنوات الأخيرة.

ــ ألم تتحدث ابنتك عن ديناصور؟

ــ كيف عرفت؟ لقد تحدثت.

ــ عندما حدثتني عن انقطاع حلمها الجميل، ولم تستطع الوصول، خطر ببالي أن ذلك تم لأنها لمحت ديناصوراً في الحلم.

ــ وكيف تظهر الديناصورات وقد انقرضت منذ قرون بعيدة؟

ــ انقرضت في الواقع، لكنها لم تنقرض في الأحلام، قد تحاول أن تستكمل دورتها لتعود إلينا ثانية. ألم تشاهد بعض الأحلام؟

ــ أشاهد دون أن أقوم بربط الأمور

ــ ألم تحصل تحولات غريبة مساعدة.

ــ ابنتي بدأت تهتم ببطنها.

ــ هل تحولت للأكل بشراهة؟

ــ أبداً. لقد بدت عليها ظواهر الحمل. وصارت تحس بأن جنيناً يكبر في بطنها، ولم تعد تعبأ بي. وصارت تتظاهر بالأمومة أمامي. وأحياناً تغني لجنينها. تقول لي: الغناء يجعله أكثر نمواً وسعادة، وقد أرهقني الأمر وأغاظني. أنت تعرف مجتمعنا وضروراته، لذلك أخذتها إلى الطبيب. وبعد الكشف تبين لي أنها ما زالت عذراء، وأن بطنها مملوء بالأوهام، ولا يوجد فيه من يصغي لغنائها.

ــ كدنا نقع في ورطة؟

رد الطبيب بسرعة وانفعال:

ــ من الذي سيقع في ورطة؟

ــ أنا، أقصد أنت. الفضل في النهاية يعود للديناصور، فلو لم يمر في الوقت المناسب لكانت ابنتك حاملاً بصورة فعلية.

ــ وهل يعقل أن تحمل في الحلم؟

ــ طبعاً. لذلك يتحدث الناس عن شجرة الخطيئة، وهي شجرة لا توجد إلا في الأحلام.

ــ لقد ذكرت ابنتي شيئاً عن هذه الشجرة.

ــ هل أنت جاد؟

ـ أقسم لك. وكانت تحب هذه الشجرة كثيراً. لقد حاولت أن تضع في البيت شجرة خضراء بلاستيكية من تلك الأشجار التي توضع في أعياد الميلاد ورأس السنة، وقد علقت على هذه الشجرة أوراقاً نقدية، وعلقت عند جذع الشجرة ورقة مكتوباً عليها شجرة الخطيئة.

ـ كأنما تتحدث بالألغاز.

ـ لا يمكن أن يهرب أحد من الألغاز.

عندما صمت الرجل، انحنى الطبيب وفك وثاق الرجل الطويل وجره من طرف جاكيته إلى الأعلى حتى استوى واقفاً، وقد تقبل الرجل المريض هذا الموقف بانصياع ونهضت أعضاؤه وتراجعت شفته حتى لم يعد بمقدور أحد أن يتنبأ بخبايا عينيه، بعدها قال الرجل:

ـ هل وصلت معي إلى حل؟

ـ أريد ابنتك.

رد الطبيب وعيناه في الأرض:

ـ تريد أن تحقق معها؟

ـ كلا، ولكنني أريد أن أسألها.

في هذه البرهة استرد الرجل المنكود طوله وطبيعته وخصائص مهنته وأمسك الطبيب من ياقة قميصه وجره بقوة وقال:

ـ احذر أن تسيء إليها.

ــ أبداً. أبداً. مجرد أسئلة.

ــ وستشفيها من حالتها؟

ــ سأحاول ذلك.

ــ ما دمت تريدها، فيجب أن تشفيها. أريدها أن تعود إلى البيت كما لو أنها تعود إلى الجنة. لا تنسَ ذلك.

ــ هل يمكنك أن ترسل الشاب؟

ــ أي شاب؟

ــ المتهم الذي أوقعك وأوقع ابنتك في هذه الورطة.

ــ وهل يمكن الأمر أن يكون مفيداً؟

ــ لا بد.

ــ طيب، سأرسلهما إليك معاً.

ــ قبل أن تذهب، حاول...

ــ لماذا سكتَّ..؟ ماذا تريدني أن أحاول؟

ــ حاول أن تأخذ معك الحبل.

ــ ولماذا؟

ــ حتى تحب نفسك أكثر.

***

الأحلام الناقصة

عندما خرج عبد العزيز السيوفي من العيادة، وصار خارج المبنى، التفت ليتبين ملامح المكان الذي أغرق نفسه فيه، وقد تبدى البناء في روحه وعينيه في هيئة قلعة قديمة آيلة للزوال. وانتبه إلى الرصيف، فلم يجد سيارته الفارهة. كيف أتى؟ ومن أوصله إلى المكان؟

وكان بطوله الفارع والحبل بين يديه يشبه شجرة بائدة، وقد التفّت عليها أفعى عظيمة ومنعتها من النداوة والخضرة، لذلك انتفض بحركة مباغتة، وألقى بالحبل بعيداً، وأخذ يركض ركضاً مدوياً ليمنع نفسه من انقضاض الأفعى عليه.

عندما وصل عبد العزيز السيوفي إلى البيت، لم تكن زوجته الشابة انتصار في استقباله، وكان الممر معتماً وطويلاً، وقد تبين طريقه عبر الضوء المنبعث من باب الثلاجة الموارب. كأنما لم يكلف أحد

نفسه إغلاق الباب. وقد استهواه أن يتأمل خيطاً صامتاً من الضوء في العتمة السابغة. هذا الخيط الذي منحه القوة على معرفة موقعه وموضع لهاثه منه، هل يمكن الزنازين الانفرادية أن تكون بهذه الكثافة وهذا الجمال، وأن ينبعث منها خيط من الضوء، كما تفعل الثلاجة؟

ودون فنجان قهوة، أحس بنفسه رثاً وذاوياً كشيء عاثر على الطريق، لذلك تراجع إلى الصالة وألقى بجسده على الكرسي الوثير. بعد لحظات وصله صوت انفتاح باب الغرفة من الجهة البعيدة، وتحركت الابنة إلى موضع جلوس والدها.

ــ هل تريد فنجاناً من القهوة؟

ــ أريد خمسة فناجين. كيف خطر ببالك أنني أحتاج إلى القهوة.

ــ أحسست بظمئك من حركة قدميك.

أجابت الابنة، وهي تتحرك نحو المطبخ في هيئة امرأة حامل، وعندما حاولت وهي في الطريق أن تضغط زر النور، صاح الأب:

ــ لا تشعلي النور.

لقد أحس برغبة في البقاء هكذا وحيداً مع عتمته، غير أن الابنة صرخت محتجة:

ــ ولكنني أخاف على الجنين، قد أتعثر ويتأذى، تكفيه العتمة التي يعيشها في بطني.

ــ كوني حذرة، وترفقي في مشيتك، لقد بدأت أحس بالتضامن مع الجنين.

عندما سمعت الابنة كلام والدها عن الجنين اقتربت منه وغرست أصابعها في شعر رأسه الكثيف، وبدأت تحرك أصابعها لتستعيده من هاويته.

ــ ما دام الأمر قد وصل معك إلى هذا الحد، سأترفق بك وبالجنين.

وبعد أن قام عبد العزيز السيوفي بتدخين سيكارتين، مانحاً العتمة ما تستحقه من كثافة وزفرات، عادت الابنة ومعها الفناجين، وحاولت عندما اقتربت من طاولة الفناجين الصغيرة أن تزيح جسدها إلى الطرف الآخر حتى يتسرب النور من باب الثلاجة الموارب إلى الطاولة لتتمكن من تحديد الفراغ الذي ستملأه بالفناجين الخمسة.

واحد اثنان ثلاثة، من الفناجين المملوءة بالقهوة الحارّة. سكبها السيوفي في جوفه كأنما يعذب موقوفاً.

ــ ماذا تفعل؟

صاحت الابنة مذعورة.

ــ لقد قلت اليوم كلاماً لا تطفئه النيران.

ــ والفنجانان الباقيان؟ ماذا ستفعل بهما؟

ــ سأشربهما على مهل كما في الأيام الماضية. أين ذهبت انتصار؟؟

ــ إلى بيت أهلها. كانت مضطربة.

ــ هل تقابلين أمك؟

ــ أحياناً. وقد أخبرتها أنها ستصبح جدة. ولامست الابنة بطنها باعتزاز ثم أمسكت يد والدها وقربتها من بطنها.

ــ ألا تحس بحركة الجنين؟ إنني أحس بها.

ــ ولكن الطبيب أكد بطلان الحمل.

سحب الأب يده بغضب كأنما يلامس خطيئة لا تطفئها النيران.

ــ الأطباء لا يفهمون مثل الأمهات. الأطباء واقعيون حتى لتكاد أن تهرب منهم زوجاتهم.

صاحت الابنة بغضب، ثم امتدت يدها إلى الفنجان الباقي وشربته دفعة واحدة ونهضت إلى غرفتها منفعلة وأغلقت الباب.

أحس عبد العزيز السيوفي برغبة في النهوض سريعاً واللحاق بابنته. غير أنه لم يتمكن. كأن كل شيء فيه كان مربوطاً بحبل، لذلك حاول أن يتلمس موضع فنجان ابنته ويرفعه ليتبين إن كانت قد تركت له فيه قطرة أخيرة.

* * *

عندما وصلت انتصار إلى منزل أهلها، استقبلت من أمها وأبيها بدهشة. فلم يكن موعد زيارتها الأسبوعية قد جاء. لكنها جاءت، وهذا أمر طارئ وفيه احتمالات كثيرة وأسئلة، غير أنها أجابت إجابات مقتضبة عن أسئلة الأهل ودهشتهم، ومضت باتجاه الغرفة التي استوطنها شقيقها الأكبر بعد أن خرج من الحجز. وكانت تشدها رغبة جارفة للذهاب إليه والتحدث معه.

كان الأخ مستلقياً على سريره في غرفته الرثة، وقد ألصق أذنه إلى جهاز الراديو، لذلك لم ينتبه إلى دخولها وحركة قدميها، وكان في أتم ثيابه ووسامته، وكان صوت الراديو عالياً.

وقفت انتصار تتأمل عزلة أخيها وبقاياه، وعندما التفت الأخ إلى أخته صاح فيها مذعوراً:

ــ ادخلي وحدك واتركي بطنك خارج الغرفة.

ــ ولماذا أتركها..؟

ــ لا أعرف. هكذا. أخشى أن تحملي في أحشائك زنزانة، ألم تسمعي الأخبار. عندما تنجبين ولداً جميلاً مثلك سيتوقف زوجك عن تقديم المساعدات، وقد تتوقف الـB.B.C وإذاعة راديو مونت كارلو عن الحديث عن المنظفات، بعدها من أين سنتزود بالأخبار؟ هل تعرفين لماذا أصدرت الحكومة بياناً بمنع الصحون الطائرة من البكاء في سماواتنا؟ الذي لا يسمع الأخبار طوال الليل والنهار لا يقدر على الاستلقاء سنة بطولها منتعلاً الحذاء. الأحذية ضرورية، لأننا نستطيع من خلالها أن نربط العالم ببعضه كما نربط خيوط الحذاء، والأخبار ضرورية لأنها تجعل العالم مثل قرية مملوءة بالأحذي.. عندما كنت في الزنزانة لم أكن أشتاق لأحد، إلا للأخبار. الأخبار مثل أخت بطنها منتفخ. إنني كأخ أنصحك بالاعتماد على البطاريات، الكهرباء حرام. لأنها تتدفق بصورة طائشة، لذلك لا أجرؤ على حمل جهاز الراديو والذهاب معه للمرحاض، أمك أصبحت مثل حراس السجن، تقدم لي الطعام من تحت الباب لأنها تخاف على ذكريات ابنها القديم مني. لقد أخبرتها مراراً. إنني أعدت اكتشاف نفسي، وأعطيت لأذني الحق في إعادة اكتشاف العالم، ولكنها لا تفهم. وعندما أطلب منها أن تضع ملحاً كثيراً وتوابل كثيرة على الطعام، تمتنع عن ذلك وتقول إن الملح والتوابل الحارة تؤدي إلى الانفعالات، وقد أخبرتها بأنني لم أعد أقدر على أن أتذوق شيئاً، وأنني عندما أطالب بالتوابل

الكثيرة، فلكي أتمكن من نسيان طعم الاشياء. إنني أحاول أن أمتحن صلابتي وحسن سلوكي، غير أنها لا تفهم. هل تستمعين إلى الراديو مثل ابنة الجيران، هذه التي تقف على الشرفة طويلاً، وتشير بيدها إلى الشرطي الواقف على زاوية الشارع.. ليتك تذهبين إليها لتخبريها بأن الراديو شيء آخر غير اللاسلكي الذي يحمله الشرطي ليقبض بواسطته على المدينة والناس. الراديو يفلت الأشياء من عقالها، ولكنه يربط الإنسان بالسرير، ويربط السرير بالحذاء، ويربط الحذاء بالقضبان، إذا كنت تحبينني فاذهبي لابنة الجيران وحدثيها عن أهواء رجال المرور والأزواج الذين ليس لشفتهم العليا حدود، وحاولي في المرة القادمة أن تحضري معك برميلاً مملوءاً بالبطاريات. لأتحرر من أسلاك الكهرباء. ولأتمكن من الذهاب إلى المرحاض بحرية كما يتحرك الأغنياء والمشاهير في الفضاء.

كانت انتصار في هيئة أم. وكانت دموعها أشد بريقاً من بشرتها، وأكثر طولاً منها. وعندما تسربت الدموع إلى سرتها أحست بلسعة الحنين والهواء الجارف... لذلك استدارت لتداري نفسها من السقوط، واتجهت إلى الباب، وقد انتبه الأخ إلى حركة أخته وأحس برغبتها في الخروج فصاح بها:

ـ لا تخرجي. إنني جائع. إنني أكاد أموت من الجوع. لذلك حاولي أن تذهبي لأمك وتطلبي منها أن تستعجل بتقديم نشرة الأخبار، ولا بأس بقطعة لحم كبيرة، لأنني قررت أن أتوقف عن تناول المهدئات. وإذا ظل معك وقت فحاولي أن تقتربي من وجهي لتقبليني كما تقبلين أخاً لم يتعرض للاعتقال.

عندما تهاوت انتصار وصارت على الأرض، وصل صوت سقوطها

إلى الأمكنة المجاورة، فركضت الأم وركض الأب. وتلفت الأخ الممدد على السرير بانفعال وصاح:

ـ عندما يسقط إنسان لماذا يحاول شخص آخر أن يفعل شيئاً؟ أليس من الأفضل تركها لتهنأ بالسقوط الأخوي العظيم؟ حيث يستطيع شخص مثلي أن يشعل الراديو، ما دام عاجزاً عن إشعال ثيابه. إيه يا أيام الحبس الانفرادي، يومها لم أكن أستطيع أن أشعل لفافة، وكانت الصراصير والفئران وأقدام الحراس المناوبين تؤنس وحشتي وتنقل لي العدوى والأخبار. لقد فعلت أختي خيراً عندما تزوجت. لقد آنست وحشتها، وكشفت عن مفاتنها، وصار من حقها أن يكون لها ولد، لذلك أكره أمي، لأنها لم تعرف كيف تختار الزمان الذي يحق لها أن تنجبني فيه. لو أنها فعلت ذلك بعد مئتي سنة، لكان ممكناً احتمال التجربة والنجاة من الشرير.

ثم نزل من فوق السرير على ركبتيه وفَرَدَ أمامه عدداً كبيراً من الصحف، وأمسك بالصحف وبدأ يحرك المقص ليقص منها الأخبار، وعندما تكومت أمامه القصاصات، أعاد القص مرة ثانية وثالثة وبدأ يقص الخبر الواحد إلى نصفين حتى قسم الأخبار جميعاً. بعد ذلك تابع العمل باهتمام، وشغف وبدأ بإلصاق كل نصف خبر مع نصف خبر آخر، حتى تحولت الأخبار جميعاً إلى نصوص من نوع جديد، ثم نهض وبدا تلاوتها بصوت مرتفع حتى تحشرج ثم التفت إلى أخته وقال: هكذا أحصل على المعنى، هكذا أستطيع القراءة والفهم، فالأخبار بصورتها الأولى بليدة بليدة، أما في وضعها الحالي، فهي البلاغة بلحمها ودمها، لو أنني أستطيع تفكيك الراديو لأعيد صناعة الأخبار وتركيبها على طريقتي. ولكن من يضمن إذا فككت الراديو أن لا يخرج من

جوفه الناس المحاصرون ويتسربوا في الليل إلى عقلي ومعتقداتي ليعيدوا صياغة الكلام على طريقتهم، عند ذلك من يضمن لي أن لا أصاب بالجنون، لذلك أشد الأجزاء إلى بعضها وأنا أتذكر غرفة السجن الانفرادي وإيعازات الالتزام بالنظام.

ثم غفا منطرحاً على وجهه دون أن يتذكر يده ليمدها إلى جهاز الراديو ليقوم بإغلاقه.

عندما تماثلت انتصار لليقظة تلفتت حواليها فوجدت أمها وأباها. وتبسمت بمرارة حتى تدخل إلى قلبيهما العزاء، وعندما تذكرت أخاها التفتت إلى أمها بغضب:

ــ إنه جائع، لماذا تؤخرين عليه الطعام؟

ردت الأم بغضب:

ــ أصبح في الآونة الأخيرة شرهاً للطعام، مع كل موجز أخبار يطلب وجبة خفيفة، وعندما يأتي موعد النشرة الرئيسية يطالب بوجبة ضخمة. وعندما أسأله عن أسباب تناول مثل هذه الكمية من الطعام، يقول لي: اذهبي إلى العناوين الكبرى وأقرئيها.. لو أنك تعملين في السجن المركزي لكنت قتلت الموقوفين من الجوع والملاحظات. تصوري، أنا أمه ويقول لي مثل هذا الكلام.

عند ذلك قامت انتصار غاضبة وأفرغت محفظتها من النقود وألقت بها في حضن أمها، وصاحت:

ــ أحضري له كل الذي يطلبه من الطعام، حتى يظل الفارق كبيراً بين الأمهات وحارسات الزنزانات.

بعد وقت وجهد، نهض عبد العزيز السيوفي من عتمته ومكانته ومضى إلى غرفة ابنته. قرع الباب ودخل، وكانت الابنة خلف طاولتها تقلب في الكتب.

قال الأب:

ــ اليوم ذهبت إلى الطبيب، وتعرضت للكشف.

ــ هل كان الضوء مبهراً في العيادة. سألت الابنة:

ــ عندما حدثت الطبيب عن أحوالِكِ طلب أن تقومي بزيارته.

قالت الابنة ساخرة:

ــ لماذا أزوره؟ هل يعاني من مشكلة؟

ــ لا أعرف. لم تكن تهمني حالته. ذلك هو اسمه وعنوانه على البطاقة. حاولي أن تقومي بمراجعته.

ثم ألقى بالبطاقة على الطاولة واستدار ومضى.

عندما امتدت يد الابنة ورفعت البطاقة وقرأت اسم الطبيب، جاءتها الانفعالات، وسمع الأب من مكانه البعيد أصواتاً عميقة تشبه الضحكات.

في اليوم التالي، وفي مكتبه، طلب عبد العزيز السيوفي من حاجبه إحضار أحد الموقوفين، وعندما دخل الموقوف أعطاه البطاقة وعليها اسم الطبيب وعنوانه، وطلب منه أن يقوم بمراجعة العيادة النفسية بعد أن حذره من الهرب قائلاً:

ــ كن مثل الأبناء النافعين، وتصرف بحكمة وحذر.

عندما خرج الموقوف أغلق عبد العزيز السيوفي على تحولاته الباب وغاب.

* في عيادته، وبعد خروج السيوف،. أحس الدكتور عمر الذهبي بأنه في برية شاسعة، فشعر بفضيلة الأبواب والجدران، فنهض إليها وتأكد من إغلاقها. ثم أحس بالحاجة إلى حبل بعد أن دفعته الضرورات للتفريط بحبله وإلقائه بين ذراعي الزائر الغريب، فقرر من لحظته أن يشتري حبلاً ويلقيه داخل السقيفة لعلّ الضرورات والمحاذير تدفعه للصعود ثانية، ليتابع من مكمنه قرب الخزان الحوادث والذكريات.

في صبيحة اليوم التالي ذهب إلى السوق ودخل دكاناً لبيع الألعاب واشترى شجرة بلاستيكية من النوع الذي يشتريه بعض الناس للاحتفال في ليلة رأس السنة وأعياد الميلاد وشريطاً من المصابيح الصغيرة، وحملها وهو يقول في نفسه:

ـ مادمنا لا نستطيع القبض على الديناصورات، فعلينا أن نقبض على أجزاء الحلم الأخرى.

ثم اشترى حبلاً وعاد إلى عيادته، وعندما تفقد المكان، قرر أن يجر الأريكة القابعة في غرفة النوم إلى غرفة الكشف، ووضع الشجرة البلاستيكية قبالتها ووضع على الأغصان الميتة أوراقاً نقدية فصارت الشجرة البلاستيكية تشبه شبهاً مزرياً الشجرة العظيمة التي شاهدها في الحلم، هذا الحلم الذي شغله كثيراً فقرر أن يصوغ تتمة له من صنعه. وعندما تأمل المشهد والأضواء المضطربة، صرخ صرخة مدوية وهو يحرك ذراعيه ورجليه كما يفعل المبتدئون بلعبة الكاراتيه، وذلك ليستعيد لياقته التي كانت معه في الحلم. بعد ذلك تمدد على الأريكة منتشياً بما أبدعته مخيلته من حلول

واقتراحات، وعندما أحس بالجوع، قام إلى الحبل وربطه على جذع الشجرة كما يفعل السحرة والحطابون، بعد ذلك ذهب إلى جهاز التسجيل وأطلق صوت الشريط، فتسللت منه همسات موسيقية حالمة أودت به إلى المطبخ وهناك قام بترتيب أفكاره وهو يرتب الصحون الفقيرة على طاولة الطعام المركونة في الزاوية، فلقد أحس لحظتها بعضة الجوع التي انتابته في الحلم وتجاهلها، في الوقت الذي تجرأت فيها الفتاة وصرّحت بها، ثم تجرأت أكثر وطلبت منه أن يقوم بفعل ملموس ليملأ الحلم بالمعلبات.

* والمعلبات شيء متصل بالحصار، بالطبيعة وقد أدخلت نفسها في مأزق، فما دام الإنسان قد علّب أشياء الطبيعة وعناصرها، فمن يضمن له أن يبقى على حريته وروحه بعيداً عن الحصار؟

بعد أن أتم تناول القليل من الطعام قُرع جرس الباب فذهب ليفتحه، وفي الطريق إلى الباب لمعت برأس الطبيب فكرة، لو أنه أحضر شجرة عارية، ليضعها قرب الشجرة البلاستيكية الخضراء، ليعطي للمشهد تنوعاً، مثل ذاك الذي يحصل في الطبيعة والحياة.

عندما فتح الطبيب الباب، كان شاب في الثلاثين، يقف بخضرة وارتباك، وعندما تأمله الطبيب أحس بالدهشة. لأن ملامح الشاب الواقف تشبهه.

ــ تفضل.

وقف الشاب وسط الغرفة وبدأ بالتلفت والانتباه ثم امتدت يده بالبطاقة:

ــ جئتك من طرف المقدم عبد العزيز السيوفي.

ــ عرفت ذلك بعد أن فتحت لك الباب. تفضل واسترح.

عندما استراح الشاب، ظلت عيناه معلقتين على الشجرة، لذلك حاول الطبيب أن يستثمر انتباه المريض.

ــ هل أعجبتك الشجرة؟

ــ لا أعرف.

رد المريض باستغراب.

* أمام هذا الرد المملوء بالغربة والارتياب، وجد الطبيب نفسه مضطراً للتباسط في الكلام وإيجاد جسور من الألفة بينه وبين الشاب.

ــ نحن الأطباء المشتغلين بعلم النفس نعتبر أنفسنا من سلالة المشعوذين والسحرة، لذلك نحاول أن نختلق بواسطة الأشياء الغريبة انطباعاً ما، ولأننا نفتقر للمخيلة التي يتمتع بها الأسلاف، لذلك نحاول بالأشياء الملموسة إعانة المريض على الحركة والحوار.

ــ أشياء ملموسة؟ مثل ماذا؟

ــ مثل أشياء معلبة أو شجرة بلاستيكية خضراء. الأشجار البلاستيكية شيء عظيم، لأنها تحافظ على خضرتها وانصياعها ويباسها كأنما لم تعبر مخيلتها الأيام والفصول. لهذا السبب أحضرت مثل هذه الشجرة.

ــ الشجرة التي لا تختزن في عروقها ذكريات عن الخضرة والفلوات شجرة ضالة.

ــ أنت تميل للكآبة والتعنت.

ــ نحن نشبه زنازيننا، لذلك نصاب بالأشياء التي ذكرتها، ولا نصاب بالخضرة والتفتح. هل تعرف أين هو الطبيب؟

ــ أنا هو.

ــ أمر غريب. تبدو لي في هيئة مريض.

ــ وأي مرض تخمن..؟

ــ لا أدري، ولكن دعنا نتحدث عن الأمراض السارية التي تنتقل بواسطة الهواء والوشايات.

ــ لقد أوحيت لي بفكرة.

ــ وما هي؟

ــ أن أتوارى وأتركك لتعترف بنفسك ولنفسك. فالأمراض السارية ـ كما هو معروف تصيب الآخرين بالعدوى، وأنا أرغب أن أجنبك الإصابة، فما رأيك؟

ــ في أي شيء؟

ــ في أن أتوارى أنا وتعترف أنت.

ــ فكرة جذابة، ولكنني لا أستطيع الاعتراف وحدي.

ــ سأطرح عليك بعض الأسئلة من خلف الستارة لأعينك على التذكر.

ــ ووضعت الستارة أيضاً. هذا يذكرني بالمسرح، أو بالانتخابات. فالستارة موجودة في كلتا الحالتين. واحدة لصنع الأكاذيب وواحدة

للضحك من العالم، وواحدة نتوارى خلفها، وواحدة نتوارى أمامها.

ـ معك حق. لا مانع من أن تدفعنا ضرورات العمل للتعاون مع الستائر. حاول أن تتحدث إلي وكأنك تتحدث إلى نفسك، وكأنك وحدك في الجنة.

ـ وحدي في الجنة. كيف؟

ـ بعد قليل سيأتي من يشاركك جنتك. لكن قبل أن يأتي أريد أن أعرف عنك شيئاً.

ـ ألم يخبروك؟

ـ أخبروني على طريقتهم، وأريد أن أعرف على طريقتك. فحاول أن تبدأ.

ـ كيف أبدأ، وأنا لم أسمع منك ما يعينني على البدء؟

ـ حاول أن تبدأ من الحب إذا استعصت عليك أيامك، فللحب ذاكرة خاصة لا تُدمر ولا تفنى ولا تشيخ.

ـ أنت تقبض علي بقوة.

ـ ليتني أقدر.. فحاول. حاول. وتدفق بالكلام مثل شيء عاصف وجميل.

ثم دخل الشاب في الوطأة واللهاث. وتفصدت الحبال والأبواب من روحه وجبهته ثم أفلت من جلده وبدأ يتدفق بالضلال والكلام.

ـ بيننا شارع ضيق، ونافذتان. لنافذتها قضبان متعامدة ووجه أسمر حلو وعينان من شجر وماء، ولها جدائل حرة وطويلة،

وكنت في المراهقة أراها وتراني. ولم نكن نرى شيئاً سوى ذلك. ليتك التقيت بوجهها ونافذتها وقضبانها وصوتها. كنا نعيش نافذة مقابل نافذة وكانت تقول لي: لكأنني مربوطة إليك بحبل، فلماذا تأخرت؟ لقد انتبه والدي إلى وقوفي الطويل أمام النافذة وذهولي وحركة عيني، وقرر بعد أن رآني إغلاق النافذة عليّ، كأنما النظرات تدفع واحدة مثلها لأن تحمل سفاحاً. لذلك يخاف الآباء من النوافذ المتقابلة، والشوارع الحجرية الضيقة. فعندما تذهب النافذة، كيف يمكننا أن نظل معاً لنتصل ببعضنا ونعيش؟

ــ سأتسلل إليكِ من الجدار.

ــ جدارنا متين وكتيم... أجابتني الفتاة.

ــ سأقفز فوق الحارة والأسطح لأصل.

ــ أخاف عليك من الوقوع.

ــ لقد وقعتُ وانتهى الأمر. لو أنكَ التقيتَ بضحكتها لنسيت الأرض. ثم سألتها كم مرة اغتسلت هذا النهار.

مرتين. قالت لي.

ولم أكن أستطيع أن أفهم. لماذا كانت تغتسل عدة مرات في النهار وهي لم تقترف ذنباً. ولم تدَّهِن بإثم، وكان لونها في بريق المسك. إنني لا أكاد أفهمكِ قلت، لها ذات مرة.

ــ إنني أغتسل من أجلك عدة مرات كل يوم لأصبح بيضاء.

كأن السُمرَة في البيوت القديمة لون من ألوان الإثم، فلماذا فعلت ذلك؟ لماذا؟ وعيناها تكفينني، وسمرتها أنبل من زماني، لو أنها

غسلت الجدار الذي يفصل بيننا لذاب وانتهت الحواجز، ولكن ماذا أفعل لأراها، وقد أغلق الأب النافذة بالحجارة والطين، ولم نعد قادرين على اللقاء، وازدادت الأيام كثافة وسواداً، وازدادت تطرفاً وهياماً، وبدأت تداخلني معتقدات الجدار وسطوته، ثم بدأ اللون الأبيض يغويني؟ كان مضحكاً أن ينتابني مثل هذا العماء. لقد خطر ببالي أن أدهن نفسي بالرماد حتى أتقرب من أحزانها وسمرتها، ثم تجرأت في الليل ودهنت باب بيتهم باللون الأبيض، ثم عدلت عن الفكرة ودهنته بالأخضر بعد أن تذكرت لون عينيها... ثم غزتني بقية الألوان والمعتقدات، فصرت أتسلل إلى الجدران والأبواب والنوافذ لأدهنها بالمجان. في ليل الليل أتسلل لأمارس غوايتي وأنا أذوب من الشوق إليها. يا للمراهقة الملونة التي عشتها! كنت أكرس كامل مصروفي من أجل ذلك، وعندما تعضني الضرورات أتجرأ وأبيع ألبستي، لأشتري الدهان، لذلك كنت ادهن وأرتجف. أدهن وأرتجف حتى أصاب باللون الأصفر، من شدة الوجد والبرد. كانت الأبواب المغلقة والنوافذ محنتي، وقد أرهق هذا الأمر أمي، فسعت على طريقتها لتخلصني من محنتي، وسعيت على طريقتي للذهاب بعيداً، حتى وجدت ضالتي في اللون الأحمر، اللون الذي يتلائم مع المراهقة وأحلام التغيير، رغم أن طربوش والد فتاتي كان أحمر ويقف مثل قلعة هائلة بيني وبين ما أريد، لذلك أسرتني الأفكار التي تعطي اللون الأحمر بريقاً خاصاً ومكانة خاصة، فاعتنقتها وبدأتُ المعركة، وقد تفاقم ذلك بعد أن وصلني خبر موت فتاتي. كان ممكناً للعقائد الحمراء الجديدة التي أصابتني أن تفزع بائعي الدهان وشرطة المرور والألوان الغاضبة ومالكي الحظائر والمحاذير وفي مقدمتهم أمي، لذلك تعرضت للاعتقال والتأديب، وقد طلبت أمي بكل ما لديها من

حب أن يتكرم رئيس المخفر بمعاقبتي حتى أقلع عن عادتي الشريرة، وقد استجاب الرجل بأبوة واضحة وقام بالواجب، لذلك تذكرت بقوة وأنا أتعرض للعقوبة فتاتي عروس الماء التي حاولت من أجلي أن تكون بيضاء وحاولت من أجلها أن أغرق العالم بالألوان. يا للفرشاة اللعينة! ليتني استطعت، ولكن من يستطيع أن يوقف النيات النبيلة التي تنهال عليك في هيئة عصا دون أن أتمكن من تلوين ذاكرتي بلون يدفعني للنسيان، لذلك تدخل رئيس المخفر المجاور، وبدأت النيات النبيلة تنهال عليّ في هيئة عصا. لقد تمكنت الضربات الحنون من تحويل العصا إلى فرشاة للعالم الجديد، وقد تمكنت بعد جهد من تلوين نخاعي على طريقتها، وعندما أطلق سراحي وعدت، احتفلت أمي الحنون على طريقتها بعودة الولد الضال، وبدأت تغزو رأسي بالضرورات والنصائح، ثم تابع المعلمون والأساتذة مهمة النهوض بي بأساليب مختلفة وأصبحوا يلحون علي للدخول في الانصياع كلون وحيد من ألوان المعرفة، الأحمر لا، الأخضر لا، الأبيض لا، والرماد سيد البلاد كأنما لا يبالون بانفعالات الطبيعة وجاذبية الضوء وحركة الظلال والأوراق والثمار كأنهم لا يبالون. وفي نهاية الطريق تتدخل أنت، وتواري طبيعتك خلف الستارة حتى لا أكتشف لونك. ورغم ذلك أستطيع أن أقول لك إننا متعارضان. أنت تحب الأبواب المغلقة والستائر، وأنا أحب الأبواب المفتوحة. والفتيات الهاربات.

* ثم تتالى القرع، فقال الطبيب:

ـ كأنني أسمع طرقاً على الباب. هل تسمع أنت؟

ـ أسمع... قال الفتى بعد أن أصغى.

ـ قال الطبيب: اذهب. ستأتيك فتاة. حاول أن تحدثها بمحنتك،

وترفّق معها مثلما تترفق بفتاة بيضاء.

ثم مضى الشاب كأن يد المشيئة تدفعه إلى الباب. وبعد تريث فتحه فدخلت الفتاة بثقة وتأملت الشاب. لم يكن أستاذها الذي تعرفه وتعرف اسمه وبطاقته، غير أنها اكتشفت فيه ملامح تشبهه.

ـ تفضلي.

ـ أريد مقابلة الطبيب.

نعم جاءها صوت من خلف الستارة، ونعم مستغربة خرجت من فم الشاب.

ـ كأنني أسمع صوتين.

قالت الفتاة.

رد الشاب:

ـ الصوتان ضروريان. صوت للاعتراف، والصوت الآخر للعلاج.

ـ لم أفهم. صوتان؟ أين هو الصوت الآخر، وما هي أسباب تواريه؟

ـ علاقته بالأبواب غريبة لذلك يفضل أن يتوارى عن الانظار.

ضحكت الفتاة بقوة.

ـ لقد ذكرني صاحبك بأحد الأستاذة، كان يكره الأبواب المفتوحة، لذلك يعطي المحاضرة وهو قرب الباب. وبسبب ذلك بدأت أهتم به، فانتبه إلى ذلك، وبدأ يحس بالارتباك وهو يبادلني النظرات. ربما أحس بأنني أتحداه لأنني كنت أنظر إليه كباب مفتوح. هل تصدق أنه يشبهك.؟

ـ هل تعتقدين أن من الممكن أن يحبك؟

ـ ربما فعلها. هل تعتقد أنّ من الممكن أن يحبني؟

ـ إنني أسأل.

ـ هل تعتقد أنه من الممكن؟

ـ إنني أعتقد.

ـ في أي شيء؟

ـ في أنك واقفة قرب الشجرة.

ـ هل تعرف حكاية فيها شجرة؟

ـ أعرف عيوناً فيها شجرة.

ـ تكاد أن تكون عاشقاً.

ـ أكاد أن أكون.

ـ هل يمكن أن...؟

ـ يمكن ماذا؟

ـ أن تحبني؟

قالتها الفتاة وهي تتأمل الشجرة.

ـ وأستاذَكِ الذي يخاف الباب؟

ـ كدت أحبه، لكنني لم أفعل لأنني بدأت أنشغل بشاب سواه.

ـ وما هي طبيعة الشاب الآخر الذي انشغلت به؟

ـ لا أعرفه. كنت أسمع به ولا أراه.

ــ كيف تعلقتِ به وأنت لا تعرفينه؟

ــ كان والدي يحكي لي عنه بصورة آسرة.

ثم صمتت الفتاة وأخذت تتأمل الشجرة وأوراقها الغريبة.

ــ تابعي الكلام.

ــ عندما أتابع هل تعدني؟

ــ بماذا؟

ــ أن تحبني.

قالت الفتاة الكلمة وهي تنتزع ورقة نقدية من الغصن البلاستيكي الأخضر.

ــ إنني.. إنني..

رد الشاب على الفتاة بانفعال:

ــ إنني رغم غرابة أفكارك بدأت أميل إليك.

عند ذلك قفزت الفتاة بفرح، وبرقت الرطوبة من أطراف عينيها وصرخت منفعلة:

ــ هل تعتقد؟ هل تعتقد؟

رد الشاب بحزن:

ــ أريد أن أحس بالشيء، ولا أريد أن أعتقد به.

ــ أرجوك. اذهب إلى الباب وافتحه حتى تظل ملامحك وتضيع ملامح أبي.

عندما ذهب الشاب إلى الباب وفتحه وتدفق منه النور الباهر. صاحت الفتاة:

ــ إنه النور... هل تغفر لي إذا حكيت لك؟

ــ أخشى أن لا أتمتع بالقدرة على الغفران.

ــ لماذا؟

ــ لأنني أغتفر الأخطاء الصغيرة. أما في القتل، فأنا لا أغفر لأحد.

ــ هل تعرف جدتي؟

ــ أبداً. لكن الغريب في الأمر أن تكون لك جدة.

ــ ولماذا؟

ــ لقد ذهبت الأمهات والآباء بعيداً. فكيف أعطت الجدات لأنفسهن الحق في البقاء؟

ــ ربما بقين للاعتراف.

ــ أو للإدانة.

ــ لا تحزن أرجوك.

ثم بدأت الفتاة تبكي بعينين لامعتين:

ــ بعد أن صار ممكناً أن أحلم به، بدأت علاقتي بأبي تتدهور. كنت عندما أراه في الحلم وأرى حزنه ومخاوفه، أمسك رأسه وأضعه على صدري وأنظر في عينيه، فأحس بالشجر والماء والأسماء، وأحس به عارياً ومضيئاً، وأحس نفسي عارية وخائفة. لذلك أعانقه ويعانقني. أشده ويشدني وأستجيب له ويستجيب لي، وقبل أن، وقبل أن...

ثم دخلت الفتاة بالتنهد والارتعاش وتوقفت عن الكلام والغمام، لذلك أحب الشاب أن يستدرجها لتكمل:

ـ ثم ماذا؟

ردت الفتاة:

ـ وقبل أن نصل إلى الذروة، وبينما نحن في حالة الـ..... ينقطع الحلم فجأة، وتصبح الأشجار جرداء، وتتلامع الأرض بالأوراق النقدية الصفراء والخضراء، وأحس بنفسي ومفارقي وقد أكلتنا الوحدة والمفأجآت، لذلك أنهض من الحلم وأنا أصرخ: يا حلمي، عد لي يا حلمي، عد لي مرة ثانية. كنت أريد أن أحتفظ به، كل شيء فيّ يريده، وبطني حاول معي أيضاً وبدأ ينتفخ من أجله. ثم قعدت الفتاة قرب الشجرة، ووضعت روحها بين كفيها وأطرقت. وأحس الشاب بالأسى الذي أصابها، فقعد قربها مواسياً وهو يلامس طرف خصلاتها ثم قال:

ـ لم أقصد. لم أقصد.

عندما ارتفع رأس الفتاة إلى الفتى سألته:

ـ هل تعتقد أن أخطائي أصبحت كبيرة، وأصبح من غير الممكن اغتفارها، وخصوصاً بعد أن صارحت والدي بخفايا بطني؟

ـ كأنني صرت أعرفه.

ـ من؟!

ـ والدك.

ـ في الأيام الأخيرة أصبح والدي يتعامل معي بصورة غريبة، وقد

بدوت له مثل لغز. لذلك قدم لي البطاقة وطلب مني مراجعة الطبيب.

ـ والدك قال لك ذلك؟

ـ نعم.

ـ هل أستطيع مشاهدة البطاقة؟

عندما شاهد البطاقة، ارتدّ الفتى إلى الباب، ودخلت أغصانه في الصفرة والارتجاف، ثم بدأ يلهث بالكلام.

ـ يا للأحلام الناقصة! يا للأحلام!

وقد ارتبكت الفتاة وهي تتأمل غربته ولهاثه وأحست به كأنما لم يعد يحبها. لذلك سألته:

ـ لم تعد تغفر لي. لم تعد تحبني... تكلم أرجوك.

وكان الشاب يردد نهايته الوحيدة.

ـ يا للأحلام الناقصة! يا للأحلام الناقصة!

ثم مضى إلى الباب، ومضى معه الضوء الباهر. فصاحت الفتاة من موقعها:

ـ إنه هو. إنه هو. كدت أن أصل. كدت أن أصل.

ثم اضطربت، ووقعت على الشجرة، ووقعت الشجرة على الأرض، ووقعت الأرض على الناس، وخرج الطبيب من خلف الستارة.

وترددت في السماء والهواء والأبواب الجملةُ العاتية:

ــ «أما أنا ، ففي القتل لا أغتفر لأحد...».

بعد أحوال وأيام، دفع عبد العزيز السيوفي باب المقهى بحذر، وكان يغصُّ بالرواد والدخان، وكان عبد العزيز السيوفي متهدلاً ومشعثاً، ومملوءاً بالحيرة واللهاث، وحين أصبح داخل المقهى تأمل الدخان والناس، فاغرورقت عيناه من سحر البخار الذي يتصاعد من الفناجين، ثم ملأ رئتيه بالهواء والزفرات وبدأ خطابه الطويل...

الطويل.

الـمؤلف

ـ عضو اتحاد الكتاب العرب منذ عام ١٩٨١.

ـ أمين سر اتحاد الكتّاب العرب بحلب منذ عام ١٩٨١ ولغاية عام ١٩٩٠.

ـ يكتب الرواية والقصة القصيرة والمسرحية، والدراما التلفزيونية.

صدر له في الرواية:

١ ـ **شجرة الكلام الكلام** ـ «دار رياض الريّس للكتب والنشر» ـ لندن ١٩٩١.

٢ ـ **جبل الهتافات الحزين** ـ «وزارة الثقافة» ـ دمشق ١٩٩٢.

٣ ـ **الأسوار** ـ رواية تاريخية ـ «دار رياض الريّس للكتب والنشر» ـ بيروت ١٩٩٧.

٤ ـ **الماء والأسماء** ـ «اتحاد الكتّاب العرب» ـ دمشق ١٩٩٨.

٥ ـ **لحظة الفراشات** ـ «وزارة الثقافة» ـ دمشق ١٩٩٩.

٦ ـ **علامات الجثة الضاحكة** ـ ست روايات قصيرة ـ «وزارة الثقافة» ـ دمشق ٢٠٠١.

٧ ـ **العراف والوردة** ـ رواية ـ «وزارة الثقافة» ـ دمشق ٢٠٠٦.

صدر له في القصة القصيرة:

١ ـ **ليلة المغول** ـ «وزارة الثقافة» ـ دمشق ١٩٩٨.

٢ ـ **لحظة البرق** ـ «اتحاد الكتّاب العرب» ـ دمشق ٢٠٠٣.

٣ ـ **اللعب بالأسرار** ـ «وزارة الثقافة» ـ دمشق ٢٠٠٥.

صدر له في المسرح:

١ ـ **التغريبة المعاكسة لقبيلة بني هلال + فوق هذا المستطيل وقع حادث**، مسرحيتان ـ «وزارة الثقافة» ـ دمشق ١٩٧٥.

٢ ـ **ملحمة الأيام الفلسطينية** ـ مسرحية وثقائقية ـ «اتحاد الكتّاب العرب» ـ دمشق ١٩٨٠.

٣ ـ **المهلهل + بعد الليلة الأخيرة + الواوي**، ثلاث مسرحيات ـ «اتحاد الكتّاب العرب» ـ دمشق ١٩٨٩.

٤ ـ **الحبل والكرسي + صحراء الماء + يوميات الأرض الوعرة** ـ ثلاث مسرحيات ـ «اتحاد الكتّاب العرب» ـ دمشق ١٩٩٢.

٥ ـ **مغامرة الرأس المقطوع** ـ مسرحية ـ «دار الجماهيرية» ـ ليبيا ١٩٩٠.

صدر له في مسرح الطفل:

١ ـ **ثلاث مسرحيات غنائية للأطفال** ـ «وزارة الثقافة» ـ دمشق ١٩٧٨.

٢ ـ **أوهام حارس الغابة** (ست مسرحيات للأطفال) ـ «وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٨٢.

القمقم والجني

محمد أبو معتوق

«غير أن محنته الكبرى كانت في الليالي، فبعد العقد عليها تحولت حميدة الهلالي إلى لبؤة، وصارت تجاهد لتمنع زوجها من لمس ظفرها كما صرّحت لأم جنيد جارتها، وقد أدهش تصرّف الزوجة زوجها السيوفي، فبعد ليالٍ طويلة من ادعاء التعب، والألم، والتظاهر بالمرض، اكتشف السيوفي أن زوجته تتقصد أن تمنعه عن جسدها، لذلك صرخ في وجهها غاضباً: تعطيني نفسك بالحرام، وتتمنعين الحلال، من أي طينة أنت؟ ثم لوّح بظاهر كفه الغليظ في الهواء ولطمها على وجهها، فتسربت الزرقة من فروة رأسها إلى عينيها وخديها، وكادت أن تصل إلى سُرّتها.

لم يكن السيوفي يفهم أن زوجته لا تريده بسبب ابنها الذي في بطنها، فهي تخاف على جنينها من الضغط العنيف المتناوب الذي يمتحن السيوفي به جسد زوجته، كما وأن خشية من نوع آخر انتابتها وهي أن يزداد ضغط الزوج فتتحقق مخاوف جارتها أم جنيد ويقع الجدار، وهي مرة أخرى لم تكن تخاف على رأسها، كانت تخاف على الجنين الذي سيتألم كثيراً عندما يحس أن أمه لم يعد لها رأس، وهذا الشعور كان من حقها، فهي لم تكن تحسّ وتعرف أن مطارحة الزوج الدائمة لزوجته بعد الحمل تدخل الجنين في الألفة وتدفعه للاحساس بأن صياغته تتم بفعل مشترك من الأب والأم معاً وليس بفعل من طرف واحد كما تريد حميدة الهلالي لجنينها الذي أحسّت أنه لها وحدها، من زرقة رأسها وحتى تشتت ركبتيها، وأن صياغته وصياغة إلفته شأن من شؤون أمومتها وحدها.

مثل جزيرتين معزولتين في مياه واحدة، كان السيوفي يستدير بظهره إلى زوجته وكانت تستدير بظهرها إليه، وشعور عارم بالمرارة، والعنف يطيح برأسيهما.»

(من الرواية)

الكوكب
رياض الريّس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS